إمارة المنتفق
وأثرها في تاريخ العراق
والمنطقة الإقليمية
١٥٤٦ - ١٩١٨

د. حميد حمد السعدون

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٨/١١/١٩٣٣)

رقم التصنيف : ٩٥٦,٣
المؤلف ومن هو في حكمه : حميد حمد السعدون

عنوان المصنف : امارة المنتفق واثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية ١٥٤٦-١٩١٨

الموضوع الرئيسي : ١- التاريخ
٢- العراق - تاريخ

بيانات النشر : عمان: دار وائل للنشر
* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الرقم المعياري الدولي للكتاب: (ردمك) ISBN 9957-11-022-5

الطبعـــــة الاولى
١٩٩٩م

دار وائـــل
للطباعة والنشـر

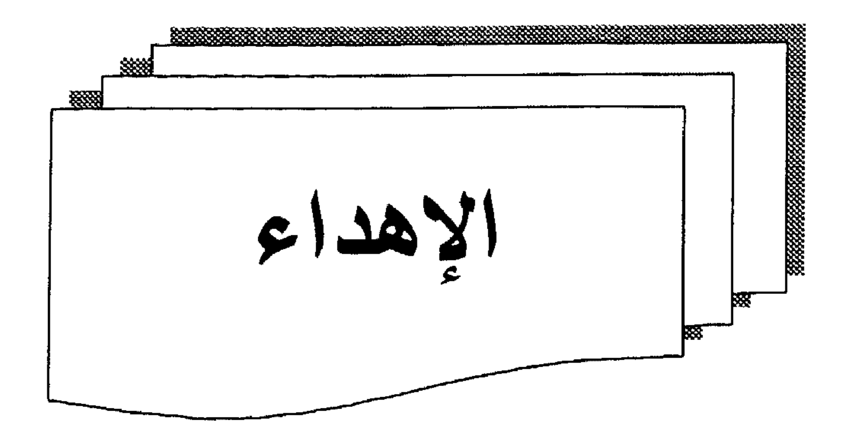
DAR WAEL
Printing - Publishing

شارع الجمعية العلمية الملكية - هاتف : ٥٣٣٥٨٣٧ ص.ب ١٧٤٦ الجبيهة

"شكر وتقدير"

أتقدم بجزيل الشكر والتقدير للأخ الأستاذ ناصر توفيق عبد الكريم الفهد السعدون، الذي بادر إلى تبني طبع هذا الكتاب، تقديراً منه لتاريخ أسرته، وأثرها في تاريخ المنطقة وأحداثها.

"المؤلف"

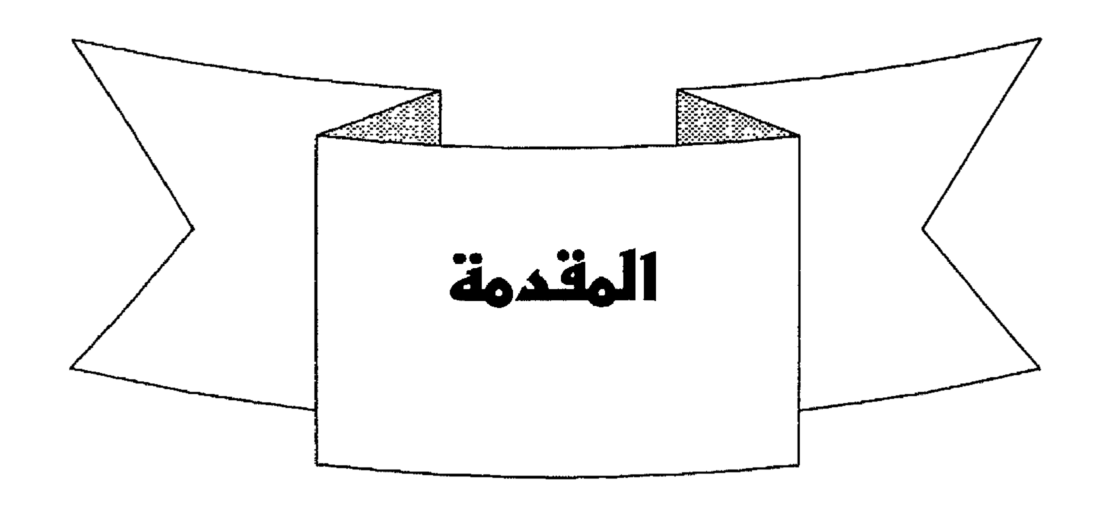


لأخي الشهيد

عارف

حباً ووفاءً

الفهرس


المقدمة

على تخوم القرن السادس عشر، وفي فترة الفتن والقلاقـــل والاضطـــراب، التي سادت العراق بعيد اغتيال بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨م، ظـــهرت إلـــى الوجود، إمارة عربية القبائل والهوى والنفوذ، قدر لها أن تلعب منذ أواخـــر القـــرن السادس عشر الميلادي، حتى الحرب العالمية الأولى، دوراً مهماً في تاريخ العـــراق الحديث والمعاصر، وفي مجريات وأحداث المنطقة الإقليمية عمومـــاً. وقـــد كـــان بإمكان هذه الإمارة في فترات نهوضها، ان تستقل بالعراق وسواحل الخليج العربـــي عن الإمبراطورية العثمانية، لو رضت لأعنتها أن تميل قليلاً لتلعب لعبة السياســـة، بما يتوافق ومصالح بعض الأطراف الدولية، إلا أنها ترفعت عن هذه اللعبة (رغـــم فوائدها) مع كل من طرق بابها من القوى الإقليمية والدولية. والشواهد علـــى ذلـــك واردة في ثنايا هذا العمل، لا لكونها غافلة عن أحداث عصرها، بـــل لأنـــها أرادت لنفسها ان تبقى نظيفة ونقية، لكي تحتل لنفسها موقعاً يطل على التاريخ.

ولذلك نواجه بسؤال مهم وضروري، لماذا نكتب عن المنتفق؟ ومـــا فـــائدة الكتابة عنها؟

وإجابتنا واضحة،...... نكتب عن المنتفق لأنها أكثر الإمـــارات العراقيـــة المستقلة، التي مارست نفوذاً محلياً وإقليمياً، انعكس بشكل واضـــح علـــى الســـاحة الدولية، وهذا النفوذ شكل ثقلاً أساسياً في تكوين الزعامـــات المحليـــة والإقليميـــة، وحقائق الوجود الفعلي على أرض الإقليم لها.

صحيح أن تسمية المنتفق كانت شائعة قبل ظهور هذه الإمارة، مـــن عـــدة حكام سبقوا ظهورها، لكن هذه التسمية لم تحتل موقعها وأهميتها ومكانتها، إلا بعـــد عام ١٥٤٦م ولفترة تقارب الأربعة قرون. كانت هذه التسمية، كتلة كبيرة من التأثير والنفوذ في صنع القرار السياسي إقليمياً ودولياً، بحيث أنها شغلت أعلـــى المقامـــات عند مضائق البسفور أو هناك في دوائر سملا ولنـــدن او عنـــد الجبـــال المحيطـــة بتبريز.

ولذلك فهي التي تقرر وضعها ووضع مناطق نفوذها والمنطقة المحيطة بها، بفعل نهجها الذي نجحت فيه مراراً، وفشلت فيه أحياناً أخرى، لكنها حتى في أيام إخفاقاتها، كانت تتوهج لفعلٍ إيجابي قادم.

ونكتب عن المنتفق، لأن هذه الإمارة، لم تنصف فيما كتب عنها، بل إن الكثير من إشراقاتها المضيئة في تاريخ العراق الحديث والمعاصر، وتاريخ المنطقة، قد جرى التعتيم عليها بشكل مقصود، وللمدرسة الإنكليزية، فيما كتب بهذا الجانب الدور الأساس، لأن المنتفق دون بقية الآخرين، ظلت تقاتلهم حتى يوم الهدنة الذي وضع حداً للحرب العالمية الأولى. ومن الصعوبة بمكان، أن ينسى الإنكليز أعداءهم، حتى وان تطاولت الايام مع هذه الخصومة.

ونكتب عن المنتفق، لأنها جزء أساسي من أحداث وتاريخ العراق والمنطقة، بإخفاقاتها وإشراقاتها، لم تضأ فيها الجوانب الكلية، التي فعلت فعلها في تكوين القيادات ومسارات الأحداث وبالشكل الذي يظهر حقائق المنتفق وفعلهم، ولأن هذه الإمارة كانت ذات حضور واضح في كل الأحداث التي رافقت وجودها، على عموم منطقة نفوذها الواسعة، وقطعاً إن تجاوز ذلك الفعل، ونحن نتحدث عن التاريخ هو معالجة لا تاريخية وغير منصفة.

****

إن الخوض في تاريخ المنتفق، يدفعك شئت أم أبيت، إن تعرّج على تاريخ وفعل الكثير من الحركات والتمردات وأفعال السلطة، والقوى المحلية، والقوى المحيطة بالمنطقة، والقوى الوافدة والطامعة في موقع وثروات المنطقة، وكل تلك القوى لها محركاتها الفعلية ونظراتها المستقبلية، هذا غير أفعالها الآنية، الأمر الذي يجعل الباحث يبحر في محيط هائل من الأحداث والشخصيات، والأفعال المؤثرة واللامؤثرة، الفاعلة والساكنة، الحقيقية والمفبركة، ولذلك فقد يكون العرض قد انزلق هنا أو هناك إلى تفاصيل أو تخوم أثقلت كاهل البحث وهذا ما حصل في

الفصلين الأول والثاني، والتي كنت فيها أكثر من حذر في التعامل مع مصادر المعلومات، مدققا ومقارنا وسائلا وباحثا قدر ما امكنني الجهد.

كما أوليت عناية فائقة على تجنب تحميل الآخرين الأخطاء أو الجور أو الاتهام، ساعيا في ذلك أن يكون البحث منصفاً وواعيا وحقيقيا، ولكني مدرك لحدود إمكاناتي، آملا في من يجد في البحث نقصا أو مثلبة أن يتعامل معهما بنفس تعاملي مع صياغة العمل الكلية، لأن ما يحيط بهذا العمل، كانت حقائق تاريخية، لم نخلقها أو نصطنعها، بقدر ما كانت فعلا حقيقيا. والتاريخ موجود في أي عمل تاريخي، يقوم به كائن من كان، لكن علينا أن نقيس ذلك الحدث بتاريخه الذي وقع فيه، ولا نسطر عليه إحكامنا ورؤيتنا لمفاهيمنا الحالية ونظرتنا للتاريخ.

كما إن تناولي لأحوال هذه الإمارة، والتي أثرت وتأثرت بكل أنشطة الحياة في العراق وشبه الجزيرة العربية وعلى شواطئ خليجها، جاء مرتكزا على موقف مستقل، وليس على موقف محايد. وقد أجهدت النفس أن يكون موقفي مستقلا، لأنني أرى الحياد تحرزا وتجنبا للمحاذير من أي نوع، في حين أجد موقف المستقل، موقفا نقديا، وللأمانة فإني لا أزعم لنفسي موقف المتجرد، وظني أن وهم التجرد غير إنساني، في حين أن كل أحوال هذه الإمارة، صادر من قبل الناس، وهو بالنتيجة نضح إنساني، لكن مع ذلك، فلكل إنسان رؤيته وهي محكومة بموقعه وبمنظوره الفكري والثقافي وتطلعاته الإنسانية.

إن ما ذكر بين دفتي هذا الكتاب، لم يأت عن حبكة مصنوعة، أو سيناريو معد، بل أن هناك حقائق أغفلنا عن عمد الكثير من أحداثها، لكي لا نتهم بالمبالغة في عرض أحداث باتت بعيدة، حتى في ذاكرة من كان مشدودا لقصص وأخبار هذه الإمارة، فكيف بالجيل الجديد الذي قد تكون مساحة معرفته وصلته بالأحداث التي نذكرها، أضعف بكثير من صلته بآخر فيلم سينمائي رآه من خلال جهاز الفيديوتيب

ونسى كثيرا من أحداثه، رغم قصر المشاهدة واسترجاع أحداثها، ...... فكيف بأحداث سنين لا تتراءى حتى عند الأفق.

لذلك لم نكن إنتقائيين، في حالة عرض احوال الإمارة، بل حاولنا قدر ما تمكنا من جهد، أن نتابعها في حالات الانحسار والمد في مقدراتها، وتقييم التأثير الذي فعلته وأثرت فيه بالسلطة المركزية وبالقوى المحلية، المحيطة بها، ومع القوى الوافدة عليها، لأن السيناريوهات المعدة، رغم حبكتها، لا يمكن أن تشغل حيزا كبيرا في أحداث السنين، لأنها لا تمتلك أهم عناصر ديمومتها، ألا وهو أنها، لم تكن واقعا معاشا وحقيقيا، وهذا ما كنا حذرين منه، وابتعدنا عنه بمسافات كبيرة، حتى وان كان بعضه ذا إشراقة في حياة هذه الإمارة، خوفا، -وأكرر- أن نتهم بالمبالغة.

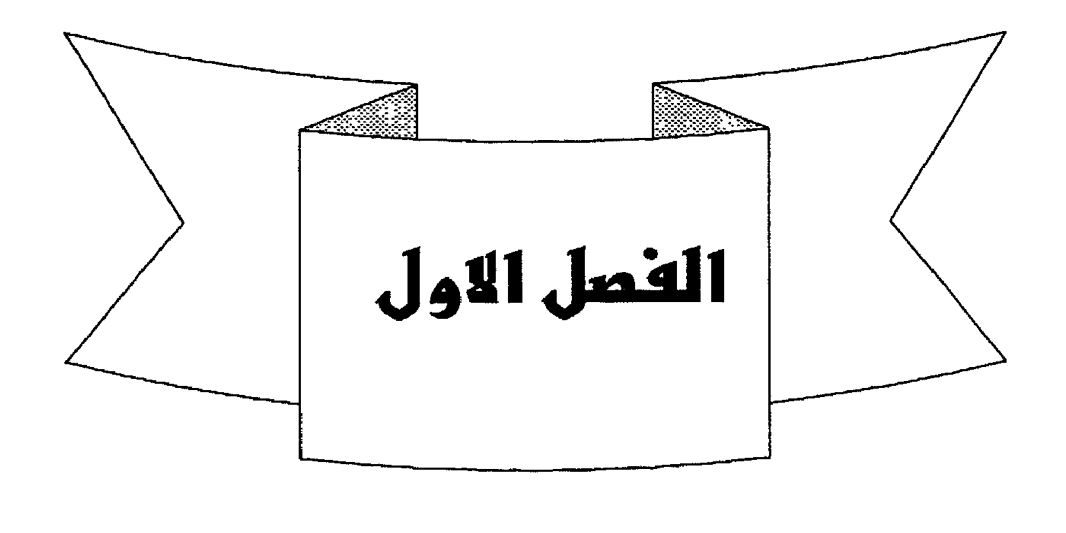
****

وكلمة أخيرة لابد منها، فقد كان ثمة أشخاص أعزاء، تابعوا وجوها من إنجاز هذا الكتاب، فكان لتشجيعهم ومؤازرتهم ولكلمهم الطيب الذي لا يعرف المراء، أبلغ الأثر في بلوغ الغاية منه، ولأنهم لم يكونوا من وراء ذلك يرجون إلا النفع العام، فأني أعدل عن ذكرهم على وجه التخصيص، واقف عند حدود الود الجميل والوفاء الدائم لهم في النفوس. لكن الحق يفرض علي أن أسجل شكري الكبير للأخ د. خالد حمود الفالح السعدون الذي، قرأ وصحح وعدل واقترح في مسودة الكتاب، وكان معي في كل جهد بذل لإنجاز هذا العمل، خصوصا في تزويده لي ببعض الوثائق غير المنشورة والتي أضافت للعمل رونقا ورزانة واضحة. كما أسجل شكري للصديقين العزيزين، الأساتذين (حليم حسن الأعرجي) و (عمر الراوي) اللذين زوداني ببعض المصادر الخاصة والمهمة، فلهما شكري وتقديري.

وقبل أن أنهي كلمات مقدمتي لهذا الكتاب، أود أن أوضح، أن ما تضمنته أوراقي التي هي الآن بيد قارئها، من آراء ومعلومات وتحليلات واستنتاجات، فأني

لوحدي أتحمل مسؤولية أي خطأ فيها، منتظرا من القارئ الكريـــم أي تصحيـــح أو توضيح أو إضافة، دون أن ننسى أن الكمال لله وحدة سبحانه وتعـــالى. بحيـــث لا يخفى علينا أن الإحاطة باحداث وتاريخ أربعمائة عام من وجــود هــذه الإمـــارة لا يمكن أن تتجزه هذه الأوراق، بل استطيع القول، أن هذا العمل مـــا زال فـــي هـــذه الناحية عند بدايات الضفة الأولـــى مـــن بحـــر المنتفـــق السياســـي والاجتمـــاعي والاقتصادي والعسكري والأدبي والاعتباري، الذي فعلته على طول مساحة نفوذهـــا الواسع في المنطقة الإقليمية، .... إنها محاولة نأمل أن تلحقـــها محـــاولات بمـــا يمكننا جميعا من الوصول للضفة الثانية.

وفي الختام أترك هذا الكتاب، بيد قارئه، املا وراجيا أن ينال رضاه.



البدايات

بعد اغتيال بغداد على أيدي المغول عام ١٢٥٨م، هبت على العراق، ريح الخراب والدمار، لتعصف به وتتقاذفه قبائل متوحشة، جاءت منحدرة من أرض القحط والجدب، بعضها مغولي والآخر تركماني، ليس لها بالبلد وسكانه أية رابطة، ولا يهمها غير السلب والنهب والإبتزاز. ومثلما كان على هذه الأرض، أن تشهد أقسى المواجهات وأكثرها ايلاما بين هذه القبائل، أو بين أفرادها تطلعا للتسلط على الحكم، أو بين هذه القبائل وسكان هذا البلد، فقد كان على أرض العراق أن تبتلع هذه الوحوش، مهما كانت قسوتها، مثلما ابتلعت من قبلهم كل الغزاة القساة من ذوي المحدودية الفكرية والإنسانية، والذين لم يروا في هذه الأرض وخيراتها، غير متاع ثمين ليس من السهولة التفريط به.

لقد كان غزوا المغول لبغداد واستيلائهم عليها، فاجعة سياسية وادبية وثقافية، لأن هذا الغزو، قضى على الحضارة القائمة وأباد الثقافات والمعارف التي كانت ناشطة، رغم ضعف الدولة وإنحلال سياستها وسلطاتها.

لقد جاءت الأحداث التي تلت عام ١٢٥٨م، محملة بالدمار والتخريب والسلب الفكري والإنساني، كما أنها اتصفت بالضياع، ليس على مستوى إشراقة ماضي هذه الديار فحسب، بل الضياع فيما تمثله بغداد من قمة فكرية وإنسانية عالية لكل الشعوب الشرقية، وفي المقدمة منها الشعوب الإسلامية. لذلك فإن ما أصاب بغداد والعراق على أيدي المغول والتتار وقبائل القحط المتوحشة، أوغل عميقا في الوجدان العربي – الإسلامي، وعلى جميع الأنشطة.

ففي الماضي كان أي مبدع أو مفكر، غير جدير بالمكانة التي يحققها، ما لم يأت ذلك أولا وأخيرا من بغداد، أرض الفكر والإبداع وحق منح اللقب أو عدمه، اما ما جرى بعد اغتيالها وانحدار كل أفاقي ولصوص القحط والجدب عليها، فقد جعل من هذه المدينة وكل أرض العراق عموما، مأوى للقحط الفكري والإبداعي، عكس ما شهدته وما مارسته طيلة وجودها السابق، وهذا ما إنعكس بشكل أو بآخر،

على مستوى أداء الناس جميعا، كل في محيط إبداعه، بحيث بدت أرض العراق بعد تلك الأحداث، ذكرى جميلة لتاريخ تليد وإبداع متطور وخير وفير، أما وقائع الحياة التي تلتها فقد أبعدت عنها – قسرا وطوعا– كل ما ينهض بمرفق من مرافق حياتها المبدعة السابقة، لأن ما يجري لا يعطي لهذا الجهد حقه او ينصف مبدعه.

ورغم أن النشاط التجاري الأوروبي نحو الشرق، والذي دشنه تجار البندقية في بداية القرن الخامس عشر، بالمبادلة أو الشراء، للحرير أو التوابل أو الأحجار الكريمة، بل وحتى الرقيق، فإن طرق تلك التجارة إبتعدت عن المرور بأرض العراق، رغم معرفتهم بما يمثله العراق وتاريخه من إشراقة مبدعة في التاريخ الإنساني، لأن مناخات الحياة فيه أصبحت مسرحا للقتل والدمار والغزو المتبادل.

بعد إجتياح بغداد، تناوب على حكمها وأغلب أقسام العراق، التتر أولا للفترة الممتدة بين ١٢٥٨ – ١٣٣٨م بقيادة هولاكو والمعروف بـ (ايلخان) والذي سميت دولته على اسمه، "الدولة الإيلخاينية"[١] والتي شهدت تصفيات ونهجا دمويا بين القادة المتنازعين على السلطة، خصوصا بعد وفاة هولاكو.

وكان أسوأ مصائب هولاكو وتتره على العراق، بعد سياسة القتل المتعمد التي مارستها بنشاط هي الأعمال التدميرية والتخريب المتعمد للسدود والانهار ونواظم الإسقاء التي كان تشييدها المحكم منذ القدم المنبع الوحيد للثروة في البلاد[٢]. أزاء ذلك ولأن هذه الدولة، لم تكن مؤسسة على الثروة ولا على الوئام، بل أسست على حيوية متدفقة، كان لابد أن تفسح الطريق لغيرها، خصوصا وأن المغول كما هو معروف عنهم، مولعون بالفتوحات وليس بتأسيس الإمبراطوريات،

---

(١) للأستزادة عن هذا الموضوع يراجع:

د. جعفر حسن خصباك العراق في عهد المغول الإيلخانيين،– مطبعة العاني– بغداد ١٩٦٨.

(٢) ستيفن همسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ القرن الحديث – ترجمة جعفر الخياط – ط٦ – مطبعة أركان – بغداد ١٩٨٥ – ص٢٧.

وهذا ما تحقق حين بات الأمر سهلا لأحد قادتهم المدعـــو (حســن الجلائــري) أن يستولي على مقـــاليد الســلطة ويؤســس دولتـــه الجلائريـــة[٣]، للفــترة الممتــدة بين ١٣٣٨ – ١٤١٠م، والتي شهدت في أيامها نكبة قاسـية عــانت منــها بغــداد والعراق بألم شديد، حينما ظهر تيمورلنك في شوارعها وطرقها، وأذاق النـــاس مــا أنساهم من مصائب مرت عليهم سابقا، ولمدتين، الأولى عام ١٣٩٣م والثانية عـــام ١٤٠٠م.

ولم تختلف أحوال العراق في هذه الفترة عن ما سبقها أيام الأيلخانيين، اللـهم إلا بازدياد القتل وكثرة التدمير لأنها كسابقتها المجدبة فكرا ومعنـــى، كــان ديــدن التسلط والتفرد والتحكم وما يرافقه من تصفيات وخيانات ووشـــايات وغــدر بيــن الأمراء الحاكمين، قد شغل قيادات الدولة عن الالتفات صوب إصلاح ما دمروه هــم ومن سبقهم، الأمر الذي لم يكن عائقا أمام أحد مماليكهم المدعـــو – قــرة يوســف التركماني– أن يؤسس أسرة حاكمة عرفت في التاريخ باسم دولتي الخروف الأســود والخروف الأبيض[٤] ، بعد ان إنشق أولاد مؤسســـها وأبنـــاء عمومتـــهم وقادتـــها وتابعيها ورموز سلطتها إلى قسمين، كلا يرى لون الخروف الـــذي يناســـبه حيــث استمرت هاتان الدولتان طيلـــة الفــترة الممتـــدة مـــن ١٤١٠ – ١٥٠٨م، وكـــانت أوضاعهما كأوضاع من سبقهما من الغزاة، سلبية ومشدودة للخلف والتدمير في كــل شيء[٥].

---

(٣) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٢، شركة التجارة والطباعة بغداد ١٩٥٥ ص٢٢٠.

(٤) يراجع في ذلك:

عبد الله بن فتح الله البغدادي – التاريخ الغياثي – دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني – بغداد ١٩٧٤.

(٥) عباس العزاوي – تاريخ العراق ، ص٢٢١.

هذه الأوضاع لابد أن تكون قد فعلت فعلها في كل ما يحيط بحركة ونمو المجتمع العراقي، الذي لم يكن له رأي أو قرار أو تصور لما يحدث، لأنه كان يعيش غربة في بلاده، وهذه الغربة – وهي سلبية – قد أعطت الغزاة الوقت في ترتيب أمرهم وتثبيت دعائم حكمهم، هذا غير أنها ترافقت مع التدهور الحياتي والمعاشي لعموم ساكني هذه البلاد، لأن طيلة تلك الفترة، كانت هذه الأرض مسرحا لقتال بين حاكم متشبث بالحكم وغاز أو متمرد يريد أن يسلبها منه، وظرف كهذا –قطعيا– لا يسمح لحاكم أو محكوم بتأسيس تقاليد عمل مستقبلية، لأن الأفق المرئي في حينها، لم يكن يسمح برؤيا واسعة.

في هذا الظرف الصعب الذي يمر به العراق من إنحطاط وتخلف ودمار، مع استلاب الناس كافة حقوقهم، تتأسس إلى الشرق منه في بلاد فارس دولة فتية ونشيطة، قدر لها أن تلعب طيلة الفترة التالية لتأسيسها، دورا مؤثرا في أوضاع العراق، هذه الدولة هي المعروفة تاريخيا بـ "الدولة الصفوية" والتي أسسها "إسماعيل بن جنيد ابن الشيخ صفي الدين الأردبيلي"[٦] والذي استطاع أن يبرهن هو وأحفاده عن روح قيادية، وتطلع لدور أكبر، عبر توحيدهم لأراضي بلاد فارس تحت قيادتهم، بعد أن دخلوا العديد من المعارك والحملات العسكرية والفكرية، حتى تحقق لهم ذلك، وأعطوا للعالم – آنذاك – نموذجا جديدا للدولة مبني على فكرة "التشيع".

أمام ذلك العنفوان الذي تميزت به الدولة الصفوية في بداياتها، تطلع مؤسسها اسماعيل نحو بغداد بما تمثله من إغراء مادي وجذب معنوي، يعطي للدولة زخما متزايدا في الاندفاعات القادمة، إضافة لوجود ما يسهل هدفه، وهو أن

---

(٦) عبد الرزاق الحسني – العراق قديما وحديثا – ط٧ – دار اليقظة العربية – بغداد ١٩٨٢ – ص٢٧.

حاكميها كانوا يعيشون فوضى متزايدة من التصفيات والقتل المتبادل، وهذا ما تحقق له في عام ١٥٠٨م، حينما احتل بغداد والحقها بدولته.

ولا نرى حاجة للتنويه بعد كل الذي جرى منذ اجتياح المغول لبغداد عام ١٢٥٨م، بأن العراق مرت عليه فترة طويلة، وهو فريسة للاضطراب والتدمير والفقر، وعرضة لسفك الدماء وحكم الأجانب، يغوص في كل يوم أو شهر أو سنة، في لجج القلاقل والاضطرابات والاستيلاء الجديد. إلا أننا لابد أن نؤشر ما هو ضروريا في فترة الإحتلال الفارسي الأول، والمتمثل "بتحضر" الغزاة الجدد نسبيا عمن سبقهم من مغول وتتر، لأن الدولة الصفوية الجديدة، كانت نتاجا لبعث قومي وديني كبيرين مفعمين بالثقافة والمدنية. كما كان لوجود العتبات المقدسة في العراق، أثر كبير في منح العراق فترة من السلم والهدوء، حيث تقاطر التجار الفرس، على بغداد، وجذب نفوذ الصفويين الديني، حتى العشائر النهرية المتمردة[٧].

وبنفس الوقت الذي شهدت الأراضي الشرقية للعراق نهوضا كبيرا تمثل بالدولة الصفوية، فقد شهدت الأراضي المجاورة لشماله توجهات نشطة من الفتوحات للدولة العثمانية، نحو الشرق، لم تعهده المنطقة سابقا، مما شكل حالة نهوض وتحد للقوى الإقليمية الأخرى في المنطقة وأبرزها الدولة الصفوية, وكان عهد السلطان (سليم الأول) أولى بدايات هذا التوجه.

هذا التواجد القوي ولقوتين، جاء في فترة متقاربة، وبنفس الهمه والحماس المتماثلين، لذلك كان لابد لهاتين الدولتين، وهما في عنفوان سطوتهما وأوج قوتهما من أن تتضارب مصالحهما وتصطدم أطماعهما بشكل أو بآخر، بعد أن رفع كلاهما راية الزعامة الدينية والتناحر الطائفي الذميم الذي سالت بسببه دماء المسلمين تحت

---

(٧) لونكريك – المصدر السابق – ص٣٢.

هذا الإدعاء، بينما كان الأمر يحتم التفاهم بينهما ليعملا معاً على ما يضمن خير الإسلام وإعلاء شأنه، بعد أن صحا العالم الإسلامي في عهدهما من هول الكارثة التي أصابته على أيدي المغول الوثنيين(٨).

وكانت أرض العراق ومدنه مسارح للدمار والقتل، ابتلت بهذا الصراع وخسرت فيه الكثير، مضافاً لذلك – وهو من أخطر الأمور وأهمها – وهو ما لم يقدره أو يهتم به سياسيو وقادة الدولتين معاً، إن أوروبا بكافة قواها واختلاف مناهجها، قد بدأت غزوها للشرق الإسلامي، بشكل هادئ بعيداً عن فبركات وتطبيل الحملات الصليبية السابقة. ولأن الأسباب التي تؤدي للتناحر ومن ثم الاصطدام، ليست بالصعوبة، خصوصاً بعد ما بولغ كثيراً بما اقترفه الفرس من مذابح في بغداد أثناء فتحها، ولأن العراق يمثل درةً ثمينة لأي فاتح، عدا كونه أقرب ساحات الصدام وأهمها، لذلك لم يكن مستغرباً، أن تيمم العساكر العثمانية وجهتها صوب عاصمة الدولة الصفوية – تبريز – وتحتلها بعد معركة جالديران عام ١٥١٤م، والتي استقطع في ضوء نتائجها أغلب أراضي العراق الشمالية لصالح الدولة العثمانية(٩).

هذه المعادلة الجديدة التي إنتهت إليها موازين القوى آنذاك، والتي اتصفت بتقسيم الأرض العراقية لمناطق احتلال ونفوذ، وقع قسمها الشمالي تحت السيطرة العثمانية، ووقعت بغداد وما يحيط بها، والطرق المؤدية لتبريز تحت السيطرة الفارسية، وما تبقى من أرض العراق الأدنى، فقد ظل سائباً، يكون تحت سيطرة من يفرض قانونه الوضعي بالقوة والإكراه، هذا ما كان حاصلاً، حيث كانت مناطق

---

(٨) جعفر الخياط – صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة –ج١ – ط١ – مطبعة دار الكتب – بيروت ١٩٧١ – ص٩.

(٩) محمد فريد – تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق د. إحسان حقي – دار النفائس – ط٥ بيروت ١٩٨٦ – ص ٢٨٧.

الحلة وكربلاء وعنه وحوض الفرات الأوسط، واقعة تحت تـــأثير ونفـــوذ شـــيوخ المناطق مثل مطلق أبو ريشة و ناصر المهنا والتي لم تستطع أن تفرض ســـيطوتها وهيمنتها على كل أرض نفوذها، نظرا للفوضى الضاربـــة الأطنـــاب أزاء تكـــرر مجيء وذهاب الغـــزاة علـــى هـــذه الأرض، أمـــا غـــرب الفـــرات فقـــد ظلـــت الصحراء في بادية الشامية وشمال الجزيرة العربية مرعى للقبـــائل القـــادرة علـــى حماية مراعيها، أزاء من يريد سلبها منهم، بحيث كانت القبائل في حالة سيلان، مـــن ناحية الحركة والتنقل والسكن، فيما يخص باديتها وبوادي الشام والجزيرة العربيـــة، في حين ظلت البصرة تحت قيادة وحاكمية أمرائها من "آل راشد" وكـــانت منطقـــة نفوذهم القلقة تمتد حتى أراضي العمارة والأهوار والجزائر، وما يحيط بالبصرة مـــن مدنٍ وقصبات، ولها الحاكمية على جميع القبائل النازلة على مجرى الفرات الأدنـــى، حتى حدود بادية الشامية(١٠).

كما أن هذه الفترة شهدت تعذر القيام بالاصلاحات بسبب الاضطراب الدائم، وفقدان روح العمل لدى من أخطأته سيوف المحتلين، وقد كان أشد الأمور أيلامـــا، هو استمرار التدهور نتيجة لإهمال الأنهار والترع التـــي يضمـــها وادي الرافديـــن المشهور بزراعته وإنتاجه الوفير، بحيث حولت كثير من الأنهار مجاريـــها، ممـــا سبب – موت– آلاف الدوانم من الأراضي الزراعية الخصبة، وامر كـــهذا يكـــون تأثيره المباشر أولا على السكان وثرواتهم الحيوانية، مما يعني الانتقال وفقا لانتقـــال مجرى الماء، مما يسبب إحتكاكا دمويا بسكان المنـــاطق الجديـــدة التـــي أصبحـــت أراضيها خصبة لمرور الأنهار فيها، وبنفس الوقت، فإن هذا الانتقال الجبري، قـــد زاد من الأراضي المعرضة "للتصحر" وكدس أغلب الناس عند ضفاف الأنهار ومـــا حولها، وهو امر له خطورته من الناحية العسكرية، لأن ذلك يجعلهم في متنـــاول أي

---

(١٠) ميرزا حسن خان – تاريخ ولاية البصرة ترجمة د. محمد وصفي أبو مغلي – جامعة البصرة – مركز دراسات الخليج العربي ١٩٨٠ – ص٣٨.

غاز يهمه تنفيذ واحترام قوانينه بعد أن يستتب له الأمر، مما يعني المزيد من الضرائب والمصادرة والنهب القسري. أما مناطق غرب الفرات الصحراوية، فقد كانت مكانا للقبائل الرحالة أساسا، وما أضيف إليها من قبائل نازحة من هضبة نجد. ولذلك فقد كان تعيين اراضي المرعى لقبيلة دون أخرى في تلك المناطق، أمرا تحسمه الحروب القبلية التي لا تنتهي(١١).

لقد كانت بادية الفرات الصحراوية، المجهز الأساس لنزوح القبائل نحو ضفاف الأنهار وما حولها، لتملأ به أية بقعة من المراعي أو الأراضي الصالحة للزراعة، كما أنها بنفس الوقت كانت تعيش حياة الاستقلال غير المنظم في حياتها(١٢)، أولا: بسبب بعدها عن الحاكم المشغول بمشاغله الخاصة، والمتقوقع في مدنه وقصوره، وثانيا: ليس بها من الإغراء ما يدفع أي حاكم لتجييش العساكر نحوها، وثالثا: أنها لم تشكل خطرا مزاحما لسلطته، ورابعا: أنها كانت تمتلك الخيارات العديدة في الهجرة والنزوح نحو الجهات الأربع، حينما تشعر بما يهدد طرق وأساليب معيشتها التي الفتها لفترة ليست بالقصيرة.

اما على ضفاف الفرات وبقربه، فقد كانت المنازل النهرية نصف الدائمة في العراق الجنوبي، قبائلية من جميع الوجوه، بعد أن يتقدم أحد الشيوخ الصفوف ويفرض نفسه بجدارته وصفاته المتميزة، زعيما على تجمعه القبائلي. كما ان تأسيس مراكز القصبات في هذه التجمعات، جاء أساسا من محطات القوافل المارة بها، أو حول مزار أو عتبة مقدسة، وقد كانت مساكن هذه التجمعات مبنية أساسا بشكل أكواخ من القصب، يعيش أصحابها عيشة ذات صلة واهية بحياة المدينة، من حيث اللغة والافكار وطبيعة البلاد. وهذه التجمعات لم تشهد تغييرات في الأمور

---

(١١) لونكريك – المصدر السابق – ص٢٧.

(١٢) عباس العزاوي – ج٢ – المصدر السابق – ص٢٣٦.

الجوهرية، لأن الأحوال نفسها كانت تولّد الاختلافات نفسها في شؤون السكان المعاشية ودرجة توطنهم واستقرارهم(١٣).

في هذا الظرف كانت عشائر غرب الفرات والجنوب عموماً، تعيش فترة من الخلل الأمني والعقبات الإقتصادية والتناحر والقتال الدائم، بسبب محدودية نشاطاتها وقلة التبادل السلعي والاجتماعي، نتيجة الخلل الكبير الذي يعاني منه العراق أزاء تكرر مرور الغزاة على أرضه، والتدهور والخراب اللذان أصابا سكانه وأرضه، ورغم مأساوية ما حدث وإيغاله عميقاً في الروح والوجدان، فإن هذه الأوضاع دفعت للأمام بنمط مزدوج الأوجه للحياة، يميز المناطق السهلية في العراق. حيث كانت المناطق الصغيرة للاستيطان الدائم، والمدن النهرية والبلدات ذات المزارع وبساتين النخيل المحيطة بها، تقود فجأة إلى عامل المجتمع الوسيط الأكبر، شبه المستوطن وغير المستقر للشيخ النهري ورجال عشيرته، وكان عالم الصحراء القلق والبدوي تماماً، يضغط على هاتين المنطقتين كلتيهما(١٤). هذه الحالة ساهمت في البذور الأولى لتكوين القيادات المحلية، وبالطريقة التي جعلت من تطلعاتها تأخذ مديات أوسع من حقائق القوة التي تملكها، خصوصاً وأن صـ[illegible] السلطة المركزية وإهمالها لأوضاع الناس قد سرّع من بروز هذه القيادات [illegible] من قبل مجتمعاتهم سواءً كانت المستقرة او شبه المستقرة، وأعطى لمجتمع الصحراء القلق والمقلق، نفوذاً وهيبةً يتحددان بضوء إمكاناتهم على ايجاع السلطة المركزية.

كل ذلك –بسلبياته وايجابياته– شئنا أم أبينا، لابد أن يحفر في وجدان وتطلعات المجتمع بكافة شرائحه وفئاته، وفيما يخص المنتفق فإن القول صحيح،

---

(١٣) لونكريك – المصدر السابق – ص٢٤.

(١٤) حنا بطاطو – العراق، الطبقات الإجتماعية والحركات الثورية – الكتاب الأول – ط١ – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت ١٩٩٠ – ص٩٠.

بأن المحاولات الأولى للسلطة السياسية في بلاد ما بين النـــهرين كـــانت بداياتـــها الأولى في كيش ولكش وأور وأكد ولارسا والوركاء[١٥]، لكن ذلك التراث الضخـــم لم يسترجع كقوة فعل دافعه للأمام، ولا أظن بأنني أتجاوز بالقول أنه لم يحضر فـــي ذهن أهل تلك الديار في ذلك الوقت لقلة الوعي وتعدد مرور الغزاة، هـــذا غـــير ان الظلم الذي مورس ضدهم كان كبيرا، لكني واثق أن آثار وخرائب سومر وزقورتـــها ليستا ببعيدتين عن الناظر، حيثما يتطلع أي واحد من اعراب غرب الفـــرات، عـــبر النهر أثناء ارتواء ماشيته وإبله منه، مضافا لذلك أن هذه الديار وهـــذا مـــا يعرفـــه الجميع ويشعرون به، قد شهدت نزول أول رسالة توحيدية سماوية متمثلـــة بـــالنبي "إبراهيم الخليل" عليه السلام.

لذلك فنحن واثقون –رغم كل ذلك الإحباط والظلم –أن ذلك الماضي التليـــد كان متكلسا في الوجدان، يبحث عن من يزيل شوائبه ليطلقه للأمام قوة لا تقاوم. في تلك الفترة، وتحديدا في بدايات القرن السادس عشر الميـــلادي مثلمـــا تجمـــع كـــل الروايات، ينزح الشريف (حسن[١٦]بن مالك[١٧]بـــن ســـعدون[١٨]بـــن إبراهيـــم[١٩]

---

(١٥) ليو أوبنهايم – بلاد ما بين النهرين– ترجمة سعدي فياض – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٦ – ص٦٥.

(١٦) أول من هاجر للعراق بعد خلافه مع إخوته. سكن نجد اولا، ثم تحول فيما بعد نحو باديـــة الشامية على يد أبنائه وأحفاده تأسست إمارة المنتفق المعروفة.

(١٧) قضى أغلب حياته في المدينة المنورة. كان ميسور الحال. أعقـــب أربعـــة أبنـــاء (حســـن وبركات ومهنا ومسرور)، توفى ودفن في المدينة المنورة نهاية القرن التاسع الهجري.

(١٨) عاش مع والده وبظله في المدينة المنورة وبوادي نجد. شهد سقوط إمارة أهله في المدينـــة عام ٨٥٠ هـــ على يد أمراء مكة الحسنيين.

(١٩) عاصر الأمراء الأواخر من أبناء عمومته، ودخل معهم وضدهم في صراعات عجلت فيمـــا بعد بسقوط إمارتهم. لقب بـــ "أحمر العينين" للحمرة الزائدة في عينيه قياســـا لأخوتـــه وأقرانـــه الآخرين. أول من نزح من المدينة المنورة نحو بادية نجد، ليبتعد عن خصومات أبناء عمومته، ثم

بن كبيش[٢٠]بن أبي عامر منصور[٢١]بن أبي سعيد جماز[٢٢]بن شيحا[٢٣] بن هاشم[٢٤]بن أبي فليته قاسم[٢٥]بن المهنا[٢٦]بن شهاب الدين الحسين[٢٧]بن أبي عمارة المهنا[٢٨] بن أبي هاشم داود[٢٩] بن أبي أحمد القاسم[٣٠] بن أبو علي عبد

أوغل في بادية الشامية، لكنه قتل، وقبره مزار معروف شمال مدينة السماوة. أمه (أم حكيم بنت المغيرة البقيعية).

(٢٠) تأمر على المدينة المنورة بوجود والده، وانتقلت الإمارة منه لإخوته وأحفادهم. توفى عام ٧٨٠هـ.

(٢١) أمير على المدينة المنورة، حيث طالت إمارته حتى الزمه أبناؤه بالنزول عنها لابنه كبيش. أعقب ثمانية أبناء. كان رجلا عزوما وجوادا. قتل عام ٧٢٥هـ على يد أحد أقاربه.

(٢٢) أمير المدينة المنورة في نهايات القرن السابع الهجري. له عقب في الحلة سكنوها بعد سقوط إمارتهم. أعقب تسعة بنين.

(٢٣) تأمر على المدينة المنورة بعد عام ٦٤٠هـ – دخل مع أمراء مكة في معارك عديدة سانده فيها صاحب مصر "الملك الصالح". أعقب سبعة بنين.

(٢٤) تأمر على المدينة بحدود ٦٣٠هـ. يطلق على عقبه الهواشم.

(٢٥) تأمر على المدينة المنورة وكذلك أولاده. لقب بأبي فليته لسخائه وكرمه الذي بات يضرب به المثل. أعقب هاشم وجماز. شارك في تحرير القدس من الصليبيين وقاتل إلى جانب السلطان "صلاح الدين الأيوبي" الذي كان يتبارك بوجوده معه. حكم سبعة عشر عاما. جمع إلى جانب كرمه شجاعة فائقة.

(٢٦) أمير المدينة المنورة في النصف الثاني للقرن السادس الهجري. يقال لولده "المهاينة" له سمعه كبيرة في الحجاز وله مواقف مشهورة بوجه أمراء مكة. أعقب ثلاثة بنين.

(٢٧) تأمر على المدينة المنورة في بداية القرن السادس الهجري من أعقابه المناصير والوحاحدة والحمزات.

(٢٨) أمير المدينة المنورة بعد ٤٦٠هـ.

(٢٩) تأمر على المدينة المنورة بحدود ٤٤٠ هـ أعقب أربعة بنين.

(٣٠) أمير المدينة المنورة في بداية القرن الخامس الهجري أمه فاطمة بنت أحمد بن عبيد الله بن حمزة بن عبيد الله الأعرج أعقب خمسة بنين.

الله[٣١] بن أبي الحسن طاهر[٣٢] بن أبي الحسن يحيى النسابة[٣٣] بن الحسن[٣٤] بن جعفر الحجة[٣٥] بن عبيد الله الأعرج[٣٦] بن الحسين الأصغر[٣٧] بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب) عليهم أفضل السلام وأتمه[٣٨].

---

(٣١) تأمر على المدينة المنورة بحدود ٣٨٠هـ عالم فاضل وخطيب فصيح. زار مصر ومات فيها مسموماً بعد أن رفض طلب الحاكم الفاطمي تزويجه من إحدى بناته. أعقب ثلاثة بنين.

(٣٢) كان محدثاً كبيراً ونسابه معروف. له همة عالية وصيت كبير في أنحاء الحجاز، حتى أن أقاربه وإخوته كان وضعهم يلتصق بطاهر وفضله. يضرب المثل بجوده وشجاعته. اعقب ستة بنين، يقال لذريته "العرفات" و"الكثرة" و "المهاينة" مدحه أبو الطيب المتنبي بقصيدة يقول فيها:

إذا علوي لم يكن مثل طاهر   فما هو إلا حجة للنواصبِ

هو ابن رسول الله وابن وصيه   وشبههما ثبت بعد التجاربِ

(٣٣) أول من اهتم بجمع أنساب آل أبي طالب، حيث جد بجمعها بكتاب نسابة معروف في الحجاز، حتى قيل عنه "يحيى النسابة". خلف سبعة بنين، وتوفى في بداية القرن الرابع الهجري.

(٣٤) كان منقطعاً للتفقه والتبحر بالعلوم الشرعية.

(٣٥) لقب بالحجة أزاء ما يحمله من علم ومنطق وفهم وتبحر بالدين. من أئمة الزيدية المتقدمين، له صيت ومكانة كبيرة في اليمن، وكانت له شيعة كبيرة يسمونه "حجة الله" كان عالماً فاضلاً محدثاً، حتى إعتبره علماء الحجاز وعموم المسلمين من أبرز علماء أهل البيت وأتقاهم توفي بحدود ٢٠٠هـ.

(٣٦) توفى عام ١٥٧ هـ في حياة والده. كان يتطلع للخلافة والرئاسة أزاء ما يمكله من قدرات وإمكانات. شهد ميلاد الدولة العباسية، وكانت له عند الخليفة السفاح منزلة متقدمة. أمه (خالدة بنت حمزة بن مصعب بن الزبير).

(٣٧) توفى عام ١٥٧هـ بعد ابنه بقليل ودفن بالبقيع كان عفيفاً فاضلاً عالماً محدثاً.

(٣٨) فيما يخص النسب يراجع:

أ. النسابة السيد جعفر الأعرجي – الأساس في أنساب الناس.

ب. النسابة السيد جعفر الأعرجي – الدرة الأبدية في أنساب السادة الأعرجية.

جـ. مهدي القزويني – العلويون في العراق.

د. ابن عنبه الحسيني الداوودي – عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب.

في تلك الفترة اتجه الشريف حسن إلى بادية الشامية غرب الفرات، بعد أن اختلف مع أخوته في الحجاز لأسباب عائلية. وقد أقام قبيل وصوله لبادية الشامية، على القرب من بلدة "عنيزة" النجدية، حيث أسس هناك قرية بدأت تكبر يوما بعد آخر، أسماها "الشبيبية" ما زالت قائمة لليوم بهذا الاسم، تيمنا باسم ولده –شبيب– الذي كان يرافقه وشقيقته – نوره–، ولذلك ما زال نعار عموم آل السعدون بـ "أخو نورة". لكن الأيام لم تتوافق وما أراده الشريف حسن، فيتوفى شبيب وشقيقته، ويهجر الناس "الشبيبية" بعد فقدهم لفارسها، مما يضطره إلى شد الرحال مجددا، لكن هذه المرة كانت الرحلة نحو الشمال، وبالتحديد نحو بادية الشامية(٣٩).

وبتقديري أن هجرة الشريف حسن لها أسبابها المبدئية والأخلاقية التي أراد منها أن تترجم إلى مفردات ذات صور مرئية في حياة الناس، بعد أن وجد ان أخوته قد تعايشوا مع الحالة ووقائعها بعد سقوط إمارتهم في المدينة المنورة على يد أمراء مكة. كما أن الهجرة بشكل عام عند آل البيت، تعني في صياغتها البحث عن تأسيس كيان، يكون واحة أمان لهم أزاء تتابع الظلم والقتل عليهم، لذلك فإني أرى أن الشريف حسن في هجرته، قد جاء معبئا في إظهار حالة تمكنه من ان يأمر

هـ. أبو الفرج الإصفهاني – مقاتل الطالبيين.

و. جمال الدين عبد الله بن أبي البركات الحسيني الجرجاني – بحر الأنساب.

ز. ضامن بن شدقم الحسيني – تحفة الأزهار في نسب بني فاطمة الأطهار.

ح. محسن العاملي – أعيان الشيعة.

ط. أحمد محمد صالح البرادعي – الدرة السنية في أنساب الحسنيه والحسينية.

ي. لغة العرب – الجزء (١١) – السنة الثانية – أيار ١٩١٣.

ك. مشجرات نسب عائلية قديمة.

(٣٩) سليمان فائق – تاريخ المنتفق – ترجمة محمد خلوصي الناصري – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٦١ – ص٧٣.

بالمعروف وينهي عن المنكر ويعز ويكرم أبناء عمومته، خصوصاً وأن ظلم الأقربين من أمراء مكة لم يعد يسمح لهم بمراجعة حتى روزنامة أيامهم وما تحفل به.

لقد حطت رحال الشريف حسن، عند بوادي الشامية، حيث نزل الباطن غربي الفرات، وكانت تلك الديار منازل "بني مالك" وهناك نزل بجوار زعيمهم (شيحان بن خصيفة) فأكرمه وأحسن مثواه، بعد أن عرف نسبه، وبانت له مظاهره التي تدل على الشرف والمجد والحسب، وكان ذلك عام ١٥٠٠م[٤٠]. وكان يرافق الشريف حسن حينما نزل الباطن، بعض أتباعه.

لقد كانت مشيخة بني مالك في غرب الفرات، ذات نفوذ واضح وهيمنة واسعة في المنطقة، وبالشكل الذي أعطاها قوة بين التجمعات القبائلية المعروفة آنذاك، ولذلك فمن غير الممكن أن يجاور الشريف حسن، عشيرة ذات نفوذ قليل في المنطقة. فمجيئه إليها ونزوله معها، يعني اعترافاً بقوتها وبنفوذها، مضافاً للتوضيح ان الشريف حسن كان وعيه مشغولاً بما تعرضت له أسرته في المدينة المنورة من قتل على يد أمراء مكة، فكان عليه في هجرته هذه، ان يقدر موازين القوى في المنطقة وفعلها المؤثر، فعليه فإن ذهاب الشريف حسن ونزوله على بني مالك، يعني اعترافاً أكيداً بالمنزلة التي يمثلوها بين عشائر وتجمعات المنطقة.

كان الشريف حسن، حسب المتواتر من الروايات، حسن الصورة وعلى جانب كبير من السخاء والكرم، ويحفظ الكثير من الروايات التاريخية، وله معرفة واسعة بأنساب العرب وذا هيبةٍ ووقار، فكان ديوانه مزدحماً بضيوفه من بني مالك. وبعد أربع سنوات من إقامته يتوفى الشيخ – ابن خصيفة – فتنتقل الزعامة

---

(٤٠) المصدر السابق– ص ٧٤.

إلى الشيخ (عبد الله الخالد) الذي يزوج الشريف حسن ابنته (طليعـــة) وذلـــك عـــام ١٥٠٥م والتي انجبت له (محمدا وعبد الله وشبيبا)[٤١]. وبلا شك أن مقـــدم وزعيـــم بني مالك لا يزوج إبنته من رجل خامل، ما لم يكن هذا الرجل عظيما فـــي نســـبه شريفا في حسبه، كما هو حال المصاهرة وآدابها عند الزعماء الكبار من العرب.

وقد قدر لهذا الزواج أن يكون سببا في كل التطورات الإيجابية اللاحقة فـــي المنطقة.

وتمر السنوات على الشريف حسن وأسرته وهم بضيافة أنسابه مـــن بنـــي مالك، ذات ايقاع هادئ وطبيعي، وهو في أحسن حال، يحاول أن يفعل شـــيئا لمـــن ضيفوه وأكرموه وأحسنوا مثواه، في حين كانت عيونه تراقب بتلهف أبنـــاءه وهـــم يغادرون مرحلة الصبا إلى الشباب ومن ثم إلى الرجولة.

ونتيجة لما كانت عليه أحوال العراق آنذاك، من تشاحن ونفرة، الأمر الـــذي يسهل القتال والاحتراب تحدث معركة بين قبيلتي بني مالك والأجود عـــام ١٥٣٠م. حيث كانت الأجود مسيطرة وذات نفوذ يمتد من جنوب مدينة الحي وحتى مشـــارف الناصرية، وعلى طول نهر الغراف، وبلا شك أن سيطرة قبيلة على هـــذه المنطقـــة الزراعية، تؤشر وبدون أي شك على قوة ومتانة هذه القبيلة وإمكاناتها الجيدة التـــي استطاعت بها أن تفرض هيمنتها على هذه الأرض الخصبـــة دون بقيـــة العشـــائر والقبائل الأخرى، رغم تعرضها لمزاحمة من قبل الآخرين الطامعين في الســـيطرة على هذه الأرض، التي تستغلها وتسيطر عليها الأجود. لذلك فقد كان من الطبيعـــي أن يشارك الشريف حسن وأبناؤه وأتباعه إلى جنب بن مالك، الذين أحسنوا ضيافتهم و أجاروهم. في تلك المعركة أبدى أبناء الشريف حسن، رجولة متمـــيزة أفرحـــت أخوالهم.

---

(٤١) علي الشرقي – ذكرى السعدون – مطبعة الشابندر – بغداد ١٩٢٩ – ص١٣.

وبعد أيام من القتال، مال الطرفان للصلح، بعد ان فقد الشريف حسن ولده الأوسط –عبد الله – وقد إمتنع مقدم بني مالك من إقرار الصلح، إلا بعد إرضاء نزيلهم الهاشمي حفظا لحقوق الجوار ورعاية لذمامه، وقد وافق الأجود على ذلك، إلا أن الشريف حسن، إمتنع من تكليفهم بأي شيء، ورد على سراتهم وفي مقدمتهم "آل وثال" زعماء الأجود الذين مشوا إليه بالقول (نحن معاشر الإشراف لا نقبل الدية عن دمائنا، وديتنا القص بالقص وهذا شرع الله، ولكن في هذه الحالة لم يعرف القاتل، وطالما الجميع راغبون في الصلح، فإني متنازل عن دية ولدي إكراما لمجيئكم، وعسى الله أن يصلحكم جميعا[٤٢]). ولكن مقدم بني مالك لم يقتنع بذلك إكراما للشريف حسن، الذي وقع تحت الحاح شديد من قبل الطرفين. وكترضية لطلباتهم ورغبتهم الصادقة في الفعل، طلب الشريف حسن من الطرفين أن تكون دية ولده القتيل "ان لا يرد له جاه أو طلب من الأجود وبني مالك، وهذا له ولورثته من بعده" وقد وافق الطرفان على هذا الطلب. في حين يذكر البعض من المؤرخين والكتاب شروطا أخرى متعددة طلبها الشريف حسن كترضية له، حيث ذكروا أنه طلب:

١. أن لا أنهض لكل وارد منكم عليّ.

٢. أن تكون تحية الوارد منكم عليّ تقبيل يدي.

٣. أن تكون لي عندكم جباية في كل ربيع شاتان "منيحة وذبيحة" على كل بيت.

٤. أن تكون هذه الإمتيازات لي ولأولادي وأحفادي ما تعاقبوا ونافذه على بني مالك والاجود.

إلا أن التدقيق النقدي فيما ذكر من شروط، مضافاً إليه تـوارد الأحداث التالية حتى تأسيس إمارة المنتفق، تتسق والطلب الأول الذي طلبه الشريف حسن،

---

(٤٢) المصدر السابق – ص١٤.

وتنسف تلك الشروط التي ذكرها البعض من الكتاب، والسبب الذي يدعوني إلى ذلك، أن أية إشتراطات قاسية من ضيف على عشائر قوية، معناه طلب الزعامة عليهم وعلى عشائرهم، ولا أظن أن الامر الذي جاءوا من أجله لترضية الشريف حسن، يستوجب منهم التنازل عن قيادة عشائرهم له، بسبب فقده لولده في معركة قتالية، لأن ذلك طبيعي ومتوقع، هذا غير أن الرجل لم يطلبها، لأن طلب الزعامة يستوجب قوة في الأفراد والإمكانات المالية العالية، وهذا ما كان غير متوفر للشريف حسن في حينه. واعتقد أن ما ذكره البعض من الكتاب من شروط، جاء إما من رواة غير دقيقين، وإما من تحامل مقصود جرى تضخيمه بغير حجمه الحقيقي.

إن ما ذكر من شروط غير حقيقية، زعم البعض أن الشريف حسن طلبها لنفسه، اجزم أن تلك الطلبات سيجري رفضها من زعيمي العشيرتين لأن القبول بها (كما ذكرت) هو شطط غير مقبول في ديوان القبائل العربية، الأمر الذي يعزز ما ذكرناه، من أن طلبه الحقيقي، هو ما طلبه في محضر زعماء الاجود وبني مالك، لأن الزعامة لا تنتزع بسبب قتيل واحد، في أمر طبيعته القتل والموت.

صحيح القول، إن سماحة الشريف حسن وَحَِلِهِ الذي أقترحه لِديّة ولده القتيل، قد أعطاه محبة خاصة ومركزية واضحة لدى الطرفين، إلا أنه وبنفس الوقت قد أطفى نائرة القتل والغزو المتبادل بين الطرفين، وهذا ما أكسبه منزلة روحية تتوافق ونسبه الهاشمي، حيث بات إلى حد ما، حكما في حل النزاعات الحاصلة، لان الطرفين كليهما، بدءا يلتجئان إليه في حل إشكالاتهما، بعد أن شاع طلبه، والتزام بني مالك والأجود أن لا يردوا له طلبا، وقد وفر هذا الأمر أن تتسع مكانة الشريف حسن وأسرته بين أفراد القبيلتين، بل إنه حتى الغرباء باتوا يتوسطونه في حل مشاكلهم، إن كانت ذات علاقة أو تماس ببني مالك أو الأجود، مستغلين منزلته لديهم وثقله المعنوي عند الجميع.

ويدفع الشريف حسن، طريق الوئام والمحبة بين الأجود وبني مالك وأسرته، نحو آفاق أبعد، حينما يزوج ولديه الباقين (محمد وشبيب) من الأجود، لكي يتناسيا دم أخيهما، ولتكون رابطة القرابة والمحبة بين كل الاطراف، الطريق الأسلم في حل مشاكلهم القادمة إن حدثت. وبهذا الحل خلط الشريف حسن نفسه وأسرته في كل ما يحيط بالأجود وبني مالك، سواء كان خيرا أم شرا، وقد كانت سيرة الشريف بين أنسبائه من بني مالك والأجود مبنية على الإحترام والمحبة واحترام الشرع والتمسك به، حتى توفاه الله عام ١٥٣٥م، وهو ينوف على الثمانين من العمر.

وأزاء التشطير الذي طبع العراق خلال تلك الفترة ما بين الفرس والعثمانيين، ونتيجة لتضاؤل الهمة لدى الدولة الصفوية في الإحتفاظ بالعراق، خصوصا بعد وفاة مؤسسها، يتقابل مع ذلك هوس وتعبئه دينية عالية لدى سلطات استنبول ترافقت معها عرائض الإسترحام التي تسلمها السلطان سليمان القانوني والتي تطلب حمايته، وتشحذ هممه ومعنويات جنده، لذلك لم يجد العسكر العثماني مشقة في احتلال بغداد، خصوصا بعد أن ذهب رؤساء المدينة حاملين مفاتيحها للفاتح الجديد، وهكذا تسنى للقانوني أن يدخل بغداد بأبهة وسهولة عام ١٥٣٤م، ليخضع بموجب هذه الحملة كل العراق تحت السيطرة العثمانية[٤٣].

أما حكام البصرة من "آل راشد" فقد تصرفوا بكياسة، حينما أعلنوا تابعيتهم للدولة العثمانية، بعد أن أرسل حاكمها مغامس الراشد ولده ووزيره لمقابلة السلطان العثماني، حيث سلموه مفاتيح البصرة دليلا على تابعيتهم، وقد سر هذا التصرف سليمان القانوني، حيث خص وفد حكام البصرة بمقابلة وهدايا كثيرة[٤٤]. ولذلك

---

(٤٣) لونكريك – مصدر سابق – ص٣٨.

(٤٤) ميرزا حسن خان –مصدر سابق – ص٥٢.

أصبح العراق أجمع من الناحية النظرية تابعاً للدولة العثمانية، بعد ارتباط حكام البصرة بباشوية بغداد، رغم استقلالها الذاتي عن سلطته الفعلية.

لذلك فإنه حتى وفاة الشريف حسن، لم تكن أية صيغة لتأليف اتحاد عشائري قد ظهرت إلى حيز الوجود فيما بين بني مالك والاجود، لكن قد يكون طريق هذا الاتحاد قد بدأ يختمر في العقول بشكل جنيني، خصوصاً وأن الفترة التي أعقبت آخر معركة بين الأجود وبني مالك وأثناء حياة الشريف حسن، قد بدأت تعطي الانطباع للجميع بأهمية طريق السلام والاتحاد والذي رعى خطواته الأولى، مضافاً لذلك، أن هذه الفترة قد شهدت الخير الوفير للجميع على صعيد الإنتاج الزراعي والحيواني، بسبب ابتعاد جميع الأطراف عن التناحر والحروب، مما انعكس في زيادة أفراد العشيرتين.

لذلك يمكنني القول، أن الطريق الذي بدأه الشريف حسن، بين الأجود وبني مالك، هو طريق وحدوي، ومشروع لاتحاد قادم وواسع، بدأت ملامحه واضحة للعيان، حينما دفع الشريف حسن كلا الطرفين، مستغلاً ثقله المعنوي عندهما نحو طريق الوئام والسلام. لأن في المنطقة التي عرفت فيما بعد بـ "المنتفق" قبائل متفرقة ومتناحرة، بل أن كل عشيرة لها استقلالها "الهش" والذي لا يصمد أمام أية هزة أو محنة، هذا غير أن الفوضى كانت ضاربة إطنابها، يرافقها انفلات أمني عانت منه المنطقة وسكانها وزائروها كثيراً، كان أبرز سماته في ارتزاق الناس ومدار عيشهم السلب والنهب والغزو المتبادل.

بعد وفاة الشريف حسن، وما إكتسبه من منزلة روحية عالية عند بني مالك والأجود، تولى إبنه الشريف محمد دوره الذي لم يختلف عن دور أبيه، حيث المشهور عنه، أنه كان ميالاً إلى إشاعة السلام بين الجميع، محباً للإصلاح. مضافاً لذلك ان أخواله بني مالك، وهم الأكثر نفوذاً آنذاك، قد أعطوا ابن أختهم نفوذاً ومنزلةً عالية، وسمحوا له بتشجيع من مقدمهم الشيخ -عبد الله- في التدخل بالعام

والخاص من حياتهم، خصوصا وأنهم قد اختبروا شجاعة ابن أختهم في معاركهم السابقة مع الأجود.

وكالعادة حينما يحين تسديد الأموال للحاكم الرسمي الذي يخضع له بنو مالك، فقد حدثت مشكلة بين زعيم بني مالك وحاكم البصرة آنذاك راشد بن مغامس بن محمد الراشد بخصوص جباية الأموال من العشائر، حيث أعلنت عشائر بني مالك العصيان، وطردت جباة الراشد واستعدت للحرب، لكن حاكم البصرة لم يكن ممن ترهبهم مثل هذه الأفعال، فجيش عسكرا كبيرا لغرض اخضاعهم بالقوة واستحصال الأموال المقررة عليهم [٤٥]. ولأن بني مالك لم تكن مستعدة لمجابهة مثل هذا الجيش الضخم، فقد أحست بالخوف من العواقب، فبادر الشريف محمد وهو العارف بأحوال أخواله وضخامة الجيش المواجه لهم، فأقنعهم بإطاعة حكومة البصرة ودفع الضرائب لها، بعد أن ذكرهم بطلب والده، بأن لا يرد له ولأولاده طلبا، ويقتنع بنو مالك بالأمر، فيذهب الشريف محمد لمقابلة الأمير راشد قائد الجيش، ويتعهد له بتسديد ما عليهم من الرسوم والضرائب لحكومته، فينسحب الجيش، ويشكره أخواله على فعله، كما أنه ينال حظوة وقبولا من قبل حكام البصرة للطريقة التي جرى فيها تسديد الضرائب وإبعاد الحرب، فيلقب منذ ذلك الوقت بـ محمد الوسيط [٤٦].

وتتكرر الخلافات بين حكام البصرة وبني مالك، تترافق معها وفاة مقدم بني مالك الشيخ –عبد الله الخالد– الأمر الذي عقد من تصريف الأمور فيما بينهم، مما يدفعهم ذلك إلى الطلب من الشريف محمد، حل المشاكل المالية بينهما، فيلتزم من حاكم البصرة، وكالة جباية عشائر بني مالك بموجب عقد التزام عام

(٤٥) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٤ – ص٤٧.
(٤٦) علي الشرقي – مصدر سابق – ص١٥.

١٥٤٠م[٤٧]. وتشاء الأقدار أن يمّن الله على ديار بني مالك بظروف طبيعية ومناخية جيدة، فيكثر الخير العميم، بحيث لم يشكل إعطاء الرسوم على الجميع مشكلة أو إرهاقاً، كما أنه جنبهم تجريد الحملات العسكرية عليهم وما تجره من خراب وتدمير.

وبعد سقوط حكام البصرة من "ال راشد" نتيجة للحملة العسكرية التي جردتها الدولة العثمانية عليهم عام ١٥٤٦م بقيادة والي بغداد أياس باشا[٤٨] واخضاع ولاية البصرة للحكم العثماني المباشر، وما رافق هذه الحملة من قتل وتدمير، يقوم الشريف محمد، بتسديد ما بذمته من ضرائب ورسوم عن عشائر بني مالك للحاكم الجديد إبراءً لذمته، وليجنب نفسه وأخواله أهوال حرب غير مستعدين لها ولا راغبين فيها، إذا ما تأخروا عن تسديد الضرائب المستحقة عليهم، فيعجب الحاكم الجديد بوفاء وأمانة الشريف محمد، ويشمله بمزيد من اللطف والعناية، حيث يقره رئيساً على قبائل المنتفق بديلاً عن أمراء "آل راشد" الذين إنتهت حكومتهم، باحتلال العثمانيين للبصرة عام ١٥٤٦م.

ومن هذا التاريخ، يدخل إسم –المنتفق– الذي نعنى به في بحثنا هذا، والذي جرى تداوله كثيراً في الأدب السياسي العراقي حتى يومنا هذا مضمار السياسة والحرب والسلطة والحكم. ففي لفظة المنتفق خمس لغات هي، المنتفق بقاف، والمنتفك بكاف، والمنتفج بجيم، والمنتفگ بكاف فارسية، والمنتفچ بجيم فارسية، وفصحاهن الأولى، لأنها هكذا وردت في كتب الأقدمين من البلقاء، وهذه لا تزال ترد بهذه الصورة في من يتحرى الفصيح في كتابته وكلامه[٤٩].

---

(٤٧) المصدر السابق – ص١٦.

(٤٨) لونكريك – مصدر سابق – ص٤٧.

(٤٩) منشورات وزارة الإعلام – لغة العرب– المجلد الأول – دار الحرية بغداد ١٩٧١ – ص ٤٢.

واصل المنتفق، هم بنو المنتفق بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عـــامر بـــن صعصعة بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيـــس غيـــلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(٥٠). أما سبب هذه التسمية ومعناها، فهناك عدة روايات عنها، فقيل أنها جاءت لأن الجد الأكبر لبني المنتفق، كان يحرش الـــيرابيع قبل الإسلام، فبقى عليه هذا الاسم، وقيل جاء هذا الاسم لان جدهم الأكبر كان يقيـــم في نفق لشدة الحر، فيكون شبيها بسكنة المغاور، وقيل أنهم ســموا كذلــك لكونـــهم أتفقوا على التناصر والتكاتف(٥١). ومهما كان السبب في هذه التسمية ومعناها، فـــإن المنتفق بن عقيل بن كعب .... الخ، هو جد ثلث بني سعيد الذي تربطهم والأجـود صلة قربى كأبناء عمومة، في حين أن هناك عشائر عديدة تأخذ الاسم مـــن خـــلال اتصالها بالمكان، أو أنها اشتركت بصلات قربى حديثة مع من سبقها من العشـــائر، فصارت بعض العشائر داخلة في عداد المنتفق وإن كانت ليست ذات قربى بـــه، أي أن التوسع قد جرى في إطلاق التسمية على الكل ممن يتصل بهم وإن لم يكن منـهم، حيث صار يطلق على محل نفوذ المنتفق وسطوتهم، وقطعا ان التلازم دائمي بيـــن العشائر والارض بشكل لا إنفكاك منه(٥٢).

وقد جرى ذكرى المنتفق لأول مرة في التاريخ السياسي في اواخـــر عـــام ٣٨٤هـــ، وكان المتقدم فيهم "الأصيفر المنتفكي"(٥٣)، لذلك فالمنتفق اسم متداول منـــذ فترة ليست بالقصيرة، حيث صار رديفا للقادة الذين خلفوا -الأصيفر- طيلـــة أكـــثر من قرن، كما انه لصق بإمارة "ال معروف" حينما ترأسوا هذا الاتحاد بداية القـــرن

---

(٥٠) يراجع في ذلك: لسان العرب – ج١٢ ص٢٣٨، تاج العروس – ج٧- ص٨٠، اشتقاق الأنساب – ص١٢٣.

(٥١) لغة العرب – مصدر سابق – ص ٤٣ – ٤٤.

(٥٢) عباس العزاوي – عشائر العراق – ج٤ – شركة التجارة والطباعة – بغداد ١٩٥٦ – ص٢٩.

(٥٣) ابن الأثير – الكامل في التاريخ- المجلد التاسع – دار صادر – بيروت ١٩٦٦ – ص١٠٥.

السادس الهجري، وتلقب به "ال راشد" حكام البصرة لحد عام ١٥٤٦م. ولكون هذا الاسم قد ارتبط أيضا بالإمارة المعروفة باسمه، فتقديرنا، إن محمد الوسيط، قد ترأس على المنتفق دون إرادة منه، لأن ما كان من تحالف جنيني قائم بين الأجود وبني مالك، لم يكن يمنحه التحدث بهذا الاسم مع بقية القبائل. ولذلك فإنه يتضح أن الأجود وبني مالك، لم يكونا منضويين كرابطة عشائرية في تحالف المنتفق، حينما كان "آل راشد" قادته، كما يستبان لنا، أن منتفق "آل راشد" كان يعني البصرة بسكانها وما يحيط بها من قبائل وعشائر، بعضها قد يرتبط بأواصر القربى مع بني مالك، مثلما هو حاصل مع عشائر بني مالك الساكنة في القرنة والمدينة. كذلك فإن القول صحيح، إن بني مالك تخضع لحكام البصرة من "آل راشد" ضرائبيا، لكنها لا ترتبط بهم تحالفيا وعسكريا، لأنها تؤدي الضرائب للدولة بغض النظر عمن تخوله باستلامها منهم.

كما أن "آل راشد" لم يكونوا ذا أواصر قربى مع "آل شبيب" أو بني مالك أو الاجود، بل إنهم يعودون إلى "آل طوال"[٥٤]. لذلك فإن ترؤس محمد الوسيط وعشائره على المنتفق، قد جاء بعد سقوط حكام البصرة من "آل راشد" جراء الحملة العثمانية عليهم. وهم قد اخذوا الإسم دون أن يرتبط بهم كخلفية لأصل أو لنسب، كما أن الاسم قد جاء باقتراح من غيرهم، لذلك فاسم المنتفق الذي لصق بإمارة المنتفق التي نعنى بها في هذا البحث، جاء عليهم ولم يأت منهم، أعطاهم إياه –أيلس باشا– ولم يقترحوه هم، هذا أولا، وثانيا: إن بني سعيد التي ترتبط بالمنتفق بن عقيل بن كعب....... الخ، قد التحقت بالاتحاد القبائلي كآخر من ارتبط به قياسا لما كان حاصلا بين الأجود وبني مالك.

---

(٥٤) مركز صدام للمخطوطات – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس، وذلك سنرمز للمركز في الأوراق القادمة بـ (م. ص. مخ) اختصارا.

ولأن تكوين الاتحادات القبلية لم يكن بالصيغ المعروفة للأعمال الاتحادية في وقتنا الحاضر، فقد شاع بين العماير الثلاثة المكونة للاتحاد (بني مالك والأجود وبني سعيد) إن كلمة المنتفق مأخوذة من الإتفاق بين العماير المذكورة وقادتهم من "آل شبيب" والنون لفك الإدغام على اللهجة المحلية الدارجة(٥٥). لكني أكرر القول أن إسم المنتفق الذي ارتبط بالإمارة المعروفة باسمه، قد جاء عليهم ولم يأت منهم، صحيح أن بني سعيد تنتهي عند المنتفق بن عقيل، لكنها كانت آخر من التحق بهذا الاتحاد القبائلي الذي ترأسه آل شبيب منذ عام ١٥٤٦م. ولا أعتقد أن التسمية يمكن أن تأتي من آخر عشيرة منضمة لهذا الاتحاد. مضافا لذلك أن تسمية المنتفق التي كانت مستعملة من قبل حكام البصرة -آل راشد- كرؤساء لهذا الاتحاد أثناء حكمهم، قد سبقهم إلى استعماله عدة رؤساء، حيث جرى تبنيه من قبلهم من خلال تقدمهم الصفوف على الاتحادات العشائرية المؤثرة في العراق الجنوبي.

إلا أن الجديد في هذه التسمية، والخاصة ببحثنا هذا، أن عشائر بني مالك والأجود وحمولة آل شبيب، ارتبطوا بهذه التسمية بعد عام ١٥٤٦م، ولم تكن لهم علاقة سابقة بالتسمية ان جرى استعمالها في اتحادات قبلية أخرى وفي أوقات مختلفة، وهذا أحد المؤشرات الأساسية في هذا الكتاب للفترة المحصورة في أوقات هذا البحث بين ١٥٥٠ - ١٩١٨م.

إذن فالمنتفق منذ ترؤس شيخها "محمد الوسيط" أصبحت كائنا ماديا مؤثرا وحساسا فيما يحيط بها، سواء كان سلبا أم إيجابا. فمنذ ترؤس الوسيط ، اميرا على المنتفق حتى سقوط هذه الإمارة فيما بعد، لم يكن لأسم المنتفق هذا الدوي المؤثر في الأحداث سواء في صنعها، وفي التأثير في مجراها، مثلما كان للإمارة التي تأسست على أعمدة هرمية ثلاثة مكونة من بني مالك والأجود وبني سعيد، وعلى رأس الهرم أمراء هذا الاتحاد من آل شبيب. فاسم المنتفق جرى تداوله كثيرا قبل تأسيس

---

(٥٥) عبد الرزاق الحسيني - مصدر سابق - ص ١٦٣.

هذه الإمارة، من قبل ثوار أو أمراء أو حكام مناطق أو متمردين، لكن هذا الاسم لـم يكن مؤثراً بشكل كبير مثلما تحقق له ذلك بعد عام ١٥٤٦م، بحيث كان تأثيره علـى الصعيد الإقليمي واضحاً، ويحسب كإحدى الكتل التي لها حصة في صنـع القـرار، سواءً كان هذا القرار لها أم عليها، وكانت استنبول وبغداد وتبريز وسـملا ولنـدن، يضعون أمامهم دائماً اسماً ظل شاغلاً لبالهم بحدود (٤٠٠) عاماً.

كما أن الفترة الطويلة لوجود هذه الإمارة، قد ترافقت معها أحـداث مهمـة وخطيرة في مجرى الصراع الإقليمي او الدولي. كما أن نتائج هذه الأحداث، سـواءً كانت لصالح المنتفق أم لغيرها، كانت ذات تأثير إقليمي واضح، مما ينعكس سـلباً أم إيجاباً في التأثير الدولي للقوى التي دخلت معها المنتفق في أشكال تحالفيـة، وفـي صراع دموي. مضافاً لذلك إن وجود هذه الإمارة قد دفع لساحة الإقليم المؤثرة فيـه، بلاعبين جدد من القوى الدولية أبرزهم (البرتغال، هولندا، بريطانيا، فرنسا) مما دفع بأشكال الصراع نحو آفاقٍ أوسع وتأثير أعمق، وكل ذلك وإمـارة المنتفـق تؤثـر وتتأثر بهذه الأحداث وتطبع بصماتها فيها، حتى وإن لم يشأ أطرافه لإدخالها فيـه، بحكم وجودها وفعلها المؤثر على المستوى الإقليمي والدولي.

كما أن هذه الأحداث، وما رافقها من صعود الشريف محمد بعشائره علـى رئاسة اتحاد المنتفق القبائلي، قد مهدت من خلق جسراً لدعوه واسعة للاتحـاد، دون أن تغلق هذه الدعوة بشرنقة دينية ضيقة، وأن تكون قد ارتكزت علـى قبيلـة دون غيرها، أوانها كانت دعوة عائلية صرفة، وأمر كهذا يتقاطع وأطماع أي محتـل أو غاز للعراق، لذلك فإن إمارة المنتفق دون كل الإمارات التي قامت فـي المشـرق العربي، كانت أسبق الكل وأكثرهم حماساً في تحقيق أي شكل من أشكال التحـالف مع إمارات وقبائل أخرى بعيدة عنها جغرافياً، ما دام ذلك يمنح الجميع القوة بوجـه المحتل الأجنبي "أي محتل". ولعل في مسـاعداتهم المتكـررة لإمـارة الأحـواز، وتحالفهم مع الخزاعل والعبيد بوجه المماليك – رغم ما موجود من خلافات – وهـذا

ما سنتناوله في فصل قادم، ما يؤكد هذه الناحية ويعطيها أهميتها التي أشرنا إليها، بأن هذه الإمارة في توجهاتها وأفعالها تنحى نحو تأكيد الإستقلال بعيدا عن مؤثرات أي أجنبي، كما إنها دافعت دفاعا مجيدا عن أرض العراق بوجه الترك والفرس والإنكليز، وهي بذلك قاتلت نيابة عن كل من أقعده سببه عن الإشتراك في هذه المساهمات الوطنية البارزة. وهي في تاريخها المجيد الذي ابتدأت خطواته عام ١٥٤٦م، أحدثت دويا في تاريخ العراق، وخذلت قوى الجيش العثماني مرارا عديدة وحكمت البصرة زمنا طويلا، وزاد نطاق سلطانها إلى أكثر مما هو معروف اليوم من حدود المنتفق[٥٦].

وقد ارتبطت إمارة المنتفق في بداياتها بأحداث البصرة ارتباطا كبيرا، بل أن هذه المدينة ظلت دوما أحد أبرز المحطات في حياة هذه الإمارة، سواء في حفظها أو في القتال دونها. لذلك فإن كانت البصرة قد شهدت ولادة إمارة المنتفق التي نعني بها في هذا الكتاب، فعلى مشارفها كانت آخر أبرز الأمثلة على جهادية هذه الإمارة مقاتلين وقادة في الدفاع عن العراق في معارك الشعيبة عام ١٩١٥م.

بعد أن ترأس الوسيط مشيخة المنتفق بتفويض رسمي من والي بغداد، انصرف بكل جهده نحو تمكين اتحاده القبائلي، لأنه أدرك قوة ونفوذ القوى المحيطة به وموازينها، فسعى – كما يفترض– إلى سلوك منحى السلام مع الدولة العثمانية دون الدخول معها في مماحكات قد تؤدي لتجريد القوة العسكرية عليه وعلى قبائله، خصوصا وأنه وقبائله قد وعوا وعرفوا قوة الدولة التي استطاعت اسقاط حكومة "آل راشد"، إلا أن قبائل "آل عليان"* الساكنة في الأهوار، تعلن العصيان وتقطع الطرق وتحاصر البصرة وتضيق الخناق عليها، ودعت إلى الإستقلال، الأمر الذي

---

(٥٦) عباس العزاوي – عشائر....... ج٤ – ص١٥.

* آل عليان: هم الشيوخ وأصحاب النفوذ في الأهوار والجزر المحيطة بها، والممتدة من شمال البصرة حتى حدود العمارة والناصرية. وهم من طيء.

دعا والي البصرة إلى طلب المعونة من بغداد التي أرسلت إليه حملة بقيادة -علي باشا تمرد- عام ١٥٤٩م، حيث تم له ما أراده وسحق العشائر الثائرة وفرق قواتها، إلا أن ذلك النصر كان اسميا ومؤقتا[٥٧]. ولم تشارك المنتفق مع أحد الطرفين، لأني -اعتقدها- كانت أضعف من ان تواجه القوات العثمانية في ذلك الوقت، كما أنها قدرت أن مساعداتها لعصيان "آل عليان" سيكون ذا ضرر عليها وعلى إتحادها القبائلي الذي كان يسعى حثيثا لانتزاع فرصته في خضم الأحداث الجارية.

إزاء الضعف وعدم الإستقرار الذي طبع الأوضاع في البصرة، يرافقه ضعف الباشوات الترك الحاكمين فيها، وعدم سيطرتهم على المناطق القريبة على ولايتهم، وعصيان -آل عليان- المتكرر، تتعرض البصرة والمناطق المحيطة بها إلى غزو من قبل بلاد فارس عام ١٥٦٠م، بعد أن إتضح لديها ضعف وتفسخ الإدارة العثمانية، ولأن طريق القوات الغازية، كان يمر على مضارب بني مالك قرب المدينة، فقد بادرت قبائل المنتفق بقيادة أميرها الشريف محمد الوسيط، إلى الاصطدام بهذه القوات والدخول معها في معركة، كانت نتيجتها هزيمة المنتفق ومقتل أميرها الوسيط ، حيث سيطرت القوات الفارسية على نواحي البصرة باستثناء المدينة[٥٨].

ومن جديد يقود -آل عليان- عصيانا على الدولة العثمانية عام ١٥٦٧م، بسبب السياسة الخرقاء التي مارسها الولاة الأتراك، من خلال قسوتهم في التكاليف وزيادتهم للرسوم والضرائب، فتعلن قبائل المنتفق مساندتها لهذا العصيان تحت رئاسة مقدمهم الشريف "شبيب الأول بن الشريف حسن". إلا أن والي بغداد "اسكندر

---

(٥٧) مرتضى افندي نظمي زاده -كلشن خلفا- ترجمة موسى كاظم نورس - النجف ١٩٧١ - ص٢٠٣.

(٥٨) علي الشرقي - مصدر سابق - ص١٦.

باشا الشركسي" يجرد حمله عسكرية كبيرة يقودها بنفسه، يخـــوض مـــن خلالـــها معارك دامية مع القبائل الثائرة تستمر أكثر من شهرين تنتهي بانتصاره عليهم[٥٩].

عدم الاستقرار والقلق والضعف الذي طبع الإدارة العثمانية في البصرة، مع ما رافقها من عدم إهتمام من مركز الدولة في استنبول لأحوال هذه الولايـــة، دفـــع واليها –علي باشا– أزاء وضعه الضعيف والمزري، واقتصار نفوذه علـــى القلعـــة التي يسكن بها مع جنده، والتي اسماها العامـــة "حـــوش الباشـــا" بعـــد أن قاطعـــه البصريون، وامتنعوا عن تنفيذ الأنظمة والقوانين الحكومية التي يصدرها، وبعـــد ان عجز حتى عن تدبير أرزاق جنده، وسقوط هيبة الدولة إلى الحضيض[٦٠]، كل هـــذه الأمور دفعت الوالي عام ١٥٩٥م، إلى بيع باشوية البصرة بأجمعها إلى رجل مـــثر من سكنة المدينة، كان سابقا كاتبا للجند، وبسعر أربعين ألف قـــرش، علـــى أن لا يقطع الخطبة باسم السلطان العثماني، وتمت الصفقة، ودبر الشاري أجنادا له لحفـــظ المدينة، في حين توجه الوالي السابق سريعا نحو استنبول، فشنق في ساعة وصولـــه إليها[٦١]، وكان المشتري هو "أفراسياب الديري" الذي ينحدر من أب ســـلجوقي وام عربية، من أهالي "الدير"[٦٢] وهو الموضع الكائن قرب بلدة القرنة. وبهذه الصفقـــة، فقد أصبحت البصرة، خارج السيطرة العثمانية، لكنها لم تكن بعيـــدة عـــن منطقـــة نفوذها. وقد استطاع –أفراسياب– أن يؤسس حكما له ولأسرته، داخل البصرة وعند أطرافها، استمر لأكثر من نصف قرن.

---

(٥٩) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٤ – ص١٠٦.

(٦٠) العراق في القرن السابع عشر – رحلة الرحالة الفرنسي شافير رينيه – ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد– بغداد ١٩٤٤ – ص٩٦.

(٦١) لونكريك – مصدر سابق – ص١٢٧.

(٦٢) الشيخ فتح الله الكعبي – زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر – ط٢ – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٥٨ ص١٦.

لقد كانت الدولة العثمانية عاجزة عن بسط سلطتها على جميع الأراضي العراقية، مع وجود إمارات عربية متطلعة لدور متميز لها، كما أن فترة الوئام التي سادت القبائل والسلطة العثمانية بعد فتحها للعراق عام ١٥٣٤م، كانت قصيرة، لأن القبائل بطبعها تكره الخضوع لأية حكومة مهما كانت[٦٣]، فكيف بمحتل يوجه اوامره من استنبول البعيدة جدا وفق قياسات البدو ورجال القبائل، ويطلب من الجميع الالتزام بها!!!!

أزاء ذلك جرى استبدال السلطة المباشرة، بالسلطة غير المباشرة، من خلال أمراء القبائل وشيوخها وفق طريقة "الالتزام"[٦٤]، أي بتسديد الضرائب المقررة على الأراضي الزراعية في المناطق التي تقع تحت نفوذ وهيمنة الأمير أو الشيخ. وفيما يخص المنتفق فقد كانت ملتزمة بهذا الإجراء في حدود إمارتها الواسعة، مما ساهم في ازدياد قوتها ونفوذها، وبنفس الوقت منحها الحرية بإبعاد المحتل العثماني عن مناطق نفوذها، مكنها في اوقات كثيرة من الخروج عليه والاحتكام معه بقوة الإرادة وشجاعتها.

إن ما حدث سواء في بيع المدن أو الولايات، أو في النهب المنظم لثروات البلد، مع الإهمال المتعمد لكل الأنشطة القادرة على ديمومة الحياة البشرية على هذه الأرض، مع استمرار الصراعات الدموية الداخلية والخارجية يكشف دون تزويق لفظي أو تحامل مقصود، النيات والأهداف والخطط التي تعرض لها العراق من قبل المحتلين سواء، كانوا تركا أم فرسا، لأن الحالة السياسية في العراق بعد الفتح العثماني الأول عام ١٥٣٤م، كانت غير مستقرة لاستمرار التمردات والثورات التي

---

(٦٣) عبد الرحمن البزاز – العراق من الاحتلال حتى الاستقلال – ط٣ – بغداد ١٩٦٧ – ص٣٩.

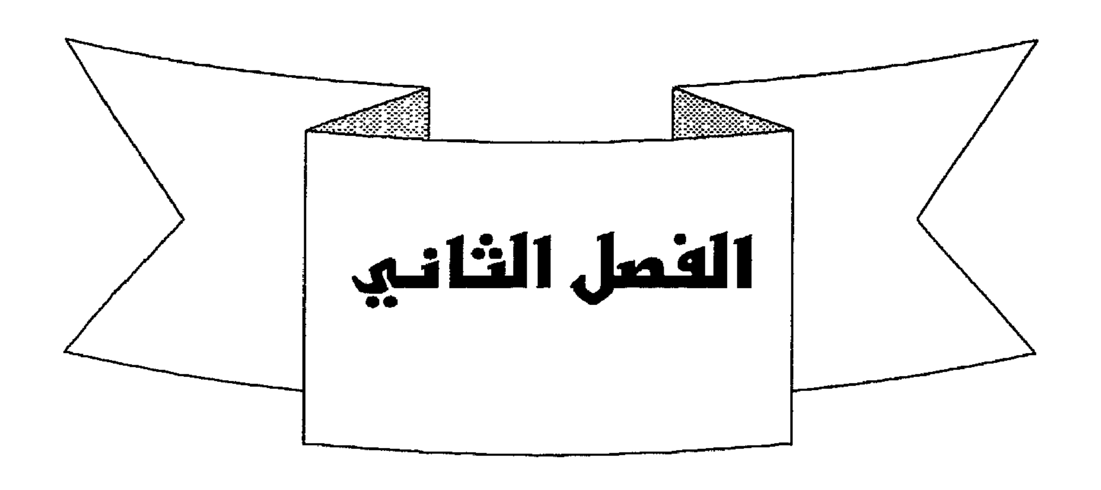
(٦٤) عبد الجليل الطاهر – العشائر العراقية – ج١ – مطابع دار لبنان – بيروت ١٩٧٢ – ص٣٨.

تعلنها القبائل ضد السلطة المركزية، والتي كانت غير مهتمـــة بـــاصلاح الأحـــوال العامة، مادام وجودها ذا نفع مادي وسلطوي كبيريين لها تخصيصا. مضافا لذلك أن التهديدات الخارجية من الشرق والهادفة لاحتلال العراق لم تنقطع أو تخبوا[٦٥].

مثل هذه اللوحة القلقة والمترجرجة والخطرة، والتي كان يعيشـــها العـــراق آنذاك، تمنح أية محاولة تنزع للتحرر والإستقلال حتى وإن كـــان طريقـــها صعبـــا وقاسيا ومؤلما، المباركة والثناء والتمجيد، رغم ان ذلك الطريق الذي نتحدث عنـــه، تفصله عنا قرون وليس سنون فحسب، وهذا ما سنحاول استكشاف الملامح البـــارزة والمشرقة في حياة إمارة المنتفق عبر سنوات حياتها التى استمرت بحـــدود (٤٠٠) عاما.

---

(٦٥) علي شاكر علي – تاريخ العراق في العهد العثماني – ط١ – منشورات مكتبة – ٣٠ تموز – نينوى – ١٩٨٤ – ص٢٩.



انتزاع الفرصة وتنامي القوة

بعد أن أتم "أفراسياب الديري" صفقة شرائه لباشوية البصرة، وأمام النهوض المتوازي للإمارات العراقية شبه المستقلة في الشمال والوسط والجنوب، وأزاء اتضاح مدى التفسخ والتردي الذي يطبع أساليب الإدارة العثمانية فيما يخص أوضاع العراق، والتي ترافق معها هبوب عواصف مدمرة، بعضها صحية، تحمل أشد أنواع الأمراض فتكا بالناس، والأخرى عواصف الإهمال في قنوات الري والمكونات الأساسية للحياة، مع ازدياد الأراضي المبتلاة بالتصحر، الأمر الذي يرتبط بأساسيات الإنتاج الزراعي ذي الصلة المباشرة بالحياة البشرية وازدياد أو انخفاض السكان. أزاء هذه الصورة المشوهة وغير المنتظمة في مجمل إيقاعات حركتها، بات واضحا أن مديات تدفق العد التنازلي لمجمل الوجود العثماني في العراق، قد أصبحت مملوءة بالشك، لأن الإحباط الظاهر من هذا الوجود، قد بات نكتة عند أي بدوي أو جبلي في أقصى أراضي العراق، بحيث لم يؤمل منه خيرا، بل أن العكس كان يراود ذهنه من هذا الوجود.

هذه الظروف المحبطة من تردي الأمن وإختلال وفساد الإدارة، دفعت بقبائل المنتفق أن تتوغل بعيدا في صحراء الشامية، لكي تؤسس ما تستطيع به حفظ نفسها وامتيازاتها وتبعد بقبائلها عن طريق الاقتتال الدموي، الذي كان يندلع لأتفه الأسباب وأبسطها. ورغم هذا الإبتعاد، فإنها لم تسلم من دخول نزاعات محلية متعددة من أجل المراعي الربيعية لجمالها وماشيتها، خصوصا مع قبائل نجد المتطلعة دوما للشمال، حيث المراعي الخصبة والمياه الوفيرة[١].

وعماير المنتفق الثلاثة، وقادتها من آل شبيب، لم يكونوا مجرد ملاك اقوياء للأرض التي تشرف على أنهار دجلة والفرات والغراف فقط، بل إنهم البدو

---

(١) لونكريك – مصدر سابق – ص٥٥.

الحقيقيون والقبائل الرحالة في المتاهات المكشوفة[٢]، فهم زراع منتجيـــن وبدرجـــة جيدة، وهم رعاة إبل تلفهم الصحراء في الشامية والجزيرة العربية على مدار السنة، وهم بذات الوقت، مادة الحرب الأساسية.

وقد تعاقب خلال هذه الفترة عدة أمراء على رئاسة اتحاد المنتفق القبـــائلي، ســـعوا بجد لخدمة اتحادهم وتطوير إمكاناته نحو الأحسن، من خلال تعميق أواصر الاتحـــاد بين أفراده وعشائره وبالشكل الذي يجعلهم قوة مهابة من الجميع.

هذه الأوضاع والصور المؤلمة، والمطبوع أساها وفعلـــها الـــرديء علـــى عمـــوم الأرض العراقية، إنعكس إجمالا على من يتولى باشوية بغداد والمســـــنود بفرمـــان صادر من استنبول حيث مقر "الخلافة" مع شـــلة كبـــيرة مـــن الجيـــش المركـــزي والمرتزقة من المتطوعين، الأمر الذي جعل الباشوية في بغداد، تنتظر بيـــن فـــترة وأخرى، قادما جديدا، مع ما يشوب هذا القادم من ضحالة فكرية ونهم كبير للســـرقة والرشوة والإرهاب، متأثرا بأجواء من أنتدبه لهذه الولايـــة. لذلـــك كـــان الحكـــام القادمون بفرامينهم الممهورة بختم –الخليفة– القابع في أحد قصوره المطلـــة علـــى مضيق البسفور، يحكمون في ولاياتهم، وخصوصا في العـــراق، حســـب إرادتـــهم وأهوائهم، واضعين بنظر الإعتبار، أن حكم هذه الولاية، فرصة قد لا تتكرر، لأنـــه منصب مشرف وعظيم الفائدة، قد يفتح لهم الطريق واسعا للنفوذ والقوة عند عودتهم لإستنبول، أو أنه في أحيان أخرى يكون سببا في قطع رؤوسهم.

أما في البصرة، فرغم استقلال –افراسياب– بالمدينة وما يحيط بـــها، إلا أنـــهم لـــم يقطعوا صلاتهم مع استنبول، بل كان أي حاكم منهم ينتظر الفرمان الخاص بالتوليـــة والذي تصاحبه الخلعة والسيف، ولكن كانت هذه الصلات والتبعية، اوهـــى مـــن أن يقال عنها خضوع وإتمار بفرامين الخليفة بقدر ما كانت صـــلات تخـــدم توجـــهات

---

(٢) محمود شبيب – جوانب مثيرة من تاريخ العراق المعاصر – مطبعة الديواني – بغداد ١٩٧٧ – ص٤٢.

ال افراسياب في مجال السياسة يستخدموها متى ما احتاجوا إليها كموازنة مع تطلعات حكام الهضبة الفارسية، والمتطلعين بشراهة نحو البصرة وخيراتها، كما أن هذه الصلات تخدم الدولة العثمانية بخصوص "تابعية" البصرة الإسمية لهم، رغم أنهم تجنبوا الضغط على آل افراسياب خشية انفصالهم النهائي عنهم، الأمر الذي قد يدفعهم للدخول في منازعات مع الدولة الصفوية[٣]. كما حرص حكام البصرة على إدامة صلتهم باستنبول من خلال الرسائل التي يبعثوها إلى الباب العالي، مؤكدين ولاءهم للسلطان العثماني، الذي كان عليه أن يرد على هذه الرسائل بأسلوب ينم عن تقديره لآل افراسياب، وهو تقدير نراه متأت من شعور الباب العالي بالخصوصية التي تتمتع بها البصرة من الناحية السياسية والاقتصادية[٤].

هذه المسارات الشائكة وغير المنتظمة في نظام رسمي وأداري، لابد أن تطبع شيئا كبيرا من خصوصيتها في شكل العلاقة القائمة بين المنتفق وحكام البصرة، والتي كانت علاقة تكافؤ وندية، حيث كان أفراسياب، العاقل والعارف جيدا بموازنات القوى في المنطقة وإمكاناته وإمكانات جيرانه والقريبين منه، يتجنب إثارة المشاكل مع المنتفق لطباعهم الشرسة وازدرائهم للموت، لأنهم (كما يرى) دولة داخل دولة، هذا غير أنه على معرفة تامة بشجاعتهم العنيفة[٥].

وأستطيع أن أقدر، أزاء صورة وشكل الأحداث في تلك الفترة، ان المنتفق كانت منشغلة بنفسها وتوثيق تحالفها الثلاثي، كما أنها تفرغت لتطوير أدوات قوتها على الصعيدي العسكري والاقتصادي، لأنها أدركت احوال الضعف في كيان الدولة العثمانية، التي باعت البصرة، وعجزت عن استعادتها، لذلك فهي لم تقطع صلاتها مع والي بغداد، من خلال إرسالها المتقطع وغير المنتظم لمستحقات المنتفق من

---

(٣) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص١١٠.

(٤) علي شاكر علي – مصدر سابق – ص١٢٨.

(٥) لونكريك – مصدر سابق – ص١٣٣.

الضرائب والرسوم المطلوب إرسالها سنويا، لكنها لم تكن المستحقات المطلوب إرسالها ، ولم يكن بيد والي بغداد وسلطاته مفر من قبول القليل على مضض، لأنه لم يكن خلال تلك الفترة من حل آخر بيده. لكن المنتفق بنفس الوقت وجدت لنفسها هامشا من التمييز الذي يحفظ لها حقها في شكل الفعل القادم إن وجدت فرصة لتحقيقه، وهذا ما منحها استقلالا تاما في حياتها الداخلية، بعيدا عن التدخلات العثمانية، لذلك كانت المنتفق منذ سقوط البصرة بيد أسرة آل افراسياب، إمارة مستقلة تخطط سياساتها وتحالفاتها ومعاركها، بعيدا عن مؤثرات ولاة بغداد أو أوامر استنبول.

في هذه الفترة التي كانت علاقات المنتفق بالبصرة أو ببغداد، واهية وضعيفة، تأسست أولى بدايات الثروة بيد المنتفق، بسبب انقطاعها عن إرسال مستحقاتها الضرائبية، مما مكنها من تطوير أدوات صراعها مع القوى المحلية المحيطة بها، والتي ظهر فعلها في السنوات القادمة، بحيث تطلعت لدور أكبر من حجم اتحادها القبائلي والمحاط بسلطات إمبراطورية، أو سلطات حكومية متعددة الاشكال.

ومما يؤكد النهج الاستقلالي لهذه الإمارة، أنها لم تخضع أو تعلن ولاءها للاحتلال الفارسي الثاني لبغداد، والذي ابتدأ عام ١٦٢٣م، واستمر (١٥) عاما، بعد أن توجه الشاه "عباس الصفوي" بكامل جيشه لتحقيق هذا الاحتلال المهم في تقديره[٦]. وطيلة مدة هذا الاحتلال، فإن إمارة المنتفق لم تعطه شيئا من الرسوم أو الضرائب، أو تخضع له وتعطيه ولاءها، رغم أنها لا تبعد عنه كثيرا، وهذا متأت في تقديري من سببين: أولهما: إن اهتمام وانشغال محتلي بغداد أنصب على مراقبة الحملات الآتية من استنبول، وثانيهما: إن إخضاع المنتفق – لو تحقق – لن يكون

(٦) د. علي الوردي – لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث – ج ١ – مطبعة الإرشاد – بغداد ١٩٦٩ – ص ٦٩ .

سهلاً ودائمياً. ولم يكن من الفطنة، أن ينشغل محتلو بغداد بجبهتين لم تحسم نتائجها بعد، رغم أن نفوذ الفرس أثناء وجودهم قد امتد هابطاً إلى الفرات حيث المراقد المقدسة. (٧)

في هذه الظروف المتداخلة والقلقة، أطل القرن السابع عشر الميلادي، الذي شهد مؤشرات مهمة في المسرح السياسي الدولي، أهمها، أن الدولة العثمانية بدأت موجة تراجعها عن الفتوحات في القارة الأوروبية، بعد أن وعت الدول الأوروبية أخطار الفتوحات الإسلامية، الأمر الذي دفعها إلى خلق التكتلات العسكرية بوجه الزحف العثماني، بل أنها جعلت من هذا الهدف حملة صليبية جديدة، وشحها ملوك أوروبا وأمراؤها بمباركة "البابا" ودعمه المعنوي والأدبي(٨)، فبدأت الالتفات صوب الأراضي العربية تعويضاً لتوقفها وخسائرها في المسرح الأوروبي.

مضافاً لذلك – وهذا من أخطر الأمور – أن أكبر دولتين إسلاميتين حينذاك، وهما بلاد فارس والدولة العثمانية، قد دخلتا في حروب دموية، مع بعضهما تحت واجهات إسلامية في الظاهر، في حين أن حقيقتها تنصب على الفتوحات في أراضي الطرف الآخر، للتسلط والتحكم وبناء الإمبراطوريات. وكانت أراضي العراق أكثر المناطق الإسلامية التي شهدت هذا الصراع الدامي. وقد ترافق في هذا الظرف، أن بلاد فارس، شهدت تولي شاه قوي ومقتدر، مقاليد الحكم، وهو الشاه عباس الذي كانت عيونه مفتوحة للآخر نحو العراق ومراقده المقدسة وسهولة الخصبة.

---

(٧) ج – ج لوريمر – دليل الخليج – القسم التاريخي – ج ٤ – ترجمة مكتب أمير دولة قطر – مؤسسة العلوم للطباعة والنشر – الدوحة – قطر – بدون تاريخ – ص ١٧٦٢.

(٨) أورخان محمد علي – السلطان عبد الحميد الثاني – مكتبة دار الأنبار – ط ١ – العراق – الأنباء ١٩٨٧ – ص ٣٠ وما بعدها.

كما شهدت سواحل الخليج العربي، انحسار المد البرتغالي، وظهور قوتين جديدتين بديلا عنه – الهولنديون والإنكليز – وما لبث الأمر أن حسم في النهاية للإنكليز لينفردوا بالمنطقة بعد أن أزاحوا الهولنديين تماما. وقد أسس الإنكليز مع بداية ظهورهم القوي على هذه السواحل (شركة الهند الشرقية) عام ١٦٠٠م [٩]، والتي قدر لها أن تلعب دورا كبيرا ومؤثرا في سياسات الشرق عموما، والعراق وإيران والهند وسواحل الخليج العربي خصوصا، وقد كانت أولى فعالياتها في العراق تأسيسها عام ١٦٣٥م لوكالة تجارية في البصرة.[١٠]

هذه المؤشرات – وأستطيع أن أخمن – نظرا لقلة وشحة المدونات التاريخية، لم تكن بعيدة بمسافات كبيرة عن التحليل والرصد والاستنتاج في إمارة المنتفق لسببين:

الأول: تلمسهم المباشر لضعف الإدارة في بغداد من خلال تعدد الولاة وتخبطهم في السياسة الرعناء، والتي سمحت لواحد مثل "بكر صوباشي"* أن يستقل عن مركز القرار في استنبول ويحصل على باشوية بغداد، ومن ثم يمهد الطريق للاحتلال الفارسي لها عام ١٦٢٣م، والثاني: علاقة أسرة أفراسياب المتينة بالبرتغاليين، والتي مكنتهم من الوقوف في وجه شاه إيران القوي آنذاك، الشاه عباس، كما تمكنوا من تأسيس علاقة مماثلة مع الإنكليز بعد أن جعلوا

---

(٩) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٢٩.

(١٠) د. خالد حمود السعدون – الأوضاع القبلية في ولاية البصرة ١٩٠٨ – ١٩١٨ – شركة الربيعان – الكويت ١٩٨٧ – ص٢٥.

* بكر صوباشي: من إنكشارية بغداد، كان يشغل موقع قائد الشرطة، استقل ببغداد بعد سلسلة من المعارك الداخلية إزاء ضعف الدولة العثمانية في نشر قانونها وهيبتها على أطراف إمبراطوريتها. راسل الشاه عباس وأرسل مع رسوله مفاتيح بغداد، فكان المسبب للاحتلال الفارسي الثاني لها في ٨ / ١١ / ١٦٢٣ والذي استمر حتى عام ١٦٣٨م. كان جزاؤه القتل والحرق على يد الشاه نفسه، بعد أن عذب بشكل قاس وبحضور ابنه.

من البصرة ميناء مفتوحا للجميع،[١١] هذا غير أن آل أفراسياب تمكنوا من رد حملتين عثمانيتين بالخسران، ليس عن طريق السلاح والقوة، رغم استعمالهما بل عن طريق الدبلوماسية وحسن استغلال التناقضات بين الأطراف المجتمعة عليهم، مما مكنهم من البقاء على دست حكم يرتجف حينا ويتهاوى حينا أخر.

مضافا لذلك أن مفتاح السياسة العثمانية مع آل افراسياب، كانت تتجه لمعاملة رقيقة من التابعية خشية أن تتكرر الحوادث المماثلة لخيانة الصوباشي وانفصاله المعروف.[١٢] هذا غير أن الدولة العثمانية شهدت بروز قائد دموي جديد على قمتها ألا وهو السلطان "مراد الرابع" الذي وضع نصب عينيه ضرورة طرد الفرس من بغداد، بعد أن عبأ بشحنات كبيرة من الهوس الديني والتعبئة العقائدية، وهذا ما دفعه أن يكون على رأس قواته المتجهة لهذا الهدف، بعد أن فشلت قبلها حملتان مماثلتان قادهما قادة بارزون في الدولة ويحتلون منصب الصدارة العظمى. وقد حقق السلطان هدفه، بعد أن حاصر بغداد (٤٠) يوما، حيث استسلمت له القوات الفارسية في ١٦٣٨/١٢/٢٤م، بعد معارك طاحنة قدم فيها الطرفان فنون الشجاعة إلى أقصى مدياتها.[١٣] وهكذا هي بغداد، لا تفتح أبوابها، إلا لسلطان أو شاه، حيث سبقه الشاه إسماعيل الصفوي والسلطان سليمان القانوني والشاه عباس الكبير، ثم جاء دور مراد الرابع، وهذا هو قدر بغداد، حيث خضعت مرة أخرى لفاتح جديد بعظيم من المرارة والألم.

أمام هذه الأوضاع القلقة وغير المستقرة والموسومة بالعنف والغدر وشكل التحالفات ومداها، كان على إمارة المنتفق أن تبحث لنفسها عن حلفاء وقتيين،

---

(١١) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٣٦.

(١٢) عباس العزاوي – تاريخ ... ج ٤ – ص ١٩٣.

(١٣) عبد الرزاق الحسني – مصدر سابق – ص ٢٩.

يعززون قوتها إن تعرضت للخطر ويجنبها القتال على خطوطها الداخلية من خـلال فتح أكثر من جبهة عليها، لهذا أعلنت هـذه الإمـارة عـام ١٦٤٠م وبعـد زوال الاحتلال الفارسي عن بغداد، طلبها في الانضمام لباشوية بغـداد، بعـد أن قـدرت التطلعات الخطيرة من قبل حكام البصرة، بالتمدد نحوها، وقد كان ذلك فـي عـهد الشريف مانع الأول، حيث رحب والي بغداد بذلك، وأرسل قـوة نظاميـة تضمـن منطقة العرجا * وتساند رئيس قبائل المنتفق عند الحاجة.(١٤)

وترجمة الشريف مانع، فهو ابن الشريف شبيب الأول بن الشـريف حسـن والمولود عام ١٥٧٥م، وقد كان الشريف مانع أكبر "آل شبيب " سنا، مضافا لذلـك أن أحفاد الشريف محمد الوسيط، ما زالوا صغارا على الإمارة. فعندما آلـت إليـه الرئاسة، فقد ظلت للأخير في صلب أولاد الشريف شبيب الأول وفارقت بني عمـهم من أولاد الشريف محمد الوسيط، مؤسس زعامتهم على المنتفق حيث لم يترئس أحد منهم بعد ذلك. وقد اتخذ الشريف مانع من منطقة "العرجا" مقرا لحكمه وجعل باديـة المنتفق المسماة ب "الشامية" وراء ظهره، أي غربي العرجا.(١٥)

إلا أن إجراء المنتفق في الارتباط بباشوية بغداد، قد فهم من قبل حكومـة – آل أفراسياب – أنه قد يتخذ كمثابة نحوهم، وهم العارفون بخشونة وقسـاوة رجـال المنتفق، لذلك فكر – علي باشا أفراسياب – بالتحرش بحدود المنتفق الشرقية، لكـي يختبر قوته وقوتهم ومدايات الصراع أن تحقق بينـهما، لذلـك قـام عـام ١٦٤٥م باحتلال قلعة "زكية" الواقعة على الحدود ما بين البصرة والعرجـا، الأمـر الـذي

---

* العرجا : من المدن المندرسة، يمكن مشاهدة خرائبها على الضفة اليمنى لنهر الفرات، تبعد عن مركز الناصرية بحدود (٥) كم .

(١٤) مرتضى أفندي نظمي زاده – مصدر سابق – ص ٢٣٦.

(١٥) يعقوب سركيس – مباحث عراقية – ق ٣ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨١ – ص ١٦٢.

اضطر الشريف مانع أن يطلب مساعدة والي بغداد – موسى باشا الصغير – الذي بعث بحملة عسكرية منظمة مع مدافع ووسائل نقل نهرية، وعند وصول القوة إلى العرجا، انضمت إليها قوات المنتفق، الأمر الذي مكن هذه القوة من هزيمة قوات آل أفراسياب ومن ثم احتلال قلعة زكية، والمناطق المحيطة بها، مما وسع من حدود ديرة المنتفق عما سبقها قبل احتلال هذه القلعة من قبل حكومة البصرة.(١٦)

وفي عام ١٦٤٨م يتوفى الشريف مانع الأول، ويتولى رئاسة المنتفق ابنه الشيخ "شبيب الثاني" الذي حرص على تمتين اتحاده القبائلي، ونشر الأمن والسلام في ديرة إمارته، كما أنه سلك طريق الموادعة مع باشوية بغداد، حيث لم يتخلف عن تسديد الضرائب المستحقة عن اتحاده القبائلي. وقد كانت حياته قصيرة، حيث قتل عام ١٦٥٠م أثر معركة نشبت بين طوائف المنتفق.(١٧)

آلت رئاسة المنتفق بعد مقتل الشيخ شبيب لأخيه "مغامس بن مانع الأول" في ظرف كانت فيه أوضاع العراق قلقة وغير مستقرة. كما أن التكوينات القبائلية والامارات شبه المستقلة التي انتزعت فرصتها، أزاء تطور الأحداث وانسيابيتها، لم تكن متوافقة حتى في الحدود الدنيا للهدف المستقبلي لأي منها، يترافق مع ذلك أن السلطة العثمانية، لم تتبع أية سياسة إيجابية مع الاتحادات القبائلية أو الإمارات شبه المستقلة، كأن تهدف لتوطين العشائر أو لفتح أو تنظيف الترع وروافد الأنهار ذات العلاقة المباشرة بالسكان المحليين ونشاطاتهم المركزية والمتمثلة بالزراعة.(١٨)

بل إنهم اتبعوا سياسة رجعية تقليدية تمثلت بتحطيم المكونات الإيجابية للعناصر المحلية، من خلال بث واختلاق الخلافات بين العشائر المختلفة، وفي داخل إطار كل عشيرة، مما دفع العشائر إلى التمسك باتحاداتها القبائلية الكبرى.

---

(١٦) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٥ – ص ٣١

(١٧) علي الشرقي – مصدر سابق – ص ١٧.

(١٨) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص ٣٨.

إزاء هذه الأخطاء المتمثلة بالغزو العسكري والضرائب الباهظة والإهمال المتعمد لمكونات الحياة، الأمر الذي منح الاتحادات القبائلية القوية سمة الإمارة، التي تتمتع بنفوذ واستقلال يمتد حيث يمتد نفوذها وقوتها.(١٩) وهذا ما كان يطبع المنتفق في ذلك الوقت، بل وينطبق هذا الوصف على حياتها الداخلية وشكل تحالفاتها مع الآخرين. لذلك كانت العشائر تدخل حروبا متواصلة ضد العثمانيين، وضد بعضها البعض، أمام فشل سيطرة الأتراك على هذه العشائر، الأمر الذي هيأ تحقيق مكونات المجتمعات العشائرية الصلبة، بعد أن اختبرت نفسها وقوتها في معارك متواصلة داخلية، وضد السلطة، مما قوى شكيمتها وجعلها ترنو بآفاق بصرها نحو الأبعد.(٢٠)

في هذه الفترة وما يليها، بدأت أحوال البصرة تضطرب، بسبب ضعف حاكم البصرة المدعو حسين باشا آل أفراسياب وتطلعه النهم والمخجل للاستحواذ على ثروات البلد وساكنيه، في حين كان تطلعه للتوسع واضحا، حيث حاول ضم الإحساء تحت حكمه، ولم يقطع غزله الدبلوماسي مع الدولة الصفوية.(٢١) هذا غير أنه لم ينس أن المنتفق سبق لها أن هزمته، لذلك بدأ يثير المشاكل والاضطرابات في ديرة المنتفق، مدعوما بعشائر كعب، والتي منحها مدينة "القبان" الواقعة على نهر الكارون مكافأة لها، جراء مناصرتها له في نزاعاته المستمرة مع المنتفق.(٢٢)

كما دخل حاكم البصرة في نزاع حاد، مع أعمامه (أحمد آغا وفتحي بك) اللذين استطاعا الوصول إلى استنبول وشكاية ابن أخيهم للسلطان العثماني الذي أوجب على ولاة بغداد ضرورة إنهاء أوضاع البصرة وإعادتها للسيطرة العثمانية،

---

(١٩) المصدر السابق – ص ٣٩.

(٢٠) د. عبد الرحمن البزاز – مصدر سابق – ص ٨٠.

(٢١) مرتضى أفندي نظمي زادة – مصدر سابق – ص ٢٤٨.

(٢٢) John B. Kelly. - Britain and the persian Gulf 1795 – 1880 – Oxford 1968 – P: 36.

ولم يكن هناك أحدا يستطيع أن يتحايل على أوامر استنبول خوفا من سلطانها، وهذا ما تحقق على يد والي بغداد قرة مصطفى باشا بعد أن أمده السلطان بمساعدات عسكرية ضخمة، من ديار بكر وشهرزور والموصل والرقة، وكثيرا من القوات الإقطاعية رافقتها طوابير من المدفعية الثقيلة.

وعندما وصلت القوات إلى منطقة العرجا، قدم لها "عثمان بن مهنا الراشد" مقدم المنتفق في حينها، المساعدات بالمؤن والسفن، كما طلب منه الوالي – أدلاء – للطريق، وانضمت للجيش ثلة قوية من المنتفق.(٢٣)

وقد دخل الجيش العثماني وقوات – آل أفراسياب – بمعارك دامية، لعبت المدفعية الدور الأساس فيها، حيث تحقق فيها النصر للوالي العثماني في شباط ١٦٦٨م، بعد أن فر حاكمها حسين باشا وعائلته إلى بلدة باجير الهندية،(٢٤) في حين يذكرها (لونكريك) أنها بلدة – أوجيني – وبذلك نبذت البصرة مكرهة امتيازاتها الخاصة، بعد أن انتهى حكم عائلة – آل أفراسياب – التي لم تستطع أن تتكئ على تحالف قبلي قوي يسندها عند الملمات، كما أنها فشلت في أن تخلق لنفسها القوة القادرة على مقارعة العثمانيين .... صحيح أن – آل افراسياب – تجار ولهم شفافية عالية بالاهتمام بالفنون والآداب، كما أن مرونتهم ساعدتهم كثيرا في لعبة السياسة، من خلال معرفة مدى وتوجه الصراعات وكيفية توجيهها عند حافاتها النهائية والحادة، وهو ما نجحوا فيه طيلة وجودهم، لكنهم في الأخير، وجدوا أن سياسة المدفع أقوى من الحذلقة السياسية والمناورات الذكية والمتعددة، وهذا ما وعوه جيدا، وهم في منفاهم الإجباري في الهند.

في هذه الحملة، لم تخسر المنتفق من نتائجها النهائية، بل أن العكس قد حدث، حيث أمنت لنفسها زوال خطر كان يجثم على جوانبها الشرقية، ينتظر

---

(٢٣) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٤٦.

(٢٤) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٥ – ص ٩٥.

الفرصة المناسبة للانقضاض عليها لو توفرت له الظروف، كما أن هذه الحملة قد وسعت شهية المنتفق للتطلع نحو البصرة إن توفرت مستلزمات النجاح، هذا غير أنها بددت الشكوك القائمة بينها وبين باشا بغداد.

ورغم الانتصار الذي تحقق للدولة العثمانية في بغداد عام ١٦٣٨م وفي البصرة عام ١٦٦٨م، فلم يطرأ تغيير في شكل وممارسة السلطة من الولاة المعينين، والذي كان أكثر همهم منصبا على تحقيق أكبر قدر من الـ نافع سواء عن طريق الرشوة أو الإجبار أو المحاكمة، وحتى القتل إن عجزت بقية الأساليب عن تحقيق مرادهم. كانت الإدارة العثمانية في العراق، إدارة سيئة ومرتشية وظالمة.[٢٥] ولم تستطع أن تعالج أخطاءها أو أن تتجنبها على الأقل، رغم كل ما بذل من جهد من بعض السلاطين القساة. كان هم الولاة أن يرضوا السلطان وحاشيته بصرر الذهب الكثيرة، على أن لا يقل نصيبهم عما أرسلوه لاستنبول. ومثل هذا النزف المستمر، كان يوغل عميقا في النفس العراقية، على صعيدها المبدئي والاقتصادي، وكان أكثر المتضررين بذلك أصحاب النشاط الزراعي. ولأن إمارة المنتفق آنذاك كان جل اهتمامها منصبا على الإنتاج الزراعي، فقد كانت معاناتها أزاء ذلك قاسية، مما دفعها – مجبرة – أن توغل في تعميق مفاهيم البداوة عند أفرادها أزاء ما تبقى من الأراضي الصالحة للزراعة في منطقة نفوذهم.[٢٦] هذه السياسات المنصبة على النهب والإجبار، أوجدت موازنة قلقة بين المنتفق وباشوية بغداد، وكان ذلك مرهونا بطرفي العصا: المنتفق وقوتها، ووالي بغداد وقوته، وظلت هذه المعادلة قائمة طيلة وجود الاثنين، مرة تميل لهذا الجانب وفي آخر تلامس الأرض عند الطرف الآخر.

---

(٢٥) عبد الرحمن البزاز – مصدر سابق – ص ٣٣.

(٢٦) د. عبد العزيز الدوري – مقدمة لتاريخ العرب الاقتصادي – بيروت ١٩٦٩ – ص ٨٩.

ويخيل إلي أن الإهمال المتعمد الذي مارسته الدولة العثمانية فيما يخص أوضاع العراق، جاء متأتيا من التفكير السياسي السائد في استنبول، والقائل يجعل العراق منطقة عازلة بين العثمانيين والفرس.(٢٧) لأنه حتى في أوقات صراعهم الدموي، كانت أرض العراق، المسرح الأساسي لتصادم الإرادات، مما جعله أكثر الأقاليم التي يقع عليها الضرر الاقتصادي والإنساني.

إزاء استمرار هذه الأوضاع الدموية، واتساع النهب المنظم والعميق لثروات وأملاك الناس والذي كان طابعا لكل الولاة، كان على المنتفق أن تبحث لنفسها عن حل يضمن لها في الحدود الدنيا، أبعاد السلطة المركزية عن التدخل في شؤونها الداخلية، ويحافظ على المستويات التي حققتها لنفسها، خصوصا وأنها جربت إمكاناتها أزاء القوى المحيطة بها، فوجدتها ليست بالهينة، بل وجدت أن ولاة بغداد بحاجة شديدة لهم. ولم يكن ينقص ذلك الطموح، إلا قائد لا يلتفت للوراء خوفا أو فزعا من أوامر بغداد وتهديدات باشويتها، ولم يكن أهلا لهذه المهمة غير الشيخ "مانع السخاء".

وترجمته هو: مانع بن شبيب الثاني بن مانع الأول بن شبيب الأول بن الشريف حسن. وقد ترأس على قبائل المنتفق عام ١٦٨٢م. وقد جمع مانع السخاء اطلاعا واسعا في مجال السياسة والحرب والدبلوماسية من خلال مزاملته لوالده وجده الذين ترأسوا على المنتفق من قبل ومن خلال مراقبته للأحداث ورصد نتائجها وطبيعة الظروف المحيطة بها، مضافا لذلك أن سخاءه كان مضروب المثل، فذاع صيته، وكان يقال في الأمثال (أكرم من مانع) كما أن هباته للناس أصبحت تقليدا ثابتا عند آل السعدون لحد الآن، حسب التقليد العشائري وتسمى

---

(٢٧) د. وميض عمر نظمي واخرون – التطور السياسي المعاصر في العراق – مطبعة جامعة صلاح الدين ١٩٨٦ – ص٩.

"مانعية" وما زال لحد الوقت الحاضر من يطلبها، وهناك الكثيرون من أحفاده ينفذوها.

لقد تطلع – مانع السخاء – وبحماس زائد، مستندا إلى قوة تحالفه القبائلي، أن يؤسس للمنتفق مجدا شامخا جديرا بهم، وكانت أبصاره ترنو للبصرة، التي وجد أن ضمها لإمارة المنتفق تحصيل حاصل لقوة ونفوذ الإمارة المتطلعة لحياة مستقلة بعيدا عن تدخلات ونفوذ العثمانيين.

ففي سنة ١٦٩٠م، تعرضت البصرة لطاعون وبيل أخمد فيها الحياة وأخلى شوارعها المكتظة بالسكان بحيث كان الموت، الدليل الوحيد على أن هناك نبضا للحياة في هذه المدينة، فكانت هذه المصيبة، أحد الأسباب المشجعة في أن يتطلع أمير المنتفق نحو السيطرة عليها وضمها لإمارته، فجمعت قبائل المنتفق قوتها، وتوجهت نحو البصرة بقيادة أميرها – مانع السخاء – ودخلت في معارك متعددة مع والي البصرة – أحمد باشا عثمان زادة – كانت آخرها موقعة (الدير) أوائل عام ١٦٩١م، هزم فيها جيش والي البصرة وقتل منه الكثيرون، كان من بينهم الوالي نفسه.[٢٨]

وقد ظلت البصرة أزاء اجتماع الطاعون والحرب معا، مكانا للوحوش الضارية مما دفع المنتفقيين الشرسين، أن يعالجوا أمر هذه الوحوش بأنفسهم، ليدفنوا الموتى المكتضة بهم شوارع البصرة. ونظرا لانتشار مرض الطاعون، وخوفا من تفشيه في قبائله، فقد ترك الشيخ – مانع – البصرة لأهلها، قاصدا البادية، ليعيد ترتيب أمره وفقا لتصوراته دون أي تدخل من قبل ولاة بغداد أو غيرهم، ولأن ما تحقق للمنتفق قد أظهر صلابة عودهم ورفضهم لأي شكل احتلالي من قبل الآخرين، فقد بادر والي بغداد أحمد باشا البازركان في أواخر عام ١٦٩١م، أن

---

(٢٨) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٥ – مصدر سابق – ص ١٣٤.

يعيد للدولة هيبتها ويوقف المنتفق وأميرهم – مانع – عند حدهم، فأرسل كتخداه*
بجيش غفير، فعاد إليه بعد أن تلقى هزيمة فاحشة على يد المنتفق.[٢٩]

هذا الانتصار والانتصار الذي سبقه، عزز من طموح مانع وقبائله، ورفع من شأن المنتفق وسطوتها بين جميع الإمارات المستقلة، وأعطى لها الأرجحية في إدارة شؤون الصراع على كافة مستوياته في العراق الجنوبي وشمال الجزيرة العربية لفترة طويلة قادمة.

وطيلة سنوات ١٦٩٢ و ١٦٩٣م، دخل الأمير مانع في مواجهات عسكرية متعددة مع ولاة بغداد، انتصر في جميعها، وقتل فيها قادة الجيوش العثمانية التي أرسلت إليه وشتت شمل عساكرهم، كما غنمت المنتفق في سلسلة هذه المعارك المعدات العسكرية الكثيرة والنفوذ والغنائم المتعددة،[٣٠] مما تطلب من استنبول أن تسلك أزاء فشل سياسة المدفع مع المنتفق، سياسة الترضية والاستمالة وغض النظر عن كل ما حدث وإسقاط الضرائب المستحقة عليهم لهذه السنوات.[٣١] إلا أن تلك – الترضية – التي فهمها الأمير مانع على أنها إجراء مؤقت لكلا الطرفين، لم تثبط همته التي اشتهر بها في ترتيب وحشد قوته بالطريقة التي يراها مناسبة وبالتوقيت الذي يختاره. لذلك فهو بعد أن تقرب نحو البصرة في تشرين الثاني ١٦٩٣م، عاد وتوغل عميقا في بادية المنتفق، مما أوحى لمتسلم البصرة بزوال الخطر، إلا أن مانع السخاء كان يمارس في حركته تلك ما يمكن أن نسميه بالاقتراب غير المباشر من هدفه، لذلك فما أن حل شهر شباط ١٦٩٤م، حتى كانت البصرة بكاملها

---

* كتخدا: كلمة فارسية، تعني معاون الوالي . وتعطي كلمتا كهية وكخية، المعنى نفسه.

(٢٩) المصدر السابق – ص ١٣٤.

(٣٠) فلاديمير لوتسكي – تاريخ الأقطار العربية الحديث – ترجمة د. عفيفة البستاني – دار التقدم – موسكو ١٩٧١ – ص ٤٢.

(٣١) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٥ – ص ١٣٥.

في قبضة الأمير مانع، بعد أن قدر متسلم البصرة عدم جدوى المقاومة إزاء عدم تكافؤ القوة لدى الطرفين.[٣٢] وقد كان لهذا الحدث انعكاسا واضحا حتى على الموروث الشعبي العراقي، فأطلق المثل "امنع من مانع" أزاء القوة والمنعة اللتين هزم بهما الدولة العثمانية في عدة نزالات، لأن هزيمته كانت أمنية تراود كل الولاة.[٣٣]

شكل دخول المنتفق للبصرة، وطردهم موظفي الدولة، حدثا لم تألفه الدولة العثمانية من قبل رجال القبائل، لذلك عادت لسياستها القديمة المتمثلة بالقوة العسكرية، فوجهت جيشا كبيرا بقيادة خليل باشا بن عثمان باشا حيث جيء بالجند كالمعتاد من كركوك والموصل وديار بكر. فاشتبكت الحملة العسكرية مع قوات الأمير مانع في جزائر البصرة، في معركة دامت بضعة أيام، وقد أبدى رجال المنتفق من الشجاعة والبسالة ما يلفت النظر، حتى أنهم نزعوا بدلات الإنكشارية والأغوات ذات الألوان الزاهية ولبسوها دليلا على مدى النصر الذي حققوه، وعاد خليل باشا ومن تبقى من جنود حملته إلى بغداد، بعد أن تلقوا هزيمة حقيقية على يد رجال المنتفق.[٣٤]

وقد اقترح الشيخ – مانع – بعد انتصاره، هدنة بين الطرفين، فوافق العثمانيون على ذلك، حيث أعفي من كل شيء حدث خلال تلك السنوات بشرط أن يكون ولاؤه المستقبلي للدولة، ويعاد خليل باشا المهزوم في آخر معركة جرت له مع رجال المنتفق، واليا على البصرة. كما وجهت استنبول ولاتها، إن

---

(٣٢) عثمان عبد الله بن بشر – عنوان المجد في تاريخ نجد – ج ٢ – ط ٤ – مطابع دار الهلال – الرياض ١٩٨٣ – ص ٣٤٦.

(٣٣) وزارة الثقافة والإعلام – أبحاث في التراث الشعبي – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٦ – ص ٢٢٤.

(٣٤) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – ص ١٣٦.

تعدياتهم كانت السبب في ثورة الشيخ مانع. كما زادت من إيراداته مقدارا غير قليل من المال، ووجهت له كتاب تلطيف واستمالة.

كل هذه الأساليب لم تخذع مانعا بالوقوع تحت تأثيرها، لذلك فإنه طرد خليل باشا ولم يسمح له بدخول البصرة، كما نصب من نفسه واليا عليها (ولم يدر بخلد أي باشا غريب أن يأمل نفوذا شاملا مثل نفوذه، فقد امتلك قسما من عربستان، وكان مسيطرا على ما بين دجلة وعربستان من سهول وأهوار، وإطاعته بدرة وجصان ومندلي، وقد غطت سطوته يومئذ على سطوة الحويزة، أما على الفرات فقد استولى على السماوة والرماحية)(٣٥). ولم يبق للدولة وسلطتها على هذه المناطق أي نفوذ.

وقد أدار الشيخ مانع شؤون البصرة على خير ما يرام، وبشكل مستقل، بعيدا عن تدخلات أية قوة أجنبية، ونظرا لما يتصف به من صفات حميدة، فقد أحبه البصريون، وخاصة الفقراء، نظرا لسخائه المعروف ونهجه الاستقلالي الواضح.(٣٦) بعد مرور سنة على تلك الأحداث استرد – فرج الله خان بن مطلب خان – والي الحويزة حينذاك، ما استملكه الشيخ مانع من أراضي عربستان. وقد بلغ عداؤهما حده الأعلى، خاصة بعد أن سلك – الخان – أسلوب الدسائس والحيل ضد وجود الشيخ – مانع – في البصرة(٣٧)، إلا أن ذلك لم يؤثر عليه، فكان مستمرا في إدارة شؤون البصرة بالشكل الذي يراه مناسبا له ولقبائله.

وقد رفعت سيطرة المنتفق على البصرة من حدة التنافس بين كافة القوى المحلية والإقليمية، لأن ذلك كان ايذانا بوجود منافس جديد قد يفاجئ الجميع بقوته

---

(٣٥) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٥١.

(٣٦) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج٥ – ص ١٤١.

(٣٧) علي الشرقي – العرب والعراق – ط١ – شركة الطبع والنشر الأهلية – بغداد ١٩٦٣ – ص ٦٧.

ونفوذه، اللذين قد يتهيأ لهما الظرف أن يكونا عنصر الحسم والسيطرة على هذا الثغر، مما استلزم من كافة القوى، إعادة ترتيب أمورها إزاء منافسها الجديد، والمستند إلى قوة أختبر حقيقة صلابتها.

هذا الأمر دعى جميع الأطراف المتنافسة والطامعة، أن تعيد وتراجع خططها أزاء ما أحدثته المنتفق من تغيير حقيقي وفعلي على الخريطة الجيو – سياسية للمنطقة، عكس ما شهدوه من قوى أخرى محلية، لم يكن همها أكثر من تقليل الضرائب وزيادة مستحقات شيوخها، هذا الأمر دفع الجميع أن يخططوا بالضد من المنتفق ومانعهم بشكل جديد ومبتكر.

استمرار حكم الشيخ مانع على البصرة يقابله عجز ولاة بغداد عن استردادها منه، خاصة بعد فشل الحملة التي قادها – حسن باشا – والي البصرة السابق عام ١٦٩٧م دفعت بباشا بغداد المدعو – علي باشا – إلى سلوك طريقة غريبة ومذلة، حينما اتفق مع والي الحويزة على إخراج الشيخ مانع من البصرة، على أن تكون تابعيتها للدولة العثمانية، وأن يكون أحد معتمدي فرج الله خان حاكما عليها. لذلك جمع الخان قوات كافية، أسندها من داخل البصرة بما يمكن أن نسميه بالرتل الخامس من التجار والوجهاء، فباغت قوات المنتفق بمعركة سريعة وحامية، دفعت الشيخ مانعا وقواته إلى مغادرة البصرة حيث استولى عليها المشعشعون. (٣٨)

ويمكن أن أجمل أسباب انتصار الخان في هذه المعركة إلى الأسباب التالية:

١- إعجاب الشيخ مانع وغروره بقواته وما حققته من انتصارات سابقة على الدولة العثمانية.

---

(٣٨) محمد هليل الجابري – إمارة المشعشعين – أطروحة ماجستير في التاريخ – كلية الآداب – جامعة بغداد ١٩٧٣ – ص ١٢٥.

٢- مغادرة أغلبية قوات المنتفق البصرة إلى منازلها في البادية والأرياف، حيث اعتبرت - كقوات احتياطية - جاهزة للالتحاق عند الحاجة، لأن طريق الغزاة الأتراك سيمر عليهم، مما يمنحهم الوقت للالتحاق بمانعهم مضافا لذلك قلة قوات المنتفق المتواجدة حينها في البصرة.

٣- خطة المباغتة الناجحة التي استعملها الخان وأتباعه كافة الحيل والدسائس، وكثرة قواته التي تعادل أضعاف قوات الشيخ مانع المتواجدة حينها في البصرة.

٤- مساندة تجار البصرة وبعض وجهائها، لا سيما سادات الرفاعية لقوات الخان في المعلومات وبث الأخبار المحبطة.

ما حدث من اتفاق غريب بين خان الحويزة وباشا بغداد، يعطينا دلائل حية على النهج السياسي العثماني، الذي يفرط بالبصرة لخان الحويزة، خوفا من استمرار بقائها تحت سيطرة الأمير مانع لأن ذلك النهج الغبي والقاصر، يدرك أن لعبة السياسة مع الفرس، قد تعيد له البصرة، إلا أن تلك اللعبة قد لا تكون ناجحة مع المنتفق وأميرهم، إذا دعموا وجودهم في البصرة، بحقائق فعلية على واقع الإقليم، مما يعني حالة مربكة لكامل الوجود العثماني في العراق.

ورغم ما حدث، فإن خروج الشيخ - مانع - من البصرة، بقوة السلاح في أواخر عام ١٦٩٨م لم يمنعه من التفكير بطبيعة الأحداث التي لم تبعد البصرة عن ذهنه. حيث تنصل - فرج الله خان - عن اتفاقه مع باشا بغداد، وأرسل مفاتيح البصرة للشاه حسين الذي تصرف بكياسة وبلياقة عالية حينما بادر لإرسال المفاتيح

مع هدايا أخرى للسلطان العثماني – مصطفى الثاني – فقوبلت مبادرته بالتقدير والامتنان، وأرسل وفد سلطاني كبير إلى أصفهان تقديرا لما حصل. (٣٩)

أوضاع البصرة على نحو ما آلت إليه، بعد اتفاق والي بغداد وخان الحويزة على إخراج – مانع السخاء – من البصرة، ونقض الاتفاق الحاصل بينهما بخصوص عائدية البصرة وإدارتها الداخلية، مع ما أضيف إليه من مشاكل داخلية بين خانات الفرس الذين يرغبون بحكم البصرة، ... هذه الأسباب مجتمعة، وصلت أخبارها للسلطات العليا العثمانية، التي رأت أن استمرارها قد يؤدي إلى انعكاسات خطيرة في مدى نفوذهم في العراق كله. لذلك رأت أن إنجازها أصبح من الأمور المستعجلة، فعهدت إلى والي بغداد في حينه – مصطفى باشا – الملقب "دالتيبان" المعروف بصرامته وعنفه في تحقيق ما قرره السلطان العثماني.(٤٠)

وأصدرت السلطات العليا فرمانها الخاص بذلك، فجمعت القوة اللازمة، وكانت بأعداد كبيرة، بعد أن حشدت لها كل قوتها داخل العراق وعلى أطرافه.(٤١) كما أن استنبول زودت الحملة بالمدافع الضخمة والذخائر الكثيرة. اتجهت هذه القوة في أواخر عام ١٦٩٩م نحو البصرة، بعد أن دخلت وهي في طريقها بمعركة عنيفة مع "الخزاعل" حشد فيها مقدمهم سلمان بن عباس الخزعلي قرابة أربعين ألفا من المقاتلين، إلا أن تسليح الجيش العثماني وقيادته القاسية والنشيطة، أذاقت الخزاعل هزيمة مرة وقاسية. هذه الهزيمة وما رافقها من قسوة لا تعرف الحدود، إزاء

---

(٣٩) ياسين خير الله العمري – الآثار الجلية في الحوادث الأرضية – مكتبة المجمع العلمي العراقي – رقم ١٣٣ / م – ورقة (٢٢٢).

(٤٠) عبد الله بن الغملاس – ولاة البصرة ومتسلموها – دار منشورات البصري – بغداد ١٩٦٢ – ص ٦٥.

(٤١) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – ص ١٤٥.

القبائل، أوقعت الرعب والخوف عند الجميع، مما دفعهم أن يكونوا حذرين ومراقبين لما تؤول إليه الأحداث ونتائجها المبهمة.(٤٢)

وصلت أنباء ونتائج هذه المعركة إلى أمير المنتفق – مانع السخاء – حيث قدر معها مدى القوة المواجهة له إذا أراد الاصطدام بها، خصوصا وأن تسليحها قد أشرف عليه السلطان العثماني بنفسه. ومما زاد في تعقيد صورة الحال، أن أحد ضيوف المنتفق الذي استجار بهم وطلب حمايتهم، قد يضيف سببا آخر للقسوة والتعقيد، ونقصد به – فرج الله خان – أمير الحويزة السابق، والذي كان السبب في إخراج المنتفق من البصرة، بعد أن طرده الشاه أزاء مخالفات وجدها عليه، فلم يجد ملاذا أفضل له، إلا في ديار المنتفق، ولم يكن من المتوقع من المنتفق ومانعهم إلا تناسي ما حدث سابقا معه، بعدما جاءهم الرجل لاجئا يمزقه الخوف من العثمانيين والفرس معا.

بعد أن نظم الجيش العثماني أموره، بعد معركته الأخيرة مع الخزاعل، استمر في طريقه المار حتما بديار المنتفق، فبادر قائد الجيش مصطفى باشا إلى مكاتبة أمير المنتفق عارضا عليه فكرة السلام المتبادل والتابعية للدولة العثمانية. ولم يكن بيد الشيخ مانع غير القبول، بعد أن تلمس قوة الجيش المواجه له، وإمكاناته التسليحية، هذا غير أن هدف الجيش هو تحرير البصرة من الفرس. ومع كل هذه الظروف وصفحاتها القلقة، طلب الشيخ مانع لدخيله فرج الله خان – العفو والأمان، فوافق القائد العثماني على هذا الطلب، كما أن المنتفق وجدتها اختبارا لصدق نيات العثمانيين لهدفهم المتوجهين نحوه.

إزاء ذلك بادر الشيخ – مانع – للحضور أمام القائد العثماني معلنا ولاءه وطاعته ومساعدته لتحرير البصرة، بعد أن جددت رئاسته على المنتفق وقد زودت

---

(٤٢) المصدر أعلاه – ص ١٥٥.

المنتفق القوات الزاحفة بالأقوات والأدلاء. [٤٣] ومن جديد قدر للبصرة أن تشهد فاتحا آخر في حياتها، وذلك في رمضان ١١١٢ هـ الموافق ١٧٠٠م، بعد أن فر حاكمها – الخان – قاصدا بلاده في فارس، بعد أن اتضح لديه عدم تكافؤ القوى للاصطدام. [٤٤]

في بدايات القرن الثامن عشر، حدثت فيضانات كبيرة وغير مألوفة في نهر الفرات، بعد أن أتلفت المزروعات وجرفت القبائل عن منازلها المعتادة لها، فهب العديد من رؤساء العشائر، للاستفادة من هذا الأمر، وكان في مقدمتهم أمير المنتفق مانع السخاء ومقدم الخزاعل سلمان بن عباس الخزعلي – وقد استولى الأخير على مقاطعات الحسكة * والرماحية وناحية بني مالك ونهر الشاه، ومد يده على ضواحي مدينة النجف وتقرب للحلة. أما الشيخ مانع فقد أمسك نهر الفرات من السماوة حتى القرنة. [٤٥]

هذا الفيضان استفاد منه الإثنان مالا وقدرة ونفوذا، وجعلهما في موقع الاصطدام المحتم، أزاء ما توفر لهما من إمكانات وأدوات ثروة وتسليح. وقد كانت حاظرة "السماوة" كعب أخيل في صراعهما المحتمل، حيث كانت تقع ضمن ديار المنتفق، إلا أن الشيخ الخزعلي طمع فيها، حيث لم تؤد رسل التوسط والسلام بين الطرفين إلى نتيجة، فكان الاصطدام، الحل الأخير الذي وجد الطرفان نفسيهما لا بد من مواجهته، وهذا ما حدث في أول جمادي الثاني ١١١٥هـ الموافق ١٧٠٣م،

---

(٤٣) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٥٣.

(٤٤) ابن الغملاس – مصدر سابق – ص ٦٥.

* هي مدينة الديوانية الحالية

(٤٥) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – ص ١٥٣.

حيث نشب قتال شديد ذهب ضحيته الكثيرون، انتهت نتيجته بهزيمة المنتفق، واحتلال السماوة ومن قبل الخزاعل.[٤٦]

وقد أراد الشيخ مانع بعد ثلاثة أشهر من هزيمته أن يعاود الدخول في معركة مع الخزاعل، إلا أن عشائر "بني حجيم" المنتفقية، طلبت منه الكف عن ذلك لأنها تعيش بالقرب من الخزاعل بعد استيلائهم على السماوة، مما قد يعرضهم للإيذاء. مضافاً لذلك أن ما خسره من مقاتليه وفرسانه في معاركه السابقة، قد ضعضع قوته، لكنه ظل يراقب الأحداث منتظراً الفرصة المناسبة التي تمكنه من استعادة ما فقده أو خسره في معركته الأخيرة.

وقد حدثت تلك الأحداث – المؤسفة – بين هاتين العميرتين، في نفس الوقت الذي اضطلع بحكم ولاية بغداد، والٍ ذو إمكانيات كبيرة وذو تطلع متميز، قُدر له أن يحكم العراق هو وابنه بحدود نصف قرن، ألا وهو الوالي "حسن باشا بن مصطفى بك السباهي" الذي تولى الولاية عام ١٧٠٥م بعد نقله من ولاية ديار بكر.[٤٧] وحسن باشا ومن ثم ابنه أحمد اعتبرهما المؤسسين الحقيقيين لحقبة المماليك التي سنتعرض لتفاصيلها في فصلٍ قادم من هذا الكتاب. فخلال فترة حكمه وحكم ابنه أحمد، جرى استقدام الآلاف من الصبيان من مختلف اصقاع الامبراطورية وبشكل خاص من الكرج والابخاز والشيشان والجورجيين*، حيث اعتاد أهل هذه المناطق بيع أطفالهم أثناء المجاعات والحروب، فجرى استخدامهم في الجيش والإدارة بعد تدريبهم في مدارس خاصة أسست في بغداد.

---

(٤٦) حمود الساعدي – دراسات عن الخزاعل – مطبعة الآداب – النجف ١٩٧٤ – ص ٢٠.

(٤٧) عبد الرحمن السويدي – حديقة الزوراء في سيرة الوزراء – تحقيق د. صفاء خلوصي – ج ١ – مطبعة الزعيم – بغداد ١٩٦٢ – ص ٢٦.

* شعوب وقبائل تسكن القسم الآسيوي المحادد للامبراطورية الروسية، بعضها يدين بالإسلام والآخر بالمسيحية، تشتهر هذه الشعوب بالصلابة والقسوة.

في هذه الفترة انشغلت المنتفق بأحوالها الحياتيـــة وإعـــادة ترتيـــب بيتـــها الداخلي، بعد النتائج السلبية التي جاءت سواء في إخراجها العسكري من البصـــرة، أو في هزيمتها أمام الخزاعل. لكن هذه النتائج مثلما كانت لها تأثيرات سلبية علـــى المنتفق وعلى فعلها المستقبلي، لكنها بنفس الوقت قد أعطت لمفهوم إمارة المنتفـــق معنى حقيقيا أزاء الفعل المادي المعاش على أرض الواقع، خصوصا بعد التجربـــة العسكرية، سواءا ضد الوجود العثماني في البصرة، أو في مقاومة أطمـــاع خانـــات الحويزة في المدينة ذاتها، والتي جاءت أثر مؤامرة عثمانيـــة – فارســـية، مســـبوقة كفعل أولي. مما منح إمارة المنتفق أن تلملم جراحاتها وتهتم بتطوير أدواتها القتاليـــة والمعاشة تحسبا للقادم من الأيام.

في عام ١٧٠٥م، أخذ الشيخ – سلمان الخزعلي – يعاكس الدولـــة، حيـــث سبب فتنة كبيرة بين عشائر الفرات الأعلى، واستولى على الحسكة، فـــأقدم والـــي بغداد – حسن باشا – على تجهيز جيش كبير على هذا الثائر، حيـــث أســـر أفـــراد عائلته وغنم أمواله، بعد أن فر الشيخ سلمان من أمام الجيش. وكتب الوالـــي إلـــى رؤساء العشائر الفراتية بالأمان والعودة إلى أوطانهم، مما اضطر الشيخ ســـلمان أن يرسل للوالي ابنه، يطلب الأمان إلا أن طلبه رفض. [٤٨] وأزاء حيرته وانسداد كـــل السبل بوجهه، توجه لديار المنتفق والتحق بالشيخ مانع وطلب الدخالة والحماية.[٤٩]

وقد أخطأ والي بغداد، حيث ظن أن المنتفق ستنتقم من الشيخ الخزعلي أزاء ضحاياهم في حربهم الأخيرة خصوصا بعد أن تكـــررت رســـل الوالـــي – حســـن باشا – لأمير المنتفق بضرورة تسليم – سلمان الخزعلي – لمتسلم البصرة، مدغدغـــا ومستفزا ثاراته على الخزاعل، إلا أن تلك الأساليب والظنون خابت وفشلت، بـــل أن الشيخ مانع أسكن الشيخ سلمان بجواره معززا مكرما، ورد رسل الوالي والمتســـلم

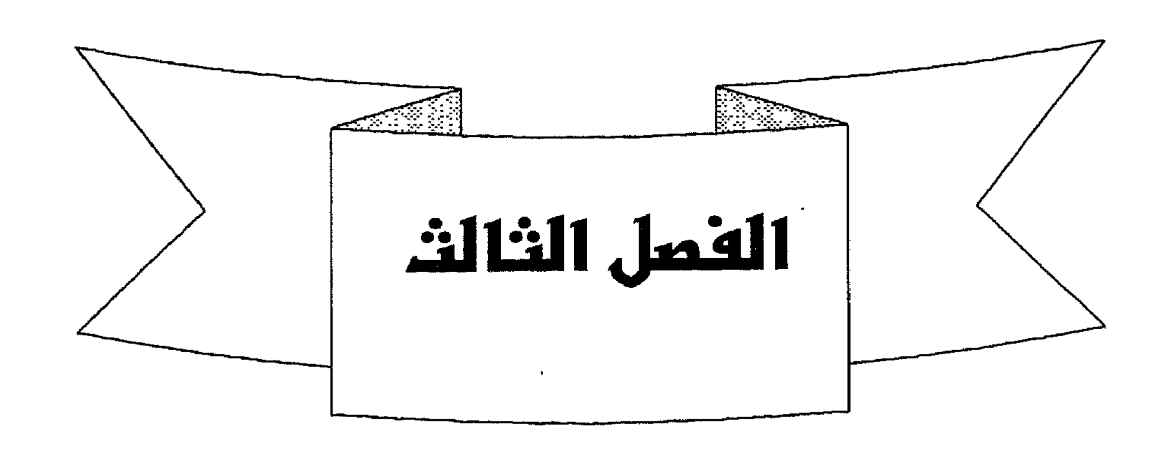
---

(٤٨) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – ص ١٦٧.

(٤٩) عبد الرحمن السويدي – مصدر سابق – ص ٣٥.

بهدوء وكياسة. كما أن بعض أتباع الشيخ الخزعلي الذين بدأوا يلتحقون به، قد أسكنوا في ديار المنتفق مع الاحترام والمحبة والإكرام الزائد، مؤكدا بفعله هذا أن ديار المنتفق هي ديار الجميع، ما دام هدفهم أبعاد القوى الأجنبية عن التدخل في شؤونهم الداخلية ونهب ثرواتهم.

وفي نهاية عام ١٧٠٥م، يتوفى الأمير مانع السخاء بعد أن أوجد للمنتفق مكانا حقيقيا وخاصا ومؤثرا في مجرى الأحداث، بكل ما يتعلق بالعراق الجنوبي وشمال الجزيرة العربية، وبالشكل الذي يجعل من المنتفق قوة مؤثرة في صنع القرار في أرض الإقليم الذي يمتد عليه نفوذها، وبما يحيط بها من إمارات شبه مستقلة، أو مع ولاة الإمبراطورية العثمانية أو متسلميها، الأمر الذي يجعلنا نتجاسر بالقول أن إمارة المنتفق بشكلها المؤثر والفعال في مجرى الأحداث، بدأت مع أيام الشيخ مانع السخاء.



الاستقلال وضرائبه

بعد التجربة المستقلة التي مارستها إمارة المنتفق في تحقيق نفوذها الفعلي على مدينة البصرة، وما انتهت إليه هذه التجربة من وقعٍ مؤثر على التطلع الذي بدأ يأخذ مداه في العقل التنفيذي لهذه الإمارة، سواءً ما كان منه حقيقياً أم في طريق النمو، وأزاء الإهمال المقصود الذي مارسته السلطة العثمانية بخصوص الأوضاع العراقية، فقد بدى أنه ليس من الصعوبة أن تستقل هذه الإمارة عن مركز السلطة العثمانية، من خلال تحقيق نفوذها الفعلي على كل الأقليم الذي تستطيع فيه تحقيقه، بما في ذلك ميناء البصرة، إن استطاعت أن تتحكم بمفتاحين أساسيين: الأول: أن تكون قادرة على فتح قنوات التعاون، ورفعها إلى مستوى التحالف مع ما يحيط بها من قوى محلية ذات فعل مؤثر في الساحة العراقية، والثاني: أن تستطيع متمكنة بالقياسات العسكرية – آنذاك – الوقوف بوجه حملات باشا بغداد، وما يسنده من قوى أخرى مما يحيط بالإقليم العراقي.

أمر كهذا يستلزم من المنتفق أن تلعب مع ما يحيط بها من قوى لعبة السياسة بكافة أشكالها العسكرية والسياسية، على شكل المهادنة أو التهديد أو التحالف، وغيرها، مما يصب في تقوية جدار الصد عنها كما يخطط بالضد من طموحاتها. كما أنه يستوجب كخطوة أولى تقوية – الجدار الداخلي – للإمارة، ونقصد به تحالفها الثلاثي وقادتها، لغرض إجهاض أية فرصة قد تستغل للتوظيف من قبل العثمانيين داخل هذا الجدار، هذا من جانب ومن جانب آخر، فإن العثمانيين رغم تظاهرهم بالرضا عن المنتفق، إلا أنهم كانوا واعين جيداً، أن هذه الإمارة تستطيع في أي وقت تشاء أن تخلق لهم المتاعب، وبالطريقة التي يجدونها أكثر أذىً وإيلاماً لهم، وهذا ما جعل العلاقة بين المنتفق وباشوية بغداد قلقة ومقلقة للطرفين كلاً منهما يتحين الفرصة لإيقاع الأذى بمنافسه، وفيما يخص المنتفق، فقد كانت في حينه أقوى

التجمعات العشائرية شبه المستقرة في العراق الجنوبي، وذات أثر واضح ومؤثر فيما يحيط بها أو يؤثر عليها.(١)

بعد وفاة الأمير مانع السخاء عام ١٧٠٥م رشحت المنتفق ابنه "مغامس" أميراً عليها، حيث مارس المشيخة دون إذن من سلطات بغداد أو باشويتها. ولأن ذلك الأمر، رأته السلطات العثمانية، خروجاً على المألوف من سياساتها في العراق، فقد بادرت إلى تعيين "ناصر بن صقر بن مانع الأول بن شبيب الأول" رئيساً على المنتفق دون رضاً منهم، وكان هذا الإجراء الممارسة الأولى التي خطتها السلطة العثمانية في التدخل بشؤون المنتفق، والذي جربته فيما بعد كثيراً، لتقسيم المنتفق وشق وحدتهم، الأمر الذي دفعهم أكثر إلى التمسك بنمط حياتهم الداخلية والاستقلال التام عما يريده ويدعو له باشا بغداد. بل أن المنتفق رأت أن موافقة ناصر الصقر على هذه الخطة العثمانية، شيء معيب لا يتوافق والشكل الذي درجوا عليه في ترأُس أمرائهم، حتى وإن كان هذا الرجل جديراً بما أنيط به من مهام، لأنه شكل خروجاً على المألوف، لم تستسيغه المنتفق ورجالها أبداً.

وكان هذا الانشقاق القيادي قد رُتب واسند بدعم قوي من قبل والي البصرة خليل باشا الذي أدرك خطورة وجود المنتفق موحدة على جوانبه الغربية، خصوصاً وأنهم أثناء سيطرتهم على البصرة قد طردوه ولم يقبلوا وجوده فيها رغم توسلات وتلطيفات وتهديدات السلطة العثمانية لمانع السخاء. لذلك فإن – خليل باشا – لم يتمكن من دخول البصرة والتحكم بها إلا بعد خروج المنتفق منها إثر مؤامرة عثمانية – فارسية.

وتعميقاً لحالة الانشقاق الحاصل في إمارة المنتفق، فقد دعم خليل باشا تابعه ناصر الصقر، بالمقاتلين الرسميين وحسَّن من أداء قوته النارية، أزاء منافسيه

---

(١) حنا بطاطو – مصدر سابق – ص ٦٣.

من رجال المنتفق، حيث دخل معهم في أربع معارك صغيرة كان النصـــر حليـف الباشا وناصر، مما قوى دعاوى الأخير في موضوع رئاسته على اتحاد المنتفـق.[٢] إلا أن تلك الدعاوى، رغم إسنادها الرسمي، لم تجد حقائقـها علـى أرض الواقـع الفعلي، أزاء التفاف رجال المنتفق حول أميرهم الذي اختاروه بأنفسهم. مضافا لذلـك أن عزيمة الأمير مغامس المانع ليست من النوع الذي يمكن مصادرتها على ضـوء نتائج معارك لا تحمل صفة المعارك الحاسمة، وهذا ما أثبته بعد ذلك بقليل من هـذه المواجهات، حيث ارتمت ولاية البصرة بأجمعها في يده بعد معركة حامية مع والـي البصرة خليل باشا وتابعه ناصر الصقر، وكان ذلك في منتصف تشرين الأول عـام ١٧٠٥م.[٣]

وعبثا حاول والي البصرة، الاستنجاد مجددا بباشا بغـداد لغـرض تغيـير المستجدات الجديدة التي فرضتها قوة المنتفق على مستوى الإقليم العراقي، وأثرهـا وانعكاسها على الوجود العثماني عموما، خصوصا وأن أخذهـم للبصـرة وللمـرة الثانية، يعني أن منافسهم الجديد، يملك من القوة ما يستطيع به تغيير الخريطة الجيـو – سياسة في العراق الجنوبي وعلى سواحل الخليج والجزيرة العربية.

إلا أن تلك الادعاءات لم تجد من يستمع إليها، رغم إدراك الجميع بصحتـها، والسبب في ذلك، أن القوة العسكرية المتوفرة لديهم لا تتناسب والـهدف المطلـوب تحقيقه منهم. هذا غير أن قوة المنتفق، ليست من النوع الذي ترهبه أصوات المدافـع لوحدها، وهذا ما لمسوه منهم في معاركهم السابقة معهم، حيـث كـانت مقاومتـهم شديدة وذات فعل مؤثر ومؤذ لقوى الدولة العثمانية.[٤]

---

(٢) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٥٦.
(٣) ابن الغملاس – مصدر سابق – ص ٦٤.
(٤) لوتسكي – مصدر سابق – ص ٤٢.

بعد أن تسلم الأمير – مغامس – الأمور في ولاية البصرة، أدرك أن الضرورة تستوجب التهدئة مع السلطات العثمانية، من خلال فتح الباب للعبة الدبلوماسية، فقدم محضرا لسلطات استنبول، شرح فيه للسلطات العليا، الأسباب المباشرة لثورته، والتي تتعلق بالأمور الزراعية وحقوق الأراضي في جزر الفرات، وتزايد كلف الضرائب المستوجب دفعها للولاة الذين لا يحسنون التعامل مع القبائل. كما أعلن وبتأكيد أن ثورته لا تعني العصيان على الدولة[٥]، وهو بهذا الإعلان أراد إبعاد التدخل العسكري ضده بالقدر الذي يستطيعه دون أن يخسر شيئا من إعلان ولائه للسلطان العثماني. ويخيل إلي أن هذا المحضر، مع ضعف الإمكانات العسكرية المتوفرة في الإقليم العراقي، قد أجلا أية نية لدى سلطات استنبول في تحقيق السيطرة الفعلية على البصرة لثلاث سنوات قادمة.

بعد السيطرة الفعلية على ميناء البصرة، وامتداد نفوذ المنتفق لمساحات جديدة وتعامل جديد، وعلى ضوء تجربتهم السابقة في البصرة أثناء إمارة مانع السخاء فقد أخذ الشيخ مغامس المانع يزاول عمله كحاكم على ولاية البصرة، وأخذ يستوفي الرسوم الجمركية من التجار الأجانب، ومن الأوروبيين أصحاب السفن التجارية التي تصل لميناء البصرة. كما وأنه لاعتبارات إنسانية معروفة أعلن حمايته لكنيسة الآباء الكرمليين ودورهم، وأعفى رجال الدين المسيحي من الرسوم الجمركية[٦]، ولعل في براءة الحماية التي أعطيت للأب (حنا الكرملي) من قبل الأمير مغامس المانع (والمرفقة صورتها في الملاحق) ما يوضح العمق الإنساني للتصرف الذي مارسته المنتفق بعيدا عن التعصب والانغلاق.

وإزاء حالة الاستقرار والأمن التي عاشتها البصرة أثناء حكومة الأمير مغامس ولشعور الدول التي تتعامل مع ميناء البصرة بجدية وقوة حكومة المنتفق،

---

(٥) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٥٦.

(٦) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – ص ١٦٨.

فقد اعترفت به كحكومة مستقلة ذات تعامل استقلالي وكفوء. ففي ٧ تشرين الثـــاني ١٧٠٥م حضر الربان الهولندي (بيتر مكاره Peter Makare) أمام الأمير مغـــامس وبعد أن قدم تهانيه لما حصل، التمس منه أن يعطيه عقد اتفـــاق مـــع الـــهولنديين والعرب، وقد أجيب إلى طلبه، كما أوضح له الـــهولندي مطلبـــهم بمذكـــرة تتعلـــق بشؤون الشركة التي يعمل بها، وشكل العلاقة الواجب توفرها بين البواخر الداخلـــة والخارجة من ميناء البصرة. وقد صدق على هذا العقد في الثاني عشر من الشـــهر ذاته. إن ما قام به مغامس المانع من ترتيب لشكل من أشكال العلاقات مـــع الـــدول الأخـــرى، والتـــي لـــها علاقـــة تعـــامل مـــــع مينـــاء البصـــرة يشـــكل مؤشرا جديدا في حياة المنتفق ويحمل الكثير من الدلالات، أولها: إن رجال القبـــائل ليسوا بعيدين عن فهم التعامل مع الدول الأجنبية، كما أنهم غـــير قـــاصرين عـــن قيادة الإدارة المدنية وما تحمله من تشعبات، وثانيهما: إن المنتفق إمارة مستقلة لـــها شؤونها وعلاقاتها الخاصة والتي تضعها وفقا لخطابـــها السياســـي – الاجتمـــاعي، المعبر عن فهم الإمارة لحقائق السياسة وتعبيراتها المطبقة في ذلك الوقت، وثالثـهما: إدراك المنتفق بأهمية توافق الدبلوماسية مع القـــوة العســـكرية، وتوظيـــف طرفـــي الموازنة لخدمة التطلعات، ورابعهما: أهمية ترتيـــب وترصيـــن الســـاحة الداخليـــة لمركز القوة الفعلية في المنتفق لما له من أهمية في توحيد الجهد والفعل لقادم الأيام.

هذه الدلائل المركزية مع دلائل أخرى، أوحت للكثيرين مدى النفوذ والقـــوة والتطلع الذي تسعى المنتفق لتحقيقه وارتباطه بها سواء بما يحيط بها مـــن القـــوى المحلية من قبائل أو تجمعات قبائلية(٧)، أو بشكل علاقاتها مع السـلطة العثمانيـــة، لأنه بعد سيطرة الشيخ مانع على البصرة لأربع سنوات، ومن ثـــم ابنـــه مغـــامس ولنفس الفترة، بات واضحا أن عائدية البصرة سوف تؤول لمن يملك القوة المســـلحة

---

(٧) مرتضى أفندي زاده – مصدر سابق – ص ١٢٥.

الأقوى على منافسه، لأن البصرة بدأت تتبادل السيطرة عليها مرة للدولة العثمانية وأخرى للمتنفق.[٨]

إزاء هذه المؤشرات بسلبها وايجابها، فقد أدرك الأمير مغامس المانع أن سيطرته ونفوذه وقوته على البصرة يحتاج إلى إشعار الأهليين ومرتادي المدينة بأن حكمه عليها ليس حكما قبائليا، تستطيع العشائر أن تفعل ما يحلو لها بقدر ما هو حكما مدنيا، يستطيع صاحب النفوذ الفعلي فيه، إن يضبط ايقاعه بالشكل الذي يعزز هيبة الحكم وعدله ونفوذه. فكان الشيخ (سلمان) قاضي البصرة جديرا بما أنيط به من مهام، حيث كانت أحكامه تستند إلى الأحكام الشرعية للقرآن الكريم، كما أن تفقد الأمير مغامس لأحوال جنده المقيمين معه في البصرة وسكان هذا الميناء، قد جعل البصرة تعيش فترة من الأمن والاستقرار والرخاء، خاصة وأن تعاملها التجاري مع الأجانب لم ينقطع بقدر ما نظم بعد اعتراف الدول الأجنبية المتعاملة مع البصرة بحكومة الأمير مغامس، بما يمكن أن نطلق عليه الاعتراف الواقعي De Facto.*

ليس هذا فحسب، بل أن الأمير المنتفقي، أسس المدرسة المغامسية، والتي أسست لتدريس العلوم.[٩] في حين كان ديوانه الخاص، مجلسا يؤمه العلماء والأعيان وذوو الشأن العالي في العلوم المختلفة، فراج سوق العلم والأدب في البصرة، طيلة وجود المنتفق فيها. أما بالنسبة للشيخ – سلمان الخزعلي – فقد ظل

---

(٨) ميرزا حسن خان – مصدر سابق – ص ٢٠.

* De Facto : هو اعتراف واقعي من قبل الدول بالحكومات المحلية أو حركات التحرر. وهو غير الاعتراف القانوني "De Jure" الذي يستوجب تبادل وثائق الاعتراف والتصديق عليها من قبل المجالس والهيئات المختصة.

(٩) عباس العزاوي، تاريخ ..... – ج ٥ – ص ١٨٠.

بجوار الأمير – مغامس – الذي كان يكن له كل احترام ومحبة لما يتمتع بـــه مـــن صفات إيجابية كثيرة تليق به.

تمركز المنتفق في البصرة، مع إطلالتها على البحر وعلى التعـــامل بشـــكل من أشكال العلاقات الدولية، مع العديد من الدول الأجنبية، وخصوصا من له تعـــامل تجاري مع ميناء البصرة، مع بقاء البادية العراقية وحـــدة غـــير مجـــزأة كتجزئـــة الإمارات والمشيخات في العراق الحضري، وخضوعها للمنتفق من طفـــوف هيـــت حتى كاظمة والقصيم[١٠]، دفع سلطات استنبول بالاهتمام، ورصد هـــذه المؤشـــرات الخطرة، وإلى التفكير الجدي بالقضاء على هذه الإمارة، والمنافس الجديد لـــها فـــي العراق الجنوبي، لذلك كانت أوامر "الخليفة" حاسمة لوزير بغداد – حســـن باشـــا – بضرورة عودة نفوذ البصرة وما يحيطها لحظيرة الدولة "العلية".

وجرى إسناد ودعم وزير بغداد بحملته هذه بالإمدادات الكثيرة التـــي كـــان يقودها محافظ كركوك يوسف باشا ووالي ديار بكر رجب باشا ووالـــي الموصـــل شهسوان زادة غير إسنادها بقوات الوالي المرشح لولاية البصرة، كما جـــرى دعـــم باشا بغداد بالعديد من قطع المدفعية الجديدة بكامل عدتها وعتادها، بحيث لم تشـــهد بغداد من فترة طويلة تجمعا عسكريا بمثل هذا الحجم، سواء في عدته أم في رجالـــه وفرسانه. وبعد أن تجهز الجميع بقيادة وزير بغداد حسن باشا، قرروا المسير نحـــو البصرة لحسم الصراع القائم بين الدولة العثمانية وبين المنتفق.[١١]

وإذا كان لنا من تعليق حول ذلك، فإننا نقول أن حشدا عسكريا ضخما كـــهذا يبين دون الحاجة لمراجعة حسابات رقمية مدى النفوذ والهيبة التي حققتها المنتفـــق لنفسها، بحيث دعت سلطات استنبول أن تفرغ ولايات عديدة من رجالها ومقاتليـــها،

---

(١٠) علي الشرقي – الموسوعة، الألواح التاريخية – ق ١ – جمع وتحقيق موسى الكرباسي – مطبعة العمال المركزية – بغداد ١٩٨٨ – ص ٨٧.

(١١) عبد الرحمن السويدي – مصدر سابق – ص ٥٤.

وتأمرهم للذهاب نحو بغداد لمساعدة واليها في حملته ضد المنتفق. ولا بد من الإشارة أن ما تحقق للمنتفق تحت إمارة مغامس المانع، قد ترافق ووجود والٍ ليس كغيره من الولاة السابقين على دست الحكم في بغداد، ونعني به حسن باشا الذي أشار إليه جميع الكتاب والمؤرخين، على أنه من نوادر الولاة الذين شهدهم العراق، وهذا يعني ايجابية كبيرة للمنتفق ولأميرهم، لأنهم حققوا ما حققوه وبوجود والٍ مشهود عنه بالشجاعة والصلابة والقوة والرأي السديد، ... إذن فالتحديات تصقل رجال المنتفق وتجوهر معادنهم الحقيقية، وتجعل منهم طيلة أيام الوجود العثماني في العراق، البيرق الدائم الارتفاع نحو الثورة وتحقيق الاستقلال بعيداً عن الوجود الأجنبي.

كل هذا الزخم التصاعدي لإمارة المنتفق يجيء وهم في صراع مع السلطنة العثمانية التي كانت تستمد دعمها في العراق الجنوبي بوجه كل القوى المضادة لها، من خلال النفوذ البريطاني الذي كان يسعى لإقرار الحالة الضعيفة للدولة العثمانية، ومحاصرة أي محاولة قوية ونشطة، وذلك لاتساع وتشابك نفوذ البريطانيين في المنطقة التي قد تلتهمها المنتفق منهم، ونقصد بها العراق الجنوبي ومنطقة الأحواز وسواحل الخليج العربي، لذلك فقد كانت المنتفق تحارب إلى حد ما النفوذ البريطاني المتسع اطراداً في الممالك العثمانية منذ بدايات القرن السابع عشر.[(١٢)]

بعد أن اكتملت عدة الجيش العثماني ورجاله ومقاتليه، توجه نحو البصرة يحدوه الأمل باسترجاعها من المنتفق، وقد أخضع الجيش أثناء مسيرته جميع القبائل والعشائر، واستوفى منها الضرائب الباهظة، ووصل في ٢٢ شعبان ١١٢٠هـ الموافق ١٧٠٨م، ضواحي البصرة، حيث كانت المنتفق متجمعة عند منطقة "الشرش" في حين اتخذ الجيش العثماني "نهر عنتر" موطناً له، وقد كانت

(١٢) صالح محمد العابد – موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ – ١٨١٠ – بغداد ١٩٧٩ – ص ٢٤.

جموع المنتفق بحدود مائة ألف مقاتل، بعد أن ساندته قبائل متعددة في هذه المعركة، مثل زبيد، بنو خالد، السراي، غزية، شمر، مياح، وكذلك أتباع الشيخ سلمان الخزعلي، وقد ملأ هذا الجيش السهول وساحات البر، وكل واحد منهم مدججا بسلاحه.(١٣)

وإذا كانت من ملاحظة على هذا الحشد الكبير، فإن الأبرز فيها هو هذه النجدات الكثيرة من القبائل العربية التي دعمت المنتفق في هذه المعركة بعد أن فاتحها الأمير مغامس المانع موضحا لها في رسائله لهم خطورة وآثار الوجود العثماني على الجميع مما يستوجب عليهم الارتفاع لمستوى المسؤولية، وهذا ما حصل إذ كان الحشد أكبر حشد عراقي حصل حتى ذلك الوقت بوجه العثمانيين.

وقد كانت المعركة طويلة وقاسية على الطرفين فكلاهما أبدى من فنون الشجاعة والصبر والإيثار الشيء الكثير، ولم ترهب رجال المنتفق وحلفاءهم، مدافع الجيش وأسلحته الحديثة حتى أنهم كادوا أن يقلعوا الجيش العثماني من مكانه لولا شجاعة وبسالة الوزير حسن باشا، الذي باشر القتال بنفسه. ولم يكن بالامكان تبيان الغالب من المغلوب لقساوة المعركة وشدتها، فكان الفريقان يتبادلان النصر والهزيمة، دون أن يظهر على أحدهما الانكسار.(١٤)

وبعد مطاولة استمرت أكثر من أسبوع، بان النصر واضحا للجيش العثماني بعد أن خسر الطرفان الآلاف من مقاتليهم، كان أبرزهم الشيخ تركي شيخ الاجود. ولم يتصرف المنتصر بفروسية بعد المعركة، حيث بذل حسن باشا الذهب والفضة لكل من يأتيه برأس أو بقلب أي من رجال القبائل المتجحفلة أمامه.(١٥)

---

(١٣) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – ص ١٧٧.

(١٤) ابن الغملاس – مصدر سابق – ص ٦٦.

(١٥) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – ص ١٧٨.

بعد انتهاء المعركة بالنتيجة التي آلت إليها، دخل الوزير العثماني، البصرة منتصرا، وأقام الاحتفالات المناسبة لانتصاره ثلاثة أيام، والتقى برؤساء وعشائر الجزائر، وطيب خاطرهم وأكرمهم، وعين كل منهم رئيسا على عشيرته، وأعاد للبصرة واليها الجديد، ثم قفل الوزير عائدا لبغداد بعد أن عين الشيخ ناصر الصقر رئيسا على المنتفق.[١٦]

ويعلق الأستاذ (عباس العزاوي) على نتائج هذه المعركة، بأنها لو كانت لصالح المنتفق، لكان بالإمكان استقلال العراق عن الدولة العثمانية، لأنه يرى أن إخفاقها في تلك المواجهة، كان يعني انتهاء أملها في كل وجودها في العراق.[١٧] ومع تقديرنا لما ذهب إليه أستاذنا – العزاوي – فإنا نرى أن تحقيق ذلك الاستقلال سيصطدم بعقبتين، أولهما: النفوذ الإنكليزي الذي استطاع أن يهندس أوضاع المداخل الخارجية المطلة على سواحل الخليج العربي، وفق صيغ متعددة مع حكام هذه المناطق ووفقا لما يديم مصالحه ويطورها، وثانيهما: أن فقدان العراق من قبل العثمانيين، وهو اقرب الأقاليم العربية إليهم، يعني تهديدا مباشرا لدعواهم في موضوع الخلافة الإسلامية، خصوصا إذا فقدوا إقليم الحجاز الذي بنوا عليه إحدى دعائمهم فيما يخص دعاويهم بأنهم "خدام الحرمين الشريفين". ولا أظن أن سلطات استنبول كانت تقبل تلك النتيجة وملاحقها، بعد أن تعرض التوسع العثماني في القارة الأوروبية إلى الانكماش المستمر.

هذه الصورة وتعدد صفحات مواجهتها كانت بلا شك خارج إمكانات المنتفق وعموم القبائل العراقية في ذلك الوقت. ورغم الانكسار الحاصل في النتيجة العسكرية لرجال المنتفق، فإنهم لم يهادنوا ويتذللوا، بل قارعوا العثمانيين فيما بعد،

---

(١٦) المصدر أعلاه – ص ١٧٨.

(١٧) أعلاه – ص ١٧٩ – ١٨٠.

لمائة وثمانين سنة قادمة، بعد هذه المعركة، وهذا بتقديري أهم ما في استمرار صلابة الإرادة لرجال المنتفق.

بعد عزل الأمير مغامس المانع عن رئاسة المنتفق من قبل وزير بغداد، وإعادة تعيين الشيخ ناصر الصقر رئيسا على المنتفق ركنت قبائله للهدوء والسكينة بعد هذه المواجهات الدموية، كما أن والي البصرة الجديد، دعم الشيخ ناصر في رئاسته وأعطاه دعمه الأدبي والمعنوي. إلا أن الأمير مغامس رغم كل ما حدث فإنه لم يستسلم لليأس، بل إن روحه المتطلعة للاستقلال ظلت متقدة. ورغم انفراط ما تحقق له من حشد كبير، فإنه بالمتبقي منهم، ظل يغير على أطراف البصرة التي سكنها الشيخ ناصر، بعيدا عن أرض المنتفق في بادية الشامية الأمر الذي اضطر الأخير أن يشكوه لوزير بغداد بعرائض فحواها "أننا ضجرنا من شيخنا مغامس لما قام به من ظلم، وليس لنا رضا بأعماله، أنقذونا منه وأمدنا بعنايتك" فرد عليه الوزير "أتينا لكم، أبشروا بخير، جئناكم بسرعة الريح ... إنكم في حمانا فاطمئنوا وأيقنوا بالنصر".(١٨)

وقد كتب الوزير كتابه، بعد أن سار بقواته حتى تقرب لمنازل الشيخ ناصر، الذي جرى إكرامه وتلطيفه لمسايرته للوزير، حسن باشا، أما الأمير مغامس المانع، فقد انسحب مع قواته متجنبا الاصطدام بالجيش العثماني، بعد أن قرر عدم إمكانيته لهذه المعركة، حيث كانت غايته إشعار الدولة بعدم كفايتها لإقرار الهدوء والأمن بعيدا عن رأي المنتفق ورجالها الحقيقيين.

أما بالنسبة للشيخ سلمان بن عباس الخزعلي الذي أقام بأرض المنتفق منذ أيام الأمير مانع السخاء، وقاتل معهم القوات العثمانية، فقد ودع الأمير مغامس المانع، وذهب إلى بلاد العجم، حيث عين حاكما على الدورق والدست.(١٩) في

---

(١٨) المصدر السابق – ص ١٨٣.

(١٩) حمود الساعدي – مصدر سابق – ص ٢٢.

حين أوكلت الدولة العثمانية لوزير بغداد، ايالة البصرة، وثمنت جهوده في هذا الجانب، بينما ظل شيخ مشايخ المنتفق، بما تبقى له من رجال كثير التنقل بين بادية الشامية وأطراف البصرة.[٢٠]

إن ما تحقق لرجال المنتفق أيام مانع السخاء، وابنه مغامس، خصوصا في امتلاكهم البصرة لسنوات متعددة، يعني حتى في معانيه الأولية، تطلعهم للابتعاد عن التدخلات الأجنبية وولوجهم طريق الاستقلال، بعد أن أيقنوا قوتهم باعتمادهم على الروح العربية لقبائلهم وتطلعهم نحو تحقيق ذاتهم وبالشكل الذي يفهمونه، ومما زاد في سعيهم إلى هذا الهدف، إن سياسة الدولة العثمانية كانت سياسة قمعية ومرتشية الأمر الذي جعل من جمرة التمرد طريقا للاستقلال.[٢١]

بعد انتصار الدولة في معركتها الحاسمة مع المنتفق عام ١٧٠٨م واحتلالهم للبصرة فقد بدى أن السلطة المركزية آخذة بالتمركز والانتشار، خصوصا وأن على رأس باشوية بغداد، وال من أقدر الولاة، يترافق مع هذا ازدياد قوات الدولة العسكرية المرابطة في الإقليم العراقي، بعد أن أكثر حسن باشا من شراء الصبيان وتجنيدهم من أقاليم القفر الآسيوي الممتدة من شمال خراسان حتى حدود انتشار الدين الإسلامي شمالا في الأصقاع الروسية.

في هذه الفترة وأزاء الصراعات التي دخلتها المنتفق مع الدولة العثمانية فقد ركنت قبائلها إلى الهدوء والاستزراع بعد أن أثرت عليهم هذه الحروب كثيرا، مضافا لذلك – وهذا من المهمات – أن شيخ المنتفق الرسمي والمعترف به من قبل الدولة العثمانية، الشيخ ناصر الصقر، قد اتخذ من البصرة، وبساتينها مقرا دائما له، بعيدا عن أرض نفوذه وإمارته في ديرة المنتفق. هذا الابتعاد القسري قوى من دعاوى الأمير مغامس المانع الذي ظل قريبا منهم في بواديهم وسهولهم وأراضيهم

---

(٢٠) عبد الرحمن السويدي – مصدر سابق – ص ٦٢.

(٢١) علي الشرقي – العرب ...... – مصدر سابق – ص ٦٧.

الزراعية، رغم أن رأسه كان مطلوباً من قبل الدولة إلا أن الشيخ ناصر لـــم يدفـــع بالأمور لهذا الحد خوفاً وخشيةً من قبائل المنتفق، الأمر الذي دفـــع وزيـــر بغـــداد حسن باشا، لدفع شيخ – الجشعم – بالتجسس على مغامس المانع، تهيئـــةً وترتيبـــاً لالقاء القبض عليه إلا أن تلك المحاولة كشفت وفشلت، ودفعت بـــالمنتفق وأمـــيرهم الفعلي إلى مهاجمة دياره ومزارعه في الحسكة والرماحية، مما جعله يقلع عن تلـــك المحاولة بعد أن تلمس قساوة رد المتنفق أزاء من يخونها للأجنبي.(٢٢)

رغم أن الشيخ الرسمي للمنتفق كان ناصر الصقر، فقد كانت كلمـــة ونفـــوذ مغامس المانع هي المسيطرة والفعالة في جميع ديرة المنتفـــق، باســـتثناء البصـــرة وبساتينها والتي اتخذها الشيخ الرسمي مقراً له. في هذه الفترة، وتحديداً فـــي عـــام ١٧١٨م، لا أدري هل توافقت الصدف أم أنها تقاطعت، حينمـــا يتوفـــى الشـــيخان مغامس المانع وناصر الصقر، وبفترة متقاربة جداً، مما يجعل إمارة المنتفق شـــاغرة من شيخيها الرسمي والفعلي. إلا أن قبائل المنتفق تكون الأسرع في المبادرة حينمـــا تنصب "محمد بن مانع السخاء" شقيق مغامس المانع أميراً عليها.

ورغم أن هذه المبادرة لم تكن ذات وقع طيب عند وزيـــر بغـــداد ومتســـلم البصرة، إلا أنهما تصرفا بسياسة الأمر الواقع، بعد أن قـــدرا مـــا ســـيلاقيانه مـــن متاعب أن نصَّباً أميراً آخر غير الذي اختارته قبائل المنتفق لها، وكـــانت حـــاضرة في ذهنهم أيام مغامس المانع وناصر الصقر. ولذلك فإنهم تعاملوا مع الأمير محمـــد المانع بصيغة رسمية، بعد أن أصدر حسن باشا أمراً رسمياً باعتماد محمـــد المـــانع أميراً على المنتفق وتقديري أن هذا الأمر لم يغير من الأمر شيئاً، لكنه لحد ما حفـــظ لوزير بغداد ودولته بعض ماء وجهها، أمام القبائل العراقية الأخرى.

---

(٢٢) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج ٥ – مصدر سابق – ص ١٨٢.

مضافا لذلك أن الوزير حسن باشا قد أراد أن يوازن العصا ويمسكها من وسطها، ويعيد للدولة جزءا من هيبتها عند المواطنين، الأمر الذي دفعه إلى تعيين ابنه "أحمد" متسلما على البصرة عام ١٧١٩م، مما منح باشوية بغداد، بعض الهيمنة الفعلية وأعطى لسلطات استنبول الانطباع بحقيقة توحيد العراق وجعله تحت الهيمنة العثمانية.(٢٣)

في عشرينيات القرن الثامن عشر، انشغلت الدولة العثمانية، وخصوصا وزير بغداد حسن باشا بالاضطرابات والفتن التي شهدتها بلاد فارس بعد سقوط الدولة الصفوية والاجتياح الأفغاني لها، مما استوجب منه ترميم الثغرات التي لمسها في دفاعاته، كما أنه رغب دولته وأغراها بالتدخل في بلاد فارس إزاء الفوضى المتفشية فيها. ورغم التردد الأولي الذي طبع قرار استنبول، إلا أنها في الأخير مكنت واليها حسن باشا من دخول بلاد فارس فاحتل أراضي جديدة ودخل في معارك كثيرة أغلبها مع أتباع الشاه الصفوي، والأخرى مع الأفغان وقادتهم. ولم يهنأ حسن باشا بفتوحاته حيث توفى عند أسوار همدان عام ١٧٢٣م الأمر الذي دعا الدولة العثمانية إلى تكليف ابنه أحمد بمتابعة ما بدأ به والده.(٢٤)

ما حدث ويحدث بين الدولتين الإسلاميتين، وما عاناه رجال المنتفق من كلتيهما دفع أمراء المنتفق إلى سلوك سياسة جديدة بالملاحظة والتقييم. وقد بدأت هذه السياسة منذ الأيام الأولى لإمارة – محمد المانع – حيث سعوا لجذب أغلب عشائر نجد العربية نحو العراق، بعد أن تيقنوا ما يتعرض له العراق من ضغوط ومن جهتين (العثمانيين والفرس)، الأمر الذي لا يمكن مقارعته والحفاظ على

---

(٢٣) علاء موسى كاظم نورس – حكم المماليك في العراق – ١٧٥٠ – ١٨٣١ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٥ – ص ١٩.

(٢٤) رسول الكركوكلي – دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء – ترجمة موسى كاظم نورس – دار الكتاب العربي – بيروت بدون تاريخ – ص ص ١٥ – ١٩.

عروبة العراق دون الإكثار من القبائل العربية النسب والأصل، وهذا ما حدث مع قبائل متعددة مثل: مطير، الضفير، حرب، سبيع، قحطان، عتيبة.[٢٥] ولعل في الوقائع التي دخلتها إمارة المنتفق مع العدوين الأساسيين لها ما يؤكد صحة ذلك النهج وصوابه، لأنه بهذه القبائل وقبائل المنتفق الأخرى، حوفظ على عروبة العراق الجنوبي، رغم ما بذله الطرفان الآخران (العثمانيون والفرس) من جهد لتغيير الخريطة السكانية لصالحهما، لأن أغلبية المحيط العربي الذي خلقته ورعته إمارة المنتفق تمكنت من طرد وإجهاض أية محاولة لمسخ عروبة العراق الجنوبي.

ولا بد أن نضيف أن بادية المنتفق مفتوحة، لذلك كانت أقرب الديار للهجرات الواسعة للقبائل من شبه الجزيرة العربية، لأسباب سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية، وعليه نجد أن صلة القرابة بين قبائل نجد والمنتفق واسعة، لأن أغلب عشائر المنتفق قبائل نجدية أو حجازية.[٢٦] كما أن الجدب والركود الاقتصادي والحياة القاسية سمات طبعت حياة قبائل نجد، يقابلها على أرض العراق، وفرة مائية وأرض زراعية خصبة ومنتوجات تكفل للحياة البشرية ديمومتها. هذه العوامل مجتمعة شكلت عوامل جذب لقبائل نجد جميعا، مما دعاها للارتحال صوب بادية الشامية ومنطقة المنتفق، هذا إذا علمنا أن شيوخ الإمارة من آل شبيب، قد أجملوا الترحيب بهذه القبائل النازحة، وأحلوهم بما يليق بهم، وأقطعوهم الأراضي الزراعية الشاغرة على ضفتي الفرات.[٢٧]

---

(٢٥) عباس العزاوي – عشائر العراق – ج ١ – مطبعة بغداد – بغداد ١٩٣٧ – ص ٣٠٠.

(٢٦) محمد خليفة النبهاني – التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية – دار إحياء العلوم – بيروت ١٩٨٦ – ط ١ – ص ٣٦٩.

(٢٧) عبد الكريم محمد علي – تاريخ مدينة سوق الشيوخ – مطبعة عصام – بغداد ١٩٩٠ – ص ٢٦.

إن حسن الاستقبال الذي مارسته إمارة المنتفق مع القبائل النازحة إليها، وإقطاعهم الأراضي الزراعية ومراعي الماشية، قد وازن المعادلة التي كانت المنتفق تخشاها، بازدياد حجم أعدائها من غير العرب. كما أن الانصهار الحقيقي للقبائل النازحة مع ما يحيط بها من قبائل وعشائر المنتفق يعود فضله إلى أمراء المنتفق الذين امتلكوا القدرة والجدارة التي أعطت لهذا الاتحاد القبائلي، الإمكانية في أن يعطب الدولة العثمانية مرارا، بعضها كان كبيرا، ويحمي العراق الجنوبي من غزوات كل الطامعين من المحيطين به.(٢٨)

ومن يدقق في العشائر التي استطاعت إمارة المنتفق أن تجعلها تنصهر وتتفاعل في بوتقة اتحادها، تعزيزا لنهجها العربي الساعي للكرامة والاستقلال، لامتلك بين يديه قائمة طويلة بأسماء هذه العشائر، ولاتضح لديه مدى الجهد الذي بذل في تعزيز نفوذ هذه الإمارة العربية، والذي لم تبخل فيه عشائرها في تقديم أغلى المهور من أجل طموحها وكرامتها، مما أبقى هذه الإمارة لأكثر من (٣٥٠) عاما، تناطح جميع من أراد ايذاءها، وفي المقدمة منهم "العثمانيون" والذين لم يبذلوا من جهد في كل محاولاتهم وجهودهم لإسقاط الإمارات المستقلة، مثلما بذلوه مع إمارة المنتفق.

إن هذا التدفق السكاني، الذي جرى الترحيب به من قبل إمارة المنتفق قد دفع بعض قبائل – الغراف – إلى الهجرة إلى منطقة العمارة لأن هذا الاتحاد القبائلي قد قلب موازين القوى في المنطقة بأكمله وعرض حدود وديار القبائل إلى التغيير.(٢٩) ولذلك فقد بادر أمير المنتفق – محمد المانع – إلى إرسال عشائره من "آل أزيرج" يقودهم عطية آل ربيع كطلائع على نهر دجلة في منطقة العمارة

---

(٢٨) عباس العزاوي – عشائر ...... – ج٤– مصدر سابق – ص ٢٧.

(٢٩) جبار عبد الله الجويبراوي – تاريخ ميسان وعشائر العمارة – مكتبة اليقظة العربية – بغداد ١٩٩٠ – ص ١٤٠.

لمراقبة حدوده الشرقية مع بلاد فارس ومراقبة قدوم القوات العثمانية وقطع الطريق عليها، وحيطة من الهجوم المفاجئ الذي قد تتعرض له الإمارة من هذه الجهة، وكانت بيوت (السهلان، العبيات، البو سعد، آل محمود) من رافقوا عطية في مهمته[٣٠]، حيث تم إسكانهم الجانب الأيمن من نهر دجلة. وقد بقى "آل أزيرج" في سكناهم ذاك حتى يومنا هذا.[٣١]

إن انشغال الدولة العثمانية في توسيع وترتيب "أطماعها" في الشرق، وانشغال الدولة الفارسية في تضميد جراحاتها التي جاءت بعد سلسلة من التغييرات الدراماتيكية منحت جميع الإمارات العراقية فسحة من الوقت في ترتيب بيتها الداخلي وتقويته، خصوصا وأن طرفي الصراع الدائم في الإقليم العراقي -العثماني والفرس- مشغولان مع بعضهما حربا أم سياسة أو مع مصالحهما حيثما كانت.

هذه الفترة الموحية بالهدوء والمفعمة بالاحتمالات الأسوء، استفادت منها المنتفق بالشكل الذي يقوي ويماسك أعمدة تحالفها، ويجعل من قرارها الخاص حقائق معلومة على ارض الإقليم الذي تمتد عليه نفوذها. ولذلك فإن سقوط الدولة الصفوية، وانشغال بلاد فارس والدولة العثمانية في مخلفات هذا السقوط وآثاره، منح المنتفق الوقت لتدعو الكثير من القبائل العربية من أواسط الجزيرة العربية، بحيث بات خطابها السياسي - العسكري، مع العثمانيين خصوصا يوحي بالكثير من مقومات القوة والمستند إلى حقائق الفعل والنفوذ على الإقليم الممتد التأثير الحقيقي عليه.

في بدايات عام ١٧٢٩م، يتوفى الأمير - محمد المانع - بعد أن أجهد نفسه خلال فترة إمارته بتقوية تحالفه القبائلي، وجعله مركزا مؤثرا في مجرى

---

(٣٠) عقيل عبد الحسين المالكي - ميسان وعشائرها قديما وحديثا - مطبعة الجاحظ - بغداد ١٩٩٢ - ص ١٢٩.

(٣١) جبار عبد الله - مصدر سابق - ص ١٣٩.

الأحداث حتى خارج حدود ونفوذ المنتفق الفعلي ولم يكن أحد من أبنائه مؤهلا لرئاسة الاتحاد القبائلي لصغر سنهم، كما أن إخوته الآخرين، كانوا قد غادروا الحياة قبله، هذه الوضعية منحت وزير بغداد من جديد، إمكانية التدخل في شؤون المنتفق، خصوصا بعد أن وجد له من يسهل هذا التدخل، حبا بالإمارة والسلطة لذلك بادر أحمد باشا، إلى ترشيح الشيخ – منيخر بن ناصر الصقر الشبيبي – لرئاسة اتحاد المنتفق القبائلي.[٣٢]

وقد كانت سنوات مشيخة – منيخر الصقر – مطبوعة بالهدوء والاستقرار لسببين، أولهما: تطابق مصالح الشيخ منيخر مع وزير بغداد الذي أسنده ودعمه في هذا الترشيح، وثانيهما: اتجاه أغلب عشائر المنتفق نحو الاستقرار والزراعة وترتيب أمورهم المعاشية بالشكل الذي لا يتقاطع مع توجهات السلطة، نظرا لتوجسهم من طريقة ترشيح أميرهم عليهم. هذا جانب، وجانب آخر دفع المنتفق للترقب وتقدير الأحداث، إن العراق، تعرض خلال تلك السنوات إلى غزو جديد قاده "نادر شاه"* ولمرتين خلال عام ١٧٣٣م. وقد كانت تلك الغزوات دامية ورهيبة ومؤذية، خصوصا في حصار بغداد الذي دام سبعة أشهر[٣٣]، أبدى فيها سكان بغداد صبرا وتحملا كبيرين، رغم ما عانوه من عذابات وآلام كثيرة على مستوى المعارك، أم في النقص الشديد في الأغذية.[٣٤] وقد كان لشخصية أحمد باشا

---

(٣٢) لونكريك – مصدر سابق – ص ١٩٠.

* نادر شاه، ولد عام ١٦٨٨م، ينتمي لقبيلة الأفشار. قضى صباه وشبابه قاطعا للطريق، ثم نظم نفسه وأصحابه وارتبط بالشاه – طهماسب – الذي قدمه وسانده، ولم يخيب الظن فيه، لأنه استطاع أن يوحد بلاد فارس بعد أن طرد الأفغان، ومن ثم العثمانيين. أقصى الشاه وجعل من نفسه "شاهنشاه" أعظم على بلاد فارس. كان يتشبه بالفاتحين العظام مثل جنكيز خان والإسكندر. اغتيل في ٢٠ حزيران ١٧٤٧م ودخلت بلاد فارس بعد ذلك في فوضى حتى ظهور – كريم خان الزند.

(٣٣) د. علي الوردي – ج ١ – مصدر سابق – ص ١١٣.

(٣٤) رسول الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٣٤.

وإخلاص مماليكه المتفاني، الدور الأساسي في وقوف بغداد بوجه – نادر شاه – وجيوشه في حصاراته المتعددة لها دون أن يتمكن من احتلالها.

مشيخة الشيخ – منيخر الصقر – طبعت سلوكها في المنتفق بالهدوء والابتعاد عن التقاطع مع ولاة بغداد، مما منحه الدعم المعنوي والأدبي من باشواتها، بحيث أصبحت مشيخته مستندة إلى قوة ليست بالهينة. إلا أن سنوات الهدوء تلك تمخضت عن ظهور فارس جديد، قدر له أن يطبع مستقبل الأحداث باسمه وآثاره، ونقصد به الشيخ "سعدون بن محمد المانع" الملقب ب "سعدون الكبير".

فقد حجبت عنه مشيخة المنتفق بعد وفاة والده لصغر سنه، إلا أنه وبعد أن غادر العشرين من عمره، كوّن لنفسه شخصية متميزة بين أقرانه من أبناء المنتفق، من خلال غزواته المتعددة التي أحرزت له مكانة عالية، أزاء ما يتمتع به من شجاعة كبيرة واحترام وجرأة لا تعطلهما المصاعب، بحيث تطلعت المنتفق بأجمعها أن يعيد لها مكانتها التي علاها الصدأ خلال أيام هدوئها – الإجباري – الذي لم تتعوده طيلة ربع قرن مضى، كما أن شكل الوئام الذي طبع علاقة المنتفق مع باشا بغداد أيام مشيخة – منيخر الصقر – لم يكن مستحباً ومقبولاً بإطلاقه من قبل رجال المنتفق، مضافاً لذلك أن محبة المنتفق لسعدون بن محمد جاءت مستندة لمحبة والده وجده وجد أبيه، وأيامهم المشرقة. هذا الجانب قوّى من دعاوي سعدون ومنحه تأييد الأغلبية من رجال المنتفق، بحيث بات الشيخ الرسمي منيخر لا يملك الكلمة النهائية في ديرة المنتفق ومنطقة نفوذها، ولذلك فإن سعدون أعلن رئاسته على المنتفق عام ١٧٣٧م دون أن يستأذن وزير بغداد بما أقدم عليه، مما أوجب على الجميع ترتيب الوضع بشكل دقيق ووفقاً لأولويات كل طرف تحسباً لمفاجأت الايام.

لهذا فقد عقد في بداية عام ١٧٣٨م، اجتماعاً في الحسكة (الديوانية حالياً) بأمر من وزير بغداد احمد باشا، حضره كهيته "سليمان باشا"، ورؤوساء العشائر

والتجمعات القبائلية المهمة، وحضره من المنتفق الشيخان – سعدون – و – منيخر – مع وجوه ومقدمي قومهما. وقد جرى تلطيف الجميع من خلال الباسهم حلة المشيخة والامان، سوى الشيخ سعدون بن محمد الذي اخذ مخفورا لبغداد بعد ان قبض عليه وعلى رجاله، حيث سجنوا في الثكنة الداخلية (٣٥).

وقد برر الكهية ما اتخذه من اجراءات، بأنه متأت من ان الشيخ سعدون، كان يعلن بأنه ملك العرب وسلطان البر (٣٦). وترافقا مع هذا الاجراء، جددت مشيخة الشيخ منيخر على المنتفق، حيث سلك سياسة الطاعة والخضوع لاوامر الدولة. اما عشائره فقد كانت حياتها توحي بانطباع هادىء، لكن هذا الهدوء كان اشبه بالظاهر من جبل الجليد الغاطس في الاعماق.

سجن الشيخ سعدون ومرافقيه، ولد انعكاسات سلبية على سياسات وتدبير وزير بغداد الذي استطاع تقدير مدى الخسائر التي ستلحق به ان اصر على اجراءاته تلك، لذلك فانه بعد ثلاثة اشهر من الاعتقال، يطلق سراحه ورفاقه بعد ان تيقن انه امام شخصية لها فعلها الاتي والمستقبلي، وذات حضور واهمية كبيرة في العراق الجنوبي، خصوصا وانها مسنودة بأكبر اتحاد قبائلي شهده العراق، ليس هذا فحسب، بل انه عزل الشيخ منيخر عن رئاسة المنتفق وانعم بها على الشيخ سعدون واعاده الى ديرته معززا مكرما في اواسط عام ١٧٣٨م (٣٧).

بعد اشهر قليلة من عودته لديار المنتفق، ولطبعه المجبول على الثورة والتحرر بعيدا عن العثمانيين، ولمحبة عشائره له واطاعتها لاوامره، فقد حشد ما

---

(٣٥) لونكريك – مصدر سابق – ص١٩٠.

(٣٦) يعقوب سركيس – مصدر سابق، ص١٩٦.

(٣٧) المصدر السابق، ص١٩٧.

يقارب من عشرة الاف رجل مسلح وسيطر على الاراضي الواقعة بين النجف والحلة، وبث سراياه وعساكره على ما حوله من المدن [٣٨]. وكان يصرح علنا بالقول (انا السلطان الثاني فما الوزير والعسكر العثماني) [٣٩]. وبلا شك ان مثل هذا الاعلان – حتى وان لم يتم تنفيذه على ارض الواقع – شكل ابعادا عميقة، وعلى مستويين، الاول: في طبيعة علاقة الدولة العثمانية بـ "رعاياها" من العرب، والثاني: ان السكوت على مثل هذه الدعاوى يشكل تحديا جديا لمجمل الوجود العثماني في العراق على ضوء مستويات القوة وتوازناتها في تلك الفترة.

هذا التحدي الجدي والخطير، استوجب ان يقود احمد باشا، الجيش العثماني، لوأد خطر هذه المحاولة والقضاء عليها، الامر الذي اضطر رجال المنتفق واميرهم سعدون، الى التراجع عن ما احتلوه من أراض، والتحصن في الاهوار. وقد جرت معارك متفرقة بين الطرفين، لم تحسم الامر لاحدهما، وان كانت الارجحية لصالح القوات العثمانية بفضل تسليحها الجيد قياسا لما يملكه رجال المنتفق من سلاح. ورغم الحصار وما رافقه من جوع والام فلم يستسلم سعدون ورجاله. ونظرا لطول فترة المعارك دون نتيجة حاسمة، ولخشية احمد باشا على حدوده الشرقية من تطلعات واطماع نادر شاه، ومن حركات البابابيين في كردستان، فقد رجع باشا بغداد، بعد ان ايقن ان الامير سعدون سيفهم الدرس ولن يعود الى المشاكسة مع الدولة، بعد ان اخذت عليه التعهدات الشديدة [٤٠].

---

(٣٨) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٥ – ص٢٥٦.

(٣٩) رسول الكركوتلي – مصدر سابق – ص٤٣.

(٤٠) ياسين خير الله العمري – غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام – مطبعة دار البصري – بغداد ١٩٦٨ – ص١٨٠.

ورغم ان البعض يعزو عودة الوزير لوجود اتفاق سابق بينه وبين سعدون بأن (لا يفتك احدهما بالاخر) لان عودة الوزير حدثت بعد ان جاء اليه الصبي (ثامر بن سعدون) يرجوه الكف عن حصار اهله ورجال المنتفق بعد ان اوشكوا على الهلاك (٤١) وبتقديري انه لم يكن هناك من اتفاق، بقدر ما كان هناك من اعجاب متبادل من قبل الرجلين لبعضهما، ازاء ما يتمتعا به من صفات رجولية من شجاعة وجرأة وتضحية وكرم. يضاف الى ذلك ان احمد باشا، قد استطاع ان يحصل على تقدير موقف دقيق حول المنتفق، من خلال معايشته لواقع الامير السابق والامير الحالي، الامر الذي يستوجب منه غض النظر عن بعض السلوكيات، لأنه كان يجد في المنتفق احتياطا مهما له، في أي صراع قادم مع بلاد فارس، ما دام نادر شاه، يتطلع بشراهة نحو العراق، وبلا شك ان استجابة المنتفق لسعدون هي غير استجابتها لمنيخر، وهذا ما لمسه احمد باشا بنفسه. ومما يعزز قولنا، ان وزير بغداد، لم يعزل الامير سعدون عن رئاسة المنتفق، لأنه وجد فيه رجل الساعة الذي قد يحتاجه لأمر جسيم.

عودة احمد باشا لبغداد، ورفعه الحصار عن سعدون ورجاله، لم تقتل او تكلس روح الثورة والتمرد التي طبعت المنتفق خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر. بل استطيع ان اقدر، ان تلك العودة قد وظفها الامير سعدون لصالحه، حيث انه لم يهزم ولم ينتصر غريمه، وهذا في كل الاحوال يحسب لصالح المنتفق، الذين وجدوا ان عودة العساكر العثمانية لمقراتها لم يترافق معه انهزامهم، يعزز تلك الدعاوى بقاء اميرهم على رأس اتحادهم القبائلي.

---

(٤١) عباس العزاوي – تاريخ ... ج٥ ص٢٥٧، رسول الكركوكلي – مصدر سابق – ص٤٤، يعقوب سركيس – مصدر سابق – ق٣ – ص١٩٦.

لذلك لم يكد عام ١٧٣٩م يطل، حتى يقود الامير سعدون المنتفق في ثورة عارمة، تخلخل اركان الدولة من جديد، وتطرح مجددا موضوع الاستقلال، بعد ان التف حول المنتفق العديد من العشائر والقبائل من خارج اتحادها القبائلي، فغدت ثورة واسعة لم تقتصر اثارها عند حدود "ديرة" المنتفق، كما ان هذا التجمع الذي ضمته حركة التمرد والثورة التي قادها سعدون، قد قبل اعلانات المنتفق بأن اميرهم هو "سلطان العرب" [٤٢]، وهذا ما جعل وزير بغداد يقدر خطورة ما يحدث، حيث استمرت هذه الثورة اكثر من ثلاثة اعوام، استطاع المنتفق فيها من فرض سيطرتهم على مناطق واسعة من الفرات الاوسط وفرضوا كذلك الاتاوة على المسافرين [٤٣]، وحاصروا البصرة وضيقوا الخناق عليها، بحيث لم يستطع احد الخروج من سورها بسلام [٤٤]، ولم يسلم حتى وكلاء الشركات الانكليزية والفرنسية من طلبات الاتاوة وتهديدات بالعنف، حتى اضطر الامر قنصلي بريطانيا وفرنسا، على مفاتحة سفاراتهما في استنبول بالامر، والتي اعلمت السلطان العثماني بتهديدات الشيخ سعدون لجالياتهما واخذه الخاوة منهم [٤٥].

تصاعد الامور لهذا الحد، دفع بالصدر الاعظم ان يصدر اوامره الى وزير بغداد بضرورة القضاء على ثورة الامير سعدون، لان سمعة الدولة قد تتعرض للاهانة. الامر الذي دعا احمد باشا، الى اصدار اوامره الى كهيته – سليمان باشا– بأن يقود الجيوش لفك الحصار عن البصرة ومقاتلة الشيخ سعدون [٤٦]. الا ان رجال المنتفق حينما علموا بذلك رفعوا الحصار عن البصرة واتجهوا لبادية المنتفق القريبة من مدينة – السماوة – فأخذ الكهية متابعتهم، ودفعته رغبته في الانتقام من

---

(٤٢) لونكريك – مصدر سابق – ص١٩٠.

(٤٣) د. علي الوردي – مصدر سابق – ج١ – ص١١٧.

(٤٤) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص١٢٦.

(٤٥) لونكريك – مصدر سابق – ص١٩١.

(٤٦) رسول الكركوكلي – مصدر سابق، ص٤٤.

سعدون لاهانه سابقه اهانه بها، فطاردهم بمسيرات سريعة والتحم معهم في معارك سريعة، كانت اغلبها لصالح المنتفق (٤٧). كما استطاع الكهية ان يجند بعض الاعراب العائدين الى الشيخ منيخر الصقر، لغرض التجسس والاخبار، وهذا ما حصل، حيث اخبروا الكهية بمكان سعدون (٤٨)، فأسرع للحاق به، وقد وجدوه يتفقد عجوزا في اخر الرتل (٤٩)، فطوقوه، الا انه اظهر شجاعة فائقة، لأنه بعد ان كسر رمحه وسيفه فوق دروع وخوذ الجنود حين مهاجمته اياهم ومدافعته عن نفسه، استل ركابا من السرج فواصل المحاربة، حتى كبت فرسه، فوقع عنها مرتين، الا انه عاد وركبها بشجاعة لمواصلة القتال (٥٠)، فحارب بعنف وشدة تفوق العادة وخرق مرارا صفوف الاعداء وكم جندل برمحه وسيفه من قابله خلال ثماني ساعات من القتال دون ان يفكر بالفرار وهو ما كان قادرا عليه (٥١). ويصف – نيبور – ما حدث بأن العرب لا يزالوا (يتغنون بالشجاعة التي ابداها شيخهم سعدون، كيف دافع عن نفسه بالرمح، ثم بالسيف وبعدها بالدبوس "وهو نوع من الهروات" واخيرا بالركاب، فزمام فرسه، ... وبعد اسره عرف أسريه بنفسه من خلال تعداد اسماء اجداده، ثم سأل الكهية عن اسم والده * "كان الكهية كرجيا بالاصل بيع اسيرا في شبابه" وقد ازعج هذا السؤال سليمان الكهية فأمر بقطع

---

(٤٧) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص١٢٧.

(٤٨) يعقوب سركيس – مصدر سابق – ق٣ – ص١٩٨.

(٤٩) لمزيد من التفاصيل حول مقتل الامير سعدون، ينظر مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(٥٠) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) اوراق يعقوب سركيس

(٥١) يعقوب سركيس – مصدر سابق – ق٣– ص١٩٩.

* المقصود بالسؤال، هو ان المعني لا يعرف له اصل، لانه جاء اما طفلا كأسير او رقيقا مشترى من بلاد الفقر الاسيوية، واما انه جاء نتيجة علاقة غير شرعية داخل بلاط (حسن باشا) وفي الحالتين، فأن ذلك اسوأ ما يوصف به الرجل عند العرب.

رأسه فورا..." [٥٢]. فكان حادث قتل أغا مملوك لهذا الشيخ الباسل بدم بارد يذكر طويلا فيما بعد [٥٣]. وعندما جاء الخبر بمقتل الامير سعدون الى احمد باشا، انعم على البشير وعلى القاتل وعلى الكهية بعطايا كثيرة [٥٤]، ثم امر ان يسلخ رأسه ويحشى تبنا ويوضع في صندوق ويرسل الى استنبول، لما شاع وذاع عندهم من قوة بطشه [٥٥]

لقد وصف البعض ثورة الشيخ سعدون تلك، بأنها اول محاولة لعرب العراق في سبيل استرداد حريتهم واول حركة يقومون بها لتشكيل حكومة مستقلة لهم في العراق بعيدا عن الوجود العثماني ايا كان شكله [٥٦].

وقد دفعت هذه الثورة التي استمرت بين اعوام ١٧٣٩-١٧٤٢م والتي انتهت بمقتل قائدها، شكل التناقض الحاصل بين المنتفق والدولة العثمانية الى العمق، ووضحت الطبيعة العراقية المتطلعة للتحرر. وبمقتل الامير سعدون فقدت المنتفق زعيما باسلا وقائدا عظيما ورجلا اعطى للشجاعة معانيها، وخسرت اسرة "ال شبيب" احد بيارقها العزيزة في طريق الاستقلال والتحرر، الذي طبع حياة وتاريخ هذه الاسرة مع العثمانيين طيلة وجود الاثنين. ومما يؤكد عظمة الامير سعدون في حياته ومماته، ان احفاده واسرته اخذت تتلقب به دون جدها الاكبر "شبيب" ، فالجميع الان يسعدهم لقبهم والذي جاء من اسم اميرهم الخالد – سعدون

---

(٥٢) مشاهدات ينبور في رحلته من البصرة الى الحلة ١٧٦٥ – ترجمة سعاد هادي العمري – مطبعة دار المعرفة – بغداد ١٩٥٥ – ص٦٠-٦١.

(٥٣) لونكريك – مصدر سابق – ص١٩١.

(٥٤) لوريمر – مصدر سابق – ص١٧٨٣.

(٥٥) عباس العزاوي – تاريخ ..... ج٥ – ص٢٥٨.

(٥٦) رسول الكركوكلي – مصدر سابق – ص٩.

بن محمد بن مانع ال شبيب – . وقطعا ان اللقب لا يحمل الا لمن يتشرف به، وهذه إحدى صفات ذلك الثائر الكريم.

بغياب الامير سعدون عن مسرح الاحداث في العراق الجنوبي، فقد تخلص وزير بغداد من اخطر خصومه واشدهم، ومنحه امكانية التدخل في شؤون المنتفق وضبط ايقاع حركتها، بما يتوافق وسياسة الدولة، لذلك بادر احمد باشا، بعد مقتل الشيخ سعدون، الى اعادة تعيين الشيخ منيخر الصقر، رئيسا على اتحاد المنتفق القبائلي، لأنه سبق وان جرى التعامل معه، وكان الرجل متوافقا بشكل تام مع سياسات وزير بغداد واوامر دولته "العلية"، هذا غير طباعه الميالة الى المسالمة والهدوء، والتي انعكست على عموم عشائره خصوصا بعد مقتل اميرها سعدون.

في هذه الفترة وتحديدا في عام ١٧٤٣م، يظهر من جديد على الاراضي العراقية، نادر شاه، غازيا ومدمرا وناهبا، فتتعرض كركوك واربيل والموصل، الى محن وويلات وقتل وتدمير [٥٧]، الامر الذي يدفعنا الى القول مجددا، ان ما حصل عليه العراق من وجود العثمانيين والفرس، على تخومه الشمالية والشرقية، كان في مجمله شرا والما وتدميرا، رغم كل ما يدعونه من "اسلام" وما يملكونه من فتاوى تجيز لكل منهم، قتل الطرف الاخر، وقطعا فأن التدمير والقتل والنهب، يكون عاما في الحالات التي كان فيها هذان الطرفان، هما اللاعبين الاساسيين على المسرح السياسي العراقي.

هذه الاحداث الخارجية، مع ترافق الاحداث الداخلية التي مرت بها المنتفق، مع ازدياد مركزية حكم وزير بغداد على ولايته وادارات حكمه، دفع المنتفقيين ان يسلكوا سلوك الموادعة والهدوء مع الدولة، منتظرين في ذلك فرصة مناسبة لتعديل عصا الموازنة التي مالت لصالح الدولة بعد مقتل الشيخ سعدون، لذلك ظلت

---

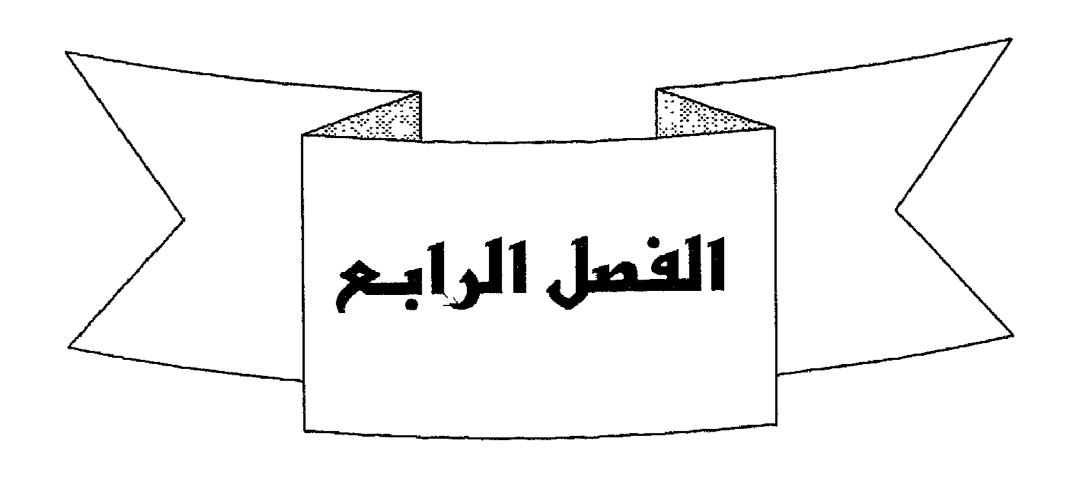
(٥٧) د. علي الوردي – مصدر سابق – ج١ – ص١٢٧ وما بعدها.

علاقة المنتفق مع احمد باشا، خلال سنينه الاخيره، مطبوعة بالمسالمة والخضوع لحكم الدولة حتى وفاة الاخير عام ١٧٤٧م بعد عودته من حملة قادها على امراء البابابيين في كردستان [٥٨].

وبوفاة احمد باشا، انقضت مرحلة من تاريخ العراق المعاصر وتطوره السياسي، تهيأت خلالها المسببات لتبدأ مرحلة اخرى من اخطر المراحل واهمها في تكوين العراق اللاحق، ولها من الاهمية ايضا الشيء الكثير في حياة وسلوك امارة المنتفق داخليا وخارجيا، ونقصد بتلك المرحلة فترة – حكم المماليك – والتي سنتعرض لتفاصيلها واحداثها في الفصل القادم.

---

(٥٨) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٥ – ص٢٨١.



المبحث الاول

١٧٤٩ - ١٧٧٩م

المماليك .... وتحرير البصرة

قبل ان ينتصف القرن الثامن عشر بعام واحد، وبعد سلسلة من الاحداث الدامية التي شهدتها بغداد من جراء تعدد الولاة الذين تبوؤا منصب الوزارة فيها، اضطرت سلطات استنبول – مجبرة – ان تصدر اوامرها بتعيين (سليمان ابو ليلة) واليا على العراق وبدرجة وزير، بعد ان وجدت ان نفوذها وقوتها داخل بغداد (مركز الوالي) ليستا بالدرجة الكافية التي تمكنها من حسم الاحداث لصالحها، مقارنة بالقوة التي يمتلكها المماليك [١].

وبتعيين – ابو ليله – ابتدأت حقبة اخرى جديدة في تاريخ العراق، ونقصد بها فترة حكم المماليك والتي استمرت اثنان وثمانون عاما – حيث شكل هذا التعيين المعيار الفاصل لتقدير موازين القوى في تلك الفترة، لأن أستيزار – ابو ليلة – استوجب على سلطات المركز، ان تتعامل معه على طريقة "الالتزام" * والتي كانت سائدة بين الولاة ورؤساء القبائل والعشائر داخل العراق، لكن هذه المرة – وتحت ضغط الاحداث – فأن مركز القرار في استنبول قد طبقها على نفسه مع احد ولاته [٢]. وبلا شك ان لهذا الاجراء معانٍ ودلالات كثيرة، ابرزها واوضحها المدى الذي وصل اليه حال العراق اثناء الحكم العثماني في تلك الفترة.

واذا كان من ملاحظة اولية على حقبة المماليك، فأنها تكمن في ان حكام العراق خلال تلك الفترة، كانوا عبيدا يشترون بالمال، الا انهم كونوا اسرة حاكمة في بلد غربتهم، خلافا لرغبة سكان البلد الاصليين وولاة السلطة العليا في استنبول، وهذا بلا شك ظاهرة غريبة تحمل من الدلالات والابعاد الشيء الكثير. كما ان

---

(١) كارل بروكلمان – تاريخ الشعوب الاسلامية – ط١ – ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي – بيروت ١٩٤٩ – ص١٥٥.

* سيجري توضيح هذا المفهوم في المكان الملائم من هذا الكتاب، وتحديدا في الفصل الخامس.

(٢) سليمان فائق – تاريخ المماليك "الكولومند" في بغداد – ترجمة محمد نجيب ارمنازي – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٦١ – ص١٨.

المماليك ليس فيهم احد يرتبط بموطن او بمطلب الا ما يستطيع ان يصنعـــه بنفســه وبحياته، وبالمصادفات، مما ترتب عليه ان تكون علاقاتهم مع مـــن حولـهم، ذات صفات مصلحية وقصيرة الاجل ومحدودة. كما لا بد ان نضيف ملاحظة اخرى لـها علاقة بهذا التكون الذي تأسست على اركانه فترة ليســت بــالقصيرة مــن تــاريخ العراق، الا وهي، ان الفضل الاساسي في هذا التكون وتثبيت اركانه، يعود بـالاصل الى حسن باشا وابنه احمد باشا، خلال تحكمهم بالعراق طيلة نصف قـــرن تقريبـــا، حينما اكثروا من شراء هؤلاء المماليك واشراكهم في الادارة والجيـــش والواجبـــات الاخرى المهمة، مقلدين في ذلك ما كان يحدث في بلاط السلطان العثماني مما اتـــاح لهؤلاء الغرباء ان يتذوقوا حلاوة الحكم وهيبة السلطة وما يتبعهما من ابهة ونفـــوذ، لذلك فقد خلفوا اسيادهم في سلطانهم، بعد ان اجبروا اســـتنبول ان تصـــادق علـــى الامر الواقع، مما اتاح لهم التسلط والتحكم على العراق طيلة وجودهم على دســـت الحكم.

بعد ان سيطر – ابو ليلة – على الاوضاع فـــي بغـــداد، وطـــرد ممثلـــي ومندوبي وولاة الباب العالي الذي ارسلوا لبغداد، والذين فشلوا في تحقيق ارادتـــهم على ارض الواقع، ازاء الشغب المنظم الذي قادته جموع الممـــاليك بوجهـــهم (٣)، اصبح من اللازم عليه ان يهندس اوضاعه واوضاع مريديه بالشكل الـــذي يضمـــن لهم السلطة الدائمة، ويبعد عنهم تدخلات استنبول اللجوجة والدائمة، ويجعـــل مـــن القبائل حملا وديعا، بدل ان تكون اداة اتعاب ومشاكسة دائمة لباشا بغـــداد ودولتـــه العلية" بشكل عام. لقي توجه ابي ليلة هذا الاسناد من ابناء المدن وبشكل خاص مـــن ابناء بغداد الذين يهمهم الاستقرار الذي افتقدوه نتيجة لحركات القبائل، لذلك فقد كـــان

---

(٣) احمد علي الصوفي – المماليك في العراق – مطبعة الاتحاد الموصل ١٩٥٢ – ص١٧.

استقبالهم له اثناء دخوله بغداد، بعد منحه "فرمان" الولاية بعد ان كان متسلما للبصرة، استقبال الفاتحين العظام [٤].

وبما ان ايالة البصرة، قد اصبحت بعهدة الوزير – ابو ليله – بحكم كونها إحدى ايالات ولاية العراق، فقد عهد بأدارتها لقبطان شط العرب مصطفى باشا وعينه متسلما هناك، تقديرا واعجابا بحسن اخلاقه وصداقته له، وللخدمات التي ابداها في سبيل المصلحة عندما كان الوزير متسلما على البصرة [٥]، لكن تلك الثقة انفرطت سريعا، حينما انتهز مصطفى باشا انشغال ابي ليله في اخماد حركات عصيان في شمال العراق عام ١٧٥٠م، واعلن العصيان في البصرة، متخذا من عشائر المنتفق اعوانا يشجعونه ويناصرونه، حيث تمكن من التسلط على تلك الانحاء، بقوة الشيخ منيخر الصقر مقدم المنتفق في حينها، والذي تمكن المتسلم من اقناعه واشراكه معه في هذا العصيان ضد حكومة بغداد. ويتضح من هذا التصرف، انها المرة الاولى والاخيرة التي كان فيها الشيخ – منيخر – ثائرا ومقاتلا ضد الدولة، عاصيا عليها بعد ان تهاون معها طيلة ايام مشيخته.

هذا العصيان عجل من تجييش العساكر نحو فاعلية للقضاء عليه واجهاضه. فقد تحصن متسلم البصرة مع جموعه في قلعة (المناوي) في حين سدت عشائر المنتفق المنافذ والمعابر، ومنعت أي احد من الوصول الى البصرة بجموعها الكثيرة والمتأهبة للقتال [٦].

وقد ارسل الوزير – ابو ليله – سكرتيره الخاص لقيادة جيشه لاخماد هذا العصيان، بعد ان تزود بالمعلومات الضرورية لحركته وحركة خصومه. وبعد

---

(٤) كارستن ينبور – مصدر سابق – ص٥٨.

(٥) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١١٢.

(٦) عباس العزاوي – تاريخ العراق بين احتلالين – ج٦ – شركة التجارة والطباعة المحدودة – بغداد ١٩٥٤ – ص٢٣.

وصوله قريبا من مواقع الثوار، اصلاها نارا حامية دفعت رجال القبائل الى الفرار، بحيث تشتت جمعهم، في حين طلب البعض منهم، الامان والعفو، اما الشيخ – منيخر – فقد فر الى البادية، وجرى عزله من رئاسة اتحاد المنتفق، التي ألت بعد هذه المواجهة الى الشيخ "بندر بن عبد العزيز بن مغامس المانع". اما المتسلم مصطفى باشا قائد التمرد والعصيان، فقد انتهت به الامور، الى الهرب نحو – بندر بوشهر – . وقد تصرف المنتصر بقسوة مع الجميع، الذين رفعو السلاح بوجه الوزير ابو ليله [٧].

لقد كانت مشيخة بندر بن عبد العزيز هادئة ومستقرة له ولعشائره من جهة، وللدولة من جهة اخرى، والسبب في تقديري، ان المنتفق وعت قسوة أبي ليله فلذلك جنبت نفسها الدخول معه في صراع، قد يؤدي بها الى المهالك، لان الحكم التركي في عهده، كان احسن ما يكون من التدبير والاطلاع التام على الامور والتنفيذ الحازم والحصول على النتائج المباشرة، على ان ذلك كان مصطنعا بالمكر لا بالحكمة، حيث كانت تعوزه المثل العليا. وكان حكم ابو ليله فاقدا لنظم الحكومات ونظرياتها الاساسية ومشوبا بكثير من الطيش وسوء الاستعمال والاجحاف، على ان حالةِ هذه، لم تؤثر في سطوته وتسلطه ومداهنة البعض له، بحيث اطلقوا عليه العديد من الالقاب المستحسنة، خاصة وانه يحكم ولاية صعبة المراس، لكن بنفس الوقت لم يظهر له عدو متمرس وقوي يستطيع ان يؤذيه بالطريقة التي يراها مناسبة له [٨]، لذلك فقد مرت سنوات مشيخة الشيخ – بندر – حتى وفاته عام ١٧٥٧م هادئة ومطبوعة بالسلام مع الدولة، وقد خلفه في رئاسة المنتفق الشيخ "عبد الله بن محمد المانع" الذي تعهد لابي ليله ان يكون وقبائله من الملتزمين بأوامر

---

(٧) المصدر السابق، ص٢٤.

(٨) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٠٣.

الدولة ومراسيمها، ولذلك ظلت المنتفق هادئة وملتزمة بتعهدها طيلة سنوات حكم – أبي ليلة – [٩].

بعد وفاة – ابو ليلة – عام ١٧٦٢م ، وتقلب احوال بغداد في الفوضى التي نتجت من الطمع الذي يعشعش في رؤوس "الكهيات السبعة" * الذين خلفهم بعده، آلت الامور عام ١٧٦٤م، الى زمام الوالي عمر باشا بعد ان استطاع تصفية اخطر منافسيه – علي باشا – اثر مؤامرة مشتركة بين بنات أبي ليله والكهيات الطامعين[١٠]. والمشهور عن هذا الوالي، انه كان شجاعا متهورا، غير ان سنوات حكمه الاولى، لا تشبه اواخرها، ففي اولى بدايات حكمه، اضطلع بواجب تهدئة القبائل سواء بالقوة ام بالسياسة، وكاد ينجح في ذلك، حيث ساعده انتشار امراض عديدة في العراق، كان اخطرها مرض الطاعون الذي اخذ يفتك بالناس فتكا مما حدد من امكانية التحرك او العصيان، الا ان سلطته اخذت بالتضاؤل كلما تقادمت سنين حكمه، اذ فقد قدرته حتى على عزل الشيوخ الرسميين، وغدت حكومته لا تأثير لها على طول امتداد نفوذ المنتفق والخزاعل وزبيد [١١].

هذا الامر، دفع الشيخ – عبد الله محمد المانع – عام ١٧٦٨م الى اعلان تمرده وعصيانه على الدولة، من خلال عدم تسديده للضرائب المستحقة على المنتفق، جراء ما اصاب "الديرة" من قحط شديد بسبب عدم نزول الامطار، وما سببه من هلاك للثروة الحيوانية والثروة الزراعية، وقد وضح شيخ مشايخ المنتفق،

---

(٩) المصدر اعلاه – ص٢٠٥.

* الكهيات السبعة: عند وفاة ابو ليلة، خلف سبعة رجال مرشحين لخلافته، يقال لهم (اصحاب الداعية) وكلهم من المماليك، وهم: عمر كهية، عبد الله كهية، اسماعيل كهية، رستم كهية، حسن كهية، محمود كهية، علي كهية، وكان كل واحد منهم يطمع بالولاية والحكم، وفيما بعد ادت اطماعهم والكراهية المتبادلة بينهم، الى تصفية بعضهم البعض.

(١٠) ينبور – مصدر سابق – ص٦٤.

(١١) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٠٩.

هذه الحالة لمتسلم البصرة، والتمس منه ايضاح الامر لوزير بغداد لاعفاء المنتفق من مستحقاتها الضرائبية لهذا السبب. الا ان المتسلم رفض هذا الرأي، وكاد يلقي القبض على الشيخ – عبد الله – لولا تقديره لخطورة مثل هذا الاجراء.

ازاء هذا الرفض، اظهرت المنتفق وحدتها وراء قائدها، حيث اخذ مقاتلوها، يتعرضون لما حول البصرة، ويرفضون اوامر متسلمها. وفشلت وساطة الشيخ "عبد الله الشاوي" بازالة سوء التفاهم الحاصل بين المتسلم وشيخ مشايخ المنتفق، بتكليف من الوالي، رغم اجتماعه بهما في مدينة الزبير [١٢]. هذا الامر دفع الوالي – عمر باشا – ان يحسمه، حينما جرد قوة عسكرية قادها بنفسه نحو البصرة للقضاء على تمرد المنتفق، ولما قاربها عسكر في مكان يسمى "ام الحنطة" وما كاد خبر مجيئه بعدته الجيدة ومقاتليه الكثيرين يبلغ مسامع المنتفقيين، حتى تفرقوا نحو بادية المنتفق خشية من الصدام غير المتكافىء [١٣].

عندما عرف الوالي بذلك، ارسل على الفور على – عبد الله بك الشاوي – رئيس عشائر "ال عبيد" ووجه اليه تهمة الخيانة في وساطته بحجة عدم دقته في نقل المعلومات للوالي وميله الى جانب المنتفق، ونفذ بهذا الشيخ الجليل حكم الاعدام في نفس مكان معسكره [١٤]. وبسلوكه هذا حكم على نفسه وعلى حكومته بالزوال، لان الاخرق الحاقد لا يصلح لقيادة الناس، لذلك كان من نتائج هذا التصرف الاخرق، انه اشعل عصيانا كبيرا قاده ولدا الشيخ الجليل في عموم الاراضي التي لعشائرهم فيها نفوذ. اما الشيخ عبد الله محمد المانع فقد اتجه مع بعض فرسانه وعسكر بالقرب من بلدة الكويت [١٥].

---

(١٢) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١٤١.

(١٣) المصدر السابق، ص١٤١.

(١٤) احمد علي الصوفي – مصدر سابق، ص٢٠.

(١٥) م. ص. مخ – رقم الملف (٣٣٧٠٤) – وقائع العراق من خلال تاريخ جودت.

بعد ان فر الشيخ – عبد الله – من امام الجيش العثماني وتفرق جمعه العسكري، اخذ الشيخ ثامر بن سعدون بن محمد المانع يدير شؤون قبائل المنتفق نيابة عن عمه وبموافقته، وبعد فترة اقره متسلم البصرة – سليمان اغا – شيخا لمشايخ المنتفق رسميا في اوائل عام ١٧٦٩م (١٦). ومن صفات الشيخ ثامر انه طويل القامة، حسن الصورة، شجاعا عاقلا، مدبرا، رؤوفا باهله ومعيته. والدته من بيت "كليب" رؤساء عشائر السراي، وبهذا يكون أي فرد من آل السعدون، ذاخئوله مع هذه الحَمولة، لان اسرة ال السعدون انحدرت من صلب ثامر هذا وبعد مزاولته لمشيخته وانقياد المنتفق له، فقد كان يتطلع وبحماسة للخروج عن طوق الحكم المملوكي المتشح بالراية العثمانية، لأنه في تقديره نظام احتلالي لارضه، اضافة الى اهمال ونهب ذلك النظام لثروات وخيرات العراق، ثم ان الوضع الوضع الاجتماعي لاغلب المماليك لا يشرف ولا يليق بصفات الرجال، وهي من اسوأ المثالب التي تستهجنها العرب عند الرجال، غير ان للامير ثامر، ثأرا شخصيا مع "الروم" الذين قتلوا والده الامير سعدون بن محمد المانع عام ١٧٤٢م بعد فشل ثورته عليهم. لذلك كانت الاوضاع العامة والخاصة لامير المنتفق تجعل منه نقيضا مع الدولة العثمانية، متحينا الفرصة المناسبة لتحقيق اهدافه ومن اجل ذلك، فقد وحد جميع ابناء عمومته من "ال شبيب" خلفه، وعمق تحالفه القبائلي بالمودة والرعاية والاهتمام بقضايا ابناء المنتفق، كما انه صاهر العديد من القبائل العربية المعروفة والمشهورة، قاصدا من ذلك ان يجعل ما يربطه معهم سندا له ولاولاده من بعده، حيث صاهر الامير ثامر كل من:

١- بني خيقان – وهم من عشائر المنتفق، وله منهم ولداه: حمود ومحمد.

٢- الشحمان – وهم رؤساء عشائر مياح من ربيعة، وله منهم اولاده: علي وصالح وناصر.

---

(١٦) ابن الغملاس – مصدر سابق – ص٦٦.

٣- ال عريعر - وهم زعماء بني خالد، امراء الاحساء، وله منهم ولده: منصور.

٤- ال زامل - وهم امراء الخرج في نجد، وله منهم ولداه: راشد وعبد الله.

٥- ال محسن - وهم "سادة" ورؤساء عشائر بني حجيم وله منهم ولده: عبد المحسن.

٦- بيت كليب - وهم رؤوساء عشائر السراي وله منهم ولده: خالد

كانت ايام الامير ثامر، خلال السنوات الست الاولى من امارته، هادئة، انشغل فيها المنتفقيون واميرهم بتقوية تحالفهم القبائلي، واجهاض كل المحاولات الهادفة لشق وحدتهم، خصوصا بعد اتضاح عدوانية الدولة "العلية" عليهم وعلى غيرهم من الامارات العراقية شبه المستقلة، مما دفعهم الى الاكثار من شراء ادوات السلاح وعدة الحرب، تحسبا من خطط ومشروعات العثمانيين ومماليكهم العدوانية. وخلال تلك الفترة، لم يدخلوا في مواجهات مسلحة الا مع امارة ربيعة عام ١٧٧٢م، حول حدود الامارتين ونفوذهما، الا ان ذلك الامر جرى تطويقه بهدوء وكياسة من قبل المراكز القيادية في كلاهما، وبما لا يشغلهما عن تطلعاتهما ودورهما في حفظ العراق من غزوات المعتدين [١٧].

وفي السنين الاخيرة لولاية - عمر باشا - ظهر نفوذ جديد في ديوان الباشا، ساهم مع الاسباب الاخرى في حلحلة الدولة وضياع هيبتها، مع ما رافق ذلك من تسيب في معالجة مصالح الناس والمجتمع، تمثل بظهور شخص فارسي يدعى "عجم محمد" استطاع بأساليب "القيادة" التي ساهمت بها شقيقتاه وامه، ان يستحوذ بها على الوالي ويكيف مصالح الدولة وفقا لما يراه ويأمر به [١٨]. وقد قدر لهذا - التافه - ان يتحكم لفترة ليست بالقصيرة بأمور العراق ومصالحه، مع هذا

---

(١٧) علي الشرفي - ذكرى......- مصدر سابق - ص٣٨.

(١٨) لونكريك - مصدر سابق - ص٢١١.

الوالي، او مع الولاة الاخرين، عانى منها العراق عموما وبغداد خصوصـــا، آلامـا ومشاكلا وتدميرا لكثير من الموارد.

في هذه الفترة، فترة سبات الوالي واستمراره على حالـــة الغيبوبـة التـي وفرها له فريق عجم محمد العائلي، كانت الجيوش الايرانية تتدفق على العراق مـن ثلاثة محاور، الاول: عن طريق شمال العراق، مستغلة التناحر الحاصل بين الافراد الطامعين والمختلفين الاهواء من الاسرة البابانية، والثاني: عـن طريـق بـدره - جصان، والثالث: المتجه نحو البصرة [١٩]. وقد استند "كريم خان الزند" * في تـبرير غزوة للعراق بالمعاملة السيئة التي يلقاها الزوار الفرس من سلطات الوالي - عمـر باشا - وابتزازه ومصادرته لاموالهم وعدم رعايته اياهم وتوفير الامن والحماية لهم [٢٠]، وهي حقائق استغلت ووظفت من قبل - الزند - المتطلع نحو العـراق، مـن خلال اطلاعه على سوء الاوضاع وانحلال الادارة في الولاية، مما يوفر لجيوشـه عوامل مساعدة في تحقيق النصر [٢١]. ومن جملة الاسباب الاخرى للغزو انتعـاش ميناء البصرة ورواج التجارة بعد تركيز جميع تجارة شركة الهند الشرقية منه، على حساب منافسته للموانيء الفارسية [٢٢].

---

(١٩) عباس العزاوي - تاريخ .... - ج٦ - مصدر سابق - ص٤٩.

* كريم خان الزند: احد القادة الذين ظهروا بعد مقتل نادر شاه، بعد ان استطاع ان يجمع حوله جيشا كبيرا، مكنه من القضاء على منافسيه على العرش الفارسي، حتى استوت له السلطة المطلقة بصفته وصيا على الشاه "اسماعيل ميرزا" والذي لم يكن يملك من السلطة شيئا. بعد وفاته عام ١٧٧٩م عادت بلاد فارس مجددا للفوضى، حتى ظهور الاسرة القاجارية فيما بعد.

(٢٠) احمد علي الصوفي - مصدر سابق - ص ٣١.

(٢١) ميرزا حسن خان - مصدر سابق - ص٢١.

(٢٢) عبد الامير محمد امين - القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر - بغداد ١٩٦٦ - ص٦٢

ما يهمنا في هذا الجانب، المحور الثالث، الذي كان هدفه البصرة، حيث قـاد هذا الجيش، وهو اكبر جيوش الغزو واضخمها قوة، شـقيق الوصـي المدعـو – صادق خان [٢٣] وقد سبقت وصول هذا الجيش دعاية منظمة من قبـل الايرانيين، بأن هدفهم البصرة، مما اوقع سكانها فريسة للخوف والهلع طيلة عـام ١٧٧٤م، دون تدخل فعلي من الدولة وسلطاتها، في حين كان الوالي مشـغولا بليـالي الانـس!!! مضافا لذلك ان المسرح الدولي كان مهيئا لهذا الغزو، حيث كانت الدولة العثمانيـة، مأخوذة بنتائج معاركها الطويلة مع روسيا القيصرية، والتي انتهت بمعاهدة (كوجـك كينارجي) [٢٤] ، والتي كانت في مجملها لصـالح الـروس، بعـد ان تنـازل لـها العثمانيون عن القرم، ورغم ذلك فان الدولة العثمانية مع تجاسر الدول الاوروبيـة على حدودها ومناطق نفوذها، لم تنشط لفعل ما يجب فعله للحفاظ على ما تبقى لـهم من اقاليم، بسبب التردي الحاصل في مجمل ادارات ونشاطات الدولـة، فـهي مـع عجزها عن تصحيح واقع الحال السيء في ولاية العراق، بعدم تمكنها مـن وضـع الرجل الجدير بتحمل المهام الصعبة، فانها كانت اعجز مـن ان ترسـل معونـات عسكرية وفعالة ازاء خطر الغزو الحاصل، لانها بالكاد كانت تلتقـط انفاسـها ازاء الضغوطات التي كانت تمارسها عليها روسيا والنمسا والمجر.

وقد كان من حسن حظ البصرة، ان يتعايش فـي وقـت ذلـك الاجتيـاح، رجلان – رغم كونهما على طرفي نقيض – قيض لهما ان يكونا بفعلـهما عنوانـا لصمود البصرة، ومن ثم لتحريرها فيما بعد، اولهما: "سليمان اغا" متسـلم البصـرة والرجل الذي شحذ همم اهلها للصمود في وجه الحصار، بعد ان اعطى من الجـهد والفعالية ما يشار اليه بالبنان، وثانيهما: " ثامر بن سعدون" امير المنتفـق والمدافـع

---

(٢٣) Parsons A. – Traveles in Asia and Africa – London 1808 – P: 162.

(٢٤) محمد فريد – مصدر سابق – ص٣٤٢.

الاول هو وقبائله بوجه الحصار، ومحرر البصرة من احتلالها بعد ذلك والذي اظهر وعشائره معنى كبيرا للشجاعة العراقية ازاء ارضهم المحتلة.

لقد كانت اوضاع البصرة من الناحية العسكرية غير جيدة، حيث لم تكن حاميتها تمتلك الجنود المدربين، الا ان همة وشجاعة متسلمها – سليمان اغا – فعلت فعلها، بعد ان تعامل بما توفر لديه من المقاتلين، الى جانب بضعة الاف من رجال العشائر العربية، اغلبهم من رجال المنتفق، رغم ان ما لديه من مدافع كان عديم الفائدة، ولم يكن من الممكن ترميم سور المدينة، وفي حشد كل القوى المتوفرة لولا بسالة وهمة وفعالية سليمان اغا [٢٥] بنفس الوقت كانت كتبه تستحث سلطات بغداد على ارسال المدد، بعد ان قدر عدم امكانيته للقاء خصمه في معركة مكشوفة، لذلك ارتأى ان يحتمي في داخل المدينة حتى وصول امدادات بغداد الا ان تلك الامدادات كانت وعودا كاذبة ازاء استمرار ليالي الانس التي وفرها فريق عجم محمد للولاة المتفسخين.

بين اذار ومنتصف نيسان ١٧٧٥م، تقدمت القوات الفارسية حتى اطبقت على البصرة بعد ان فرت القوات التي وضعها المتسلم بالقرب من مصب نهر "السويب" وعلى ضفته اليمنى وتخلت عن واجبها [٢٦]، مما اتاح للقوات الغازية ان تشق الطريق نحو البصرة [٢٧]. وقد ارسل – صادق خان – رسله الى سلطات البصرة، عارضا عليها دفع اتاوة كبيرة مقابل سلامة المدينة ومن فيها، حيث طلب "لكين" * من الروبيات لانهاء المشكلة بسلام [٢٨]، لكن المتسلم رفض تلك العروض

---

(٢٥) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص١٨٩.

(٢٦) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٥٠.

(٢٧) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٢٧.

* اللك الواحد يساوي مائة الف روبية.

(٢٨) Pansons – op. Cit – p: 167.

المهينة للاستسلام والتي كان يتقدم بها العدو [٢٩]. غير ان صادق خان لـم يستطع تَعبير اثقاله ومدافعه الى الضفة الغربية من شط العرب، لعدم امتلاكه السفن القـادرة على ذلك، مما دعاه الى انتظار وصول سفن – بني كعب [٣٠] والتي وصلتـه فيمـا بعد، وحلت له هذا الاشكال الذي كاد يفشل هدفه بعد ان وضعوا انفسهم وقواهم فـي خدمة الفرس فيما خططوا له من احتلال البصرة [٣١]. ولذلك فان وقـوف القبـائل العربية القاطنة في الساحل الشرقي من الخليج العربي الى جانب الفـرس ووضـع اساطيلهم تحت تصرفهم، هو الذي مكن من احكام الحصار حول البصرة [٣٢] وقـد سهل من وصول سفن – بني كعب – الخطوة التي اقـدم عليـها وكيـل الشـركة الانكليزية – المستر مور – حينما امر بسحب جميع سفنه وخروجها من شط العرب نحو مياه الخليج [٣٣]، مما افشل خطط الدفاع المقامة على نهر شط العرب، بحيـث اصبحت البصرة مطوقة من جميع الجهات عدا المنطقة الغربيـة المفتوحـة نحـو الصحراء.

في هذا الظرف الدقيق والمليء بشكوك الموت والتدمير التي قـد تتعـرض لها البصرة من الغزاة، تصل امدادات بغداد اليها، وهي عبارة عن مائتي انكشـاري باعتبارها طليعة للجيش القادم [٣٤]، وهو الجيش الذي لم يتزحزح خـارج اسـوار بغداد نتيجة للصراع الدائر بين الوالي والقادة الذين ارسلوا مددا له، حيث ارسـلت

---

(٢٩) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص١٩٥.

(٣٠) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٥٣.

(٣١) د. احمد مصطفى ابو حاكمة – تاريخ الكويت الحديث – ط١ – الكويت ١٩٨٤ – ص٧٨.

(٣٢) د. علاء نورس – العراق في العهد العثماني، دراسة في العلاقات السياسية ١٧٠٠–١٨٠٠ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٩ – ص٢٦٢.

(٣٣) Parsons – op Cit – P: 178.

(٣٤) ياسين خير الله العمري – الاثار ..... – مصدر سابقن ص٤٢.

استنبول ثلاثة قادة نجدة للبصرة، وهم – عبد الله باشا – الملقب بـ "اوزون" * وعبدي باشا بن سرخوس باشا ومصطفى باشا الملقب بـ "الاسبيناقجي"**. وكانت عدة هذه الجيوش لو وضعت تحت قيادة واحدة، لأمكنها ان تفعل شيئا لانقاذ البصرة. (٣٥) وبعدد ان جرت تصفية – عمر باشا وتولي – مصطفى باشا – امور الولاية، فقد اشاعوا ان الصلح قد تم بين الدولتين، وسوف لن تدخل قوات الزند – البصرة ، وقد ظهر كذب هذا الادعاء الذي كان ثمنه راس – الاسبيناخجي – ازاء كسله واهماله المتعمد لنجدة البصرة (٣٦).

في هذا الظرف يصل امير المنتفق – ثامر بن سعدون – البصرة ومعه جمع كبير من قبائله بعد ان وصلته انباء الحصار، حيث كان في الوقت الذي سبق الحصار، مع قبائله في مراعي الصحراء كعادتهم في هذا الوقت من كل سنة، وقد جاء لشكره والثناء على موقفه، متسلم البصرة وقبطان شط العرب (٣٧).

وقد اجابهم الشيخ – ثامر – بالقول، قاصدا المتسلم بالذات لما بينهما من بغظ وكراهية "لقد جئنا ندافع عن البصرة العربية، فلا حبا بالروم ولا بغظاً بالعجم" حيث كانت علاقة امير المنتفق ومتسلم البصرة – سليمان اغا – سيئة ولا توحي بالثقة ومفعمة بالكراهية، حيث سبق ايام الحصار، ان كانت مطالبات سليمان اغا، اللجوجة، لقبائل المنتفق، بضرورة تسديد الرسوم التي بذمتهم للسلطة المركزية، تثقل رجال المنتفق الذين مر بهم موسم زراعي سيء مما القى بظله في شكل

---

* اوزون: تعني الطويل

** الاسبيناخجي: أي بائع السبانخ.

(٣٥) عثمان بن سعد الوائلي البصري – مطالع السعود – تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي، دار الحكمة للطباعة – بغداد ١٩٩١ – ص٨٣.

(٣٦) عبد الرحمن السويدي – تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١٧٧٢ – ١٧٧٨م تحقيق د. عماد عبد السلام – دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٨٧ – ص٥٧.

(٣٧) ياسين العمري – غاية .... مصدر سابق – ص ١٨٧.

وطبيعة التعاون القائم بين مملوك وامارة عربية تسعى بجد نحو الابتعاد عن سلطة العثمانيين ومماليكهم، لكن هذه العلاقة المتوترة والمطبوعة بالكراهية، لم تعطل اهلى المنتفق في ان يكونوا على رأس المدافعين عن البصرة، لأنها ارضهم حتى وان كانوا ليسوا حكامها، وقد كان غيرهم قد اتكأ على الف عذر وعذر بعدم نجدة البصرة، لكن ابناء المنتفق كانوا رأس النفيضة الذي يطيب خواطر البصريين، ويعطي معنى حقيقيا لشجاعة وهمة وصبر اهل هذه الارض، حيث اخبر الامير – ثامر – متسلم البصرة، ان الصحراء تفيض بالمحاربين من رجال المنتفق لحماية البصرة [٣٨].

لذلك فما ان حل السادس عشر من نيسان ١٧٧٥م، حتى هاجم الفرس القسم الشمالي من البصرة في ليلة حالكة، وقد جربوا مدة ساعتين ان يتسلقوا السور، ولكن النجاح لم يكن حليفهم البتة، وابلى البصريون ولا سيما المنتفقيون اتباع الشيخ ثامر، بلاءا حسنا في الذود عن المدينة، خاصة وانهم كانوا يسمعون هلاهل نسائهم وصرخاتهن داعيات لهم بالتشجيع، وقد كان رجال البلد كافة مشاركين في الدفاع[٣٩] .

ونظرا لانسحاب السفن الانكليزية من شط العرب واستمرار الحصار على البصرة، راح متسلم البصرة، يجرب جميع الطرق التي تمكنه من استمرار صمود البصريين بوجه غزاتهم، بعد ان ادرك الجميع عجز وتكاسل السلطة المركزية عن نجدتهم، فيمم وجهه شطر إمام عمان مستنجدا به، فجاء اسطوله القوي، وامكست سفنه الكثيرة عنان الشط وضبطته ضد العدو عدة اشهر، وقد كان بامكان هذا الاسطول التغلب على الجيش الفارسي عند اول وصوله الى شط العرب، لأنهم لم

---

(٣٨) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٦٥.

(٣٩) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٢٨.

يكونوا على علم بمجيئه (٤٠). وقد مكن هذا الاجراء، مع ما قدمته قبـــائل المنتفــق وبني خالد، من مساعدة صميمية، في ان تصل للبصـــرة القوافـل وهــي محملــة بالامدادات التي مكنتها من ان تطيل امد صمودها بوجه الحصار (٤١). لكن اســـبابا عديدة حالت دون بقاء هذا الوضع، فاسطول امام مسقط وعمان، انسحب فيما بعـــد الى بلاده، بعد ان ارضاه الفرس بالمال والاقوات والبضائع (٤٢).

كان استمرار صمود البصريين، يعود اساسا بعد همتهم وبسالتهم الى همـــة وشجاعة متسلمهم، والى شكل العون الذي كـــان تقدمـــه المنتفــق لـــهم عســـكريا واقتصاديا، ولكن للصبر مهما امتلك المرء من شـــجاعة حـــدودا، حيـــث تعـــرض المدافعون عن البصرة الى جوع لم يقاسه احد، فأكلوا من الاضطرار جميع ما يقيت (٤٣). هذا وقد ترافق مع الجوع، تكاسل متعمد عن نجدتها من قبل السلطة المركزية، فقد كتب مصطفى باشا الوالي الجديد للعراق والذي كان يوالي الفرس خفية، نتيجـــة لما كان يتمتع به عجم محمد من نفوذ في بلاطه، الى متسلم البصرة، بـــأن "المـــدد عليكم بعيد، فأما ان تصطلحوا مع العجم على شيء، او تسلموا لهم البلد" في حيـــن اخبر مركز السلطة في استنبول، بأن الصلح قد تم مـــع الدولـــة الفارســـية ورفـــع الحصار عن البصرة (٤٤).

وامام الاحباط الذي تعرض له البصريون، ونفاد المـــؤن والذخـــائر، ومـــا يرافق ذلك من تدني الروح المعنوية للمدافعين، هذا غير الخسائر الكبيرة التي لحقت

---

(٤٠) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص١٩٥.

(٤١) لونكريك – مصدر سابق – ص ٢٣٠.

(٤٢) لوريمر – مصدر سابق – ص ١٨٦٨.

(٤٣) عبد الرحمن السويدي – تاريخ ... – مصدر سابق – ص٥٦.

(٤٤) المصدر اعلاه – ص٥٨ –٥٩.

بهم [٤٥]، اضافة الى ان استمرار الصمود يعني المزيد من المعاناة والقتل لما تبقى من اهل المدينة، ازاء الاهمال المتعمد من باشا بغداد [٤٦]. امام هذا الوضع جمع متسلم البصرة الشجاع سليمان اغا اعيان البلد ووجهائها، وتلى عليهم كتاب الوالي طالبا منهم الرأي. وبعد مناقشة مستفيضة لكافة الاحتمالات، توصل المجتمعون لقرار بأن يفاوضوا – صادق خان – بتسليم البصرة، واخذ الامان لها ولساكنيها، بعد ان يأسوا من وصول اية معونة حقيقية لنجدتهم، ... وهذا ما حصل، حيث دخلت الجيوش الغازية البصرة في اخر نهار الاربعاء من شهر صفر ١١٩٠هـ المصادف منتصف نيسان عام ١٧٧٦م [٤٧].

اما المنتفقيون، فقد استغلوا فترة الهدوء التي سبقت دخول قائد الجيوش الفارسية للبصرة والممتدة اسبوعا، وتسللوا خارجها بعد ان اتضح لديهم ان اهل البصرة ومتسلمهم قد قبلوا شروط المنتصر. اما الامير – ثامر – فقد اشاع اتباعه انه قتل، لكي يتمكن من التخلص من الاسر فاستطاع الخروج من المدينة قبل استسلامها بقليل مع ثلة من المنتفقين، متجها صوب دياره، مقدرا ان احداث الايام القادمة، تستوجب الاستعداد والتهيؤ ورصد ومراقبة حركات الفرس [٤٨].

وقد اختلفت روايات البعض حول ما حدث في البصرة، بعد دخول الجيش الفارسي فبعضها اشار الى حدوث مذابح وقتل متعمد، والاخر اشار الى هدوء الحالة [٤٩]، وتقديرنا ان أي محتل سوف تضطره الامور الى اظهار نوع من

---

(٤٥) ياسين العمري – غاية... – مصدر سابق – ص١٨٦.

(٤٦) د. علاء نورس – العراق – ... مصدر سابق – ص٢٧٣.

(٤٧) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٣٠

(٤٨) م. ص. مخ – رقم الملف (٣٣٧٠٤) وقائع العراق من خلال تاريخ جودت.

(٤٩) لغرض الاستزادة في هذا الجانب يراجع: ابن الغملاس – ولاة البصرة، عثمان بن سند – مطالع السعود، محمد خليفة النبهاني – التحفة النبهانية، عثمان بن بشر – تاريخ نجد... وغيرها الكثير من المصادر.

القسوة والقوة لغرض احلال الامن في الارض التي احتلها من اجل هيبة الحكم، وبنفس الوقت فأنه لا يتردد عن الفعل الحسن لكسب على الاقل هدوء السكان وعدم اخلالهم بالامن.

لقد كان احتلال البصرة امتحانا ومحنة للدولة العثمانية اولا، والتي اظهرت عجزها وتقاعسها على اجبار المحتل على مغادرة اراض تدعي بعائديها لها، وثانيا: ان هذا الاحتلال قد وقع بكامل ثقله على امارة المنتفق دون غيرها من العراقيين، فالخزاعل كانوا يجلون فرمانات الخان (المقصود صادق خان) ولا يخضعون لها قلبيا، ولم يتأثر البو محمد وبني لام من احتلال البصرة، في حين انسحب بنو خالد الى واحاتهم في الاحساء [٥٠].

كما ان احتلال البصرة، قد حرم المنتفق من مركز حيوي يحتاجون اليه في حياتهم، الامر الذي دفعهم الى ايقاظ اقصى حواسهم لمراقبة خطط ومشاريع المحتل نحوهم، خصوصا وان نفوذ الفرس لم يتجاوز البصرة وبعض بساتينها، حتى ان مدينة الزبير كانت غير خاضعة لهم، الامر الذي قد يدفعهم للتفكير بزيادة مساحة نفوذهم من خلال التوسع شمالا، هذه الحالة دفعت بالمنتفق الى الارتحال صوب واحات منطقة الاحساء الخاضعة لبني خالد، فوقعت معركة "الرضيمة" بين الطرفين عام ١٧٧٧م لاسباب نجهلها، اسفرت عن احتلالهم لمدينة الاحساء، ثم غادروها بعد ان توصل الطرفان الى تفاهم واحلال الوئام بينهما [٥١]. وكانت هذه المعركة اولى ايام – حمود الثامر – فأنبأ ذلك بظهور شخصية مستقبلية ستطبع بصماتها على احداث العراق الجنوبي لفترة تمتد اربعين عاما.

لقد كان لسقوط البصرة، صدى قويا في استنبول، الامر الذي استوجب اجتماع المجلس العام للدولة، والذي لا يعقد الا في الاوقات العصيبة، حيث قرر

---

(٥٠) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٣١.

(٥١) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٢٢١.

المجلس اعلان الحرب على بلاد فارس [٥٢]، وصدرت فتوى بذلك من دار المشيخة الاسلامية، الا ان تلك الحماسة وذلك التأثر بقي حبرا على ورق، وظلت البصرة محتلة والدولة لاهية عنها، الامر الذي جعل اثر وثقل ذلك الاحتلال يقع على المنتفق لوحدها، حيث انشغل الامير – ثامر – بوضع الخطط وحبكها لتحرير البصرة [٥٣]. وقد ترافقت هذه الهمة عند المنتفق بنية مماثلة عند المحتلين للبصرة، حينما فكروا ان القضاء على المنتفق سيجعل من يدهم طليقة في كامل العراق الجنوبي، لان المنتفقين فرسان تلك الناحية وحماة تلك البراري، وهم القوة الوحيدة المعادلة للجيش الفارسي[٥٤]. لذلك أنذر صادق خان، أمير المنتفق وطلب منه أن ينزل على طاعته ويذعن لأوامره، لكن المنتفق رفضت هذه الطلبات واستعدت للمنازلة[٥٥]، الأمر الذي دفع الخان، لتجييش قوة بقيادة علي محمد خان متألفة من ستة آلاف فارس وثلاثة آلاف من المشاة مع ثمانية عشر زورقاً نهرياً تحمل المدافع[٥٦].

أزاء هذه الأخطار، قررت المنتفق أن تتصدى وتظهر صلابتها أمام المقابل، خصوصاً، بعد أن ظهر لها ان مركز السلطة غير مهتم بما يحدث في البصرة، ومشغول بالحروب الداخلية بين المتنافسين على باشوية بغداد، لذلك استحسن الأمير ثامر، منطقة "الفضلية" ساحةً لميدان المعركة، لأن هذه المنطقة محصورة بين نهر الغراف شرقاً وهور الحمار جنوباً وجنوباً غربياً والصحراء غرباً، وهي أقرب ما تكون لشبه جزيرة، كما أنه رتب مكيدة ناجحة، حينما أغرق منطقة المعركة بالماء، ثم عاد فبزلها، فأصبحت الأرض رخوة طينية ومعيقة

(٥٢) احمد علي الصوفي – مصدر سابق – ص٣٨.
(٥٣) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٣٢.
(٥٤) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٨٧.
(٥٥) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١٦٧.
(٥٦) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٣٢.

للحركة السريعة. أما قواته البالغة ستة آلاف مقاتل فقسمها إلى اربعة أقسام، واضعاً في مقدمتها خيرة قادته وشجعانه من أمثال – ثويني العبد الله ومحمد العبد العزيز وحمود الثامر وأناط بشجعان المنتفق ومقاتليها مصيرهم ومصير العراق الجنوبي كله.

وما أن بدأت المعركة بين الطرفين، رغم فارق العدد والعدة، حتى شبك المنتفقيون أيديهم مع أيدي أميرهم دفاعاً عن الأرض والعرض، مظهرين من الشجاعة السخية والثبات البطولي، ما تغنت به الأجيال، وأوضحوا بجلاء، ان الإيرانيين أقل ثباتاً على سروجهم حينما يلتقون بالرجال الفرسان، حيث أثار الأمير ثامر، النخوة والحماسة في نفوس رجاله الذين أقسموا له بالقتال حتى النفس الأخير(٥٧)، كما أظهرت هذه المعركة فهم أهل المنتفق بوضع الخطط الحربية المتكاملة، حينما قاتلوا الجيش الفارسي في البر وفي النهر، وأنزلوا به الضربة القاصمة(٥٨).

وقد كان لإختيار ميدان المعركة، أثره في إنزال الهزيمة بالجيش الغازي، حيث كان المنتفقيون بإنتظارهم حسب الخطة التي وضعوها، ثم أكملوا فيهم القتل حتى أبادوهم عن آخرهم، وكان بين القتلى علي محمد خان نفسه(٥٩). لقد أبيد الجيش الفارسي الغازي بكاملة سوى أفراد قلائل عادوا للبصرة يشرحون برعب ما حدث لهم على أيدي رجال المنتفق(٦٠).

---

(٥٧) أحمد علي الصوفي – مصدر سابق – ص ٥٢.

(٥٨) علي الشرقي – الألواح .... – مصدر سابق – ص٥٦.

(٥٩) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٧٤.

(٦٠) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١٦٧.

بعد أن أوغل المنتفقيون بالغزاة قتلا على مدار ثلاثة أيام حتى أفنوهم، فإنهم إحتاجوا فيما بعد لأسابيع كثيرة، لتنظيف ميدان المعركة من الجثث وعدد الجيش[٦١].

كما غنموا أسلحة وادوات الجيش الغازي وأمواله وثيابه، ولم يكن بعيداً عن الحقيقة قول القائل عن أهل المنتفق بعد هذه المعركة:

لله در عصابةٍ	عربيةٍ صدمت أعاجم
بالسمر تعطف والمهنـ	دة المحددة الصوارم
الكاشفون الحرب بالخطـ	ار والبيض المخادم
ومصاليم الا تقلـ	دة شبيبي ضبارم[٦٢]

ولقد أوضح الأمير ثامر، طبيعة هذا النصر وحقائقه، بأنه عائد لبركات السماء لرجال المنتفق[٦٣] وظلت هذه الموقعة وآثارها، موضع فخرٍ للجميع على مدار جيلٍ كامل.

هذه المعركة، بالنتائج التي ألت إليها، جمدت إلى حدٍ كبير نيات التوسع التي كانت تسعى إليها القيادة الفارسية، وجعلتها تفكر بالاحتفاظ بما في يدها، بعد أن لمست حجم وفعالية القوة المقابلة لها. بنفس الوقت فإن هذه المعركة قد عززت من معنويات وآمال المنتفقيين لتحرير البصرة، بعد أن إتضح لهم حجم المبالغة بقوة وشجاعة الجيش الفارسي، وبعد أن تيقنوا أن الدولة العثمانية عاجزة عن إخراج الفرس من البصرة، رغم ما أرسلته من جيوش وأموال (ظلت مرابطة عند حدود أطماعها في الصراع الدائر في بغداد)، كما بان لديهم ضعف إرادة الدولة وغبائها

---

(٦١) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٣٢.

(٦٢) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٨٨.

(٦٣) عباس العزاوي – تاريخ ... ... ج٦ – مصدر سابق – ص٨٠.

في إدارتها لمثل هذا الصراع، الأمر الذي دفع طاقات المنتفقيين إلى إقصاهـــا مـــن أجل تحرير البصرة[٦٤].

هذا الوضع أفرز معادلة طرفاها متناقضين حتى فـــي حيثياتـــهم، الطـــرف الأول: الفرس، قوة سالبة منهارة المعنويات، وطرفها الثاني: المنتفق، قوة إيجابيـــة ذات زخم اندفاعي هائل، مثل هذا التوازن القلق والمقلق للطرفيـــن، يحتـــم قطعـــا الإحتكام مجددا إلى قوة الإرادة والشجاعة لمستوجبات الحسم، وهذا ما حصل، حيث عزز صادق خان، حامية البصرة بقوات كثيرة جلبها من شـــيراز بعـــد أن ســـلحها تسليحا جيدا، واسندها بقوات من "بني كعب" وعشائر "الكثير"[٦٥]. أما الأمير ثـــامر، فقد استعد لقتالهم مرة أخرى، بعد أن زوده النصر السابق بشحنة مـــن المعنويـــات والأفكار، لذلك حشد قواته نحو البصـــرة طالبـــا مـــن محتليـــها مغادرتـــها، ولأن الإرادتين متقاطعتان، كان لابد أن يقع الصدام، خصوصا وأن البصريين، قد ظلـــت آمالهم معلقة على ما تحققه المنتفق من إنجازات من اجل التحرير.

قومٌ إذا سمعوا الصريخ رأيتهم

ما بين ملجم مهرهِ أو سافعِ

من كل أشيب عظه ناب الوغى

ومناهدٍ صعب الشكيمةِ يافعِ[٦٦]

ولذلك وقع الصدام في الموقع المعروف بـــ "أبي حلانة" في أوائل آذار عـــام ١٧٧٩م، ومن جديد قدمت المنتفق ألوانا جديدة من الشجاعة والإقدام، بحيـــث أنـــها

---

(٦٤) عبد الرحمن السويدي – تاريخ .... – مصدر سابق – ص٧٠-٧١.

(٦٥) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – ص٨٠.

(٦٦) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٨٩.

تنادت "أفلح من طعن وضرب، فمن نكص على عقبه فليس هـو ابنـاً لأبيـه"[٦٧]. وكانت هذه الواقعة، هي السبب في تقصير همة الفرس عن التوغـل فـي العـراق والتفكير الجدي في الانسحاب من البصرة بأقل الخسائر الممكنة[٦٨].

بعد النصر، ضيقت قوات المنتفق الحصار حول البصـرة، بحيـث كـانت القوات الفارسية في ضيقٍ شديد من هذا الحصار، كما أنها رفضت أي مفاوضـة أو مساومة مع المحتل قبل إنسحابة من البصرة[٦٩]. لذلك فما أن وصلت أنباء المعركـة الأخيرة لشيراز، حتى يتوفى الوصي – كريم خان الزند– في السابع عشر مـن آذار ١٧٧٩م، فيجمع صادق خان ما تبقى من قواته، وينسحب فـراراً وخوفـاً مـن أن تجتاحه المنتفق في داخل البصرة، والتي غادرهـا مرعوبـاً دون أن يلـوى علـى شيء[٧٠].

بعد هروب الجيش الفارسي من البصرة، تدخلها المنتفق محررةً آخر مواقـع الإحتلال البغيظ منها، بعد أن وقفت له سداً محكماً وجرعته علقم الهزائم التي دفعـت به للهروب[٧١]. وقد ترافق مع إنجاز التحرير، الذي حققته المنتفق، أنها أمنت النـلس والسبل وبدأت بنشر القانون[٧٢]. وبينما كانت بغداد تعيش فوضى مدمرة وحـروب داخلية بين الولاة المتنافسين، كانت البصرة تتغنى بانتصارات المنتفق علـى جيـش الإحتلال الفارسي[٧٣].

---

(٦٧) المصدر أعلاه – ص٩٢.
(٦٨) النبهاني – مصدر سابق – ص٣٢٢.
(٦٩) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٣٢.
(٧٠) المصدر اعلاه – ص٢٣٣.
(٧١) علي الشرقي – الألواح .... – مصدر سابق – ص٥٦.
(٧٢) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٧٩.
(٧٣) علاء كاظم نورس – حكم .... – مصدر سابق – ص٤٢ – ٤٣.

وبسيطرة المنتفق على البصرة، بعثت الدولة العثمانية -نعمان آغا- متسلما جديدا عليها، على أن لا يخالف أي عمل يصدر عن محررها، الأمير ثامر، ولا أدري لماذا قبل ثامر والمنتفق ذلك المندوب العثماني في البصرة، وهو العارف بوضع وضعف السلطة العثمانية، خصوصا وأن تقصيرها وكسلها بعدم المساعدة في إنجاز التحرير، قد أصبح معروفا للجميع. وتقديري أنه قصر نظر، كان الأولى بالمنتفق وأميرها أن لا تفعله.

وبعد تسريح سليمان آغا متسلم البصرة أثناء الحصار من الأسر في شيراز، توجه نحو الحويزة بقصد دخول البصرة، إلا أن الشيخ ثامر، منعه من دخولها[٧٤]، مؤكدا بذلك أن كلمة المنتفق هي النافذة في هذا الإقليم، ولم يستطع والي العراق أن يغير من هذا الأمر شيئا، بسبب سيطرة المنتفق الكاملة على البصرة، ودورها البطولي في تحريرها من المحتلين الفرس، مضافا لذلك أن محبة البصريين لمحرريهم، كانت واضحة وصادقة وحقيقية، وهذا يعني صعوبة للسلطة المركزية في تغيير واقع الحال على ارض الإقليم الذي يمتد عليه نفوذ المنتفق. في حين ظل سليمان آغا في الحويزة يخط رسائل لولاة الأمر في إستنبول، عارضا فيها طاعته وخدمته وما لاقاه من أذى في الأسر[٧٥]، لكن وقائع القوة والنفوذ في منطقة الأحداث، جعلته يترقب ما تأتي به الأيام لعجزه عن القيام بما يعاكس إرادة المنتفق في البصرة.

لكن ذلك النفوذ وتلك القوة التي منعت الدولة العثمانية من مجابهتها في البصرة بالطريق المباشر، لم تعدم أن تعالجها بإسلوب وبشكل آخر، حينما حركت الضغائن بين الخزاعل والمنتفق، حول حدود "ديرة" كل منهما، فأرسلت لهما مندوبا مزدوجا، أخبر كلاهما بما يناقض حقائق الموقف، وتحديدا حول عائدية حاظرة

---

(٧٤) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – ص٨١.

(٧٥) أحمد علي الصوفي – مصدر سابق ص٥٣.

-السماوة- التي هي في الأصل تعود للمنتفق، إلا أنها في ذلك الوقت كانت تحت سيطرة الخزاعل، بعد إنتصارهم على المنتفق في معركة جرت بينهما عام ١٧٠٣م ولأن مواضع الشكوك المتبادلة قد تثور في لحظةٍ ما، بما لا يتوافق والمنطق، خصوصاً وأن المنتفق عالجت هذا الأمر بغرور شديد، لأن إنتصاراتهم على الفرس ما زالت طرية، لذلك غادر الأمير ثامر، وجيشه نحو الخزاعل، بعد أن إتضح لديه وصول الطرفين إلى طريقٍ مسدود، فوقعت معركة "العرجا" في تشرين الثاني عام ١٧٧٩م، والتي استمرت ثلاثة ايام أخذت من الطرفين، آلافاً عديدة من خيرة مقاتليهما[٧٦]، كان أبرزهم الشيخ ثامر بن سعدون، شيخ مشايخ المنتفق وأميرها[٧٧]، الذي قتل وحز رأسه وقدم هديةً لشيخ الخزاعل "حمد الحمود". كما حصل الخزاعل على غنائم عديدة، واسروا جماعة من وجوه المنتفق، أبرزهم - حمود بن ثامر بن سعدون - الذي ستكون له قصة قادمة مع الخزاعل، ثأراً للمنتفق ولوالده ولأسره ولحاظرة السماوة.

وقد بالغ الخزاعل في إرضاء حقدهم من المنتفق، فقدموا للأسرى عشاءً، هو عبارة عن صحن من الرز المطبوخ، ووضعوا فوقه رأس أميرهم ثامر، وقد لوث بدمائه الرز، فاشمأزت النفوس من تلك المعاملة الجافية وجزعوا من هول المنظر، إلا حمود بن ثامر ولد الأمير المقتول[٧٨]، فإنه تقدم برباطة جأش وتعمد أن يأكل مما تحت الرأس الملوث بالدم، ولأنه وجد نفسه وحيداً على مائدة العشاء "الكريمة" فقد التفت إلى الأسرى الآخرين قائلاً لهم: "كلو عشاكم، شيخ مات ورأي فات"[٧٩] ثم رفع رأس والده ووضعه في حجره فهال الخزاعل ذلك المنظر وتلك

---

(٧٦) حمود الساعدي - مصدر سابق - ص٤٧.

(٧٧) عثمان بن سند - مصدر سابق - ١٤١.

(٧٨) حمد الساعدي - مصدر سابق - ص٤٧.

(٧٩) مخطوطة المؤلف "حكايات عن المنفق".

النفس القوية وتخوفوا من مغبة -حمود- أن إمتلك يوماً القـوة ونـاجز الخزاعـل، وأرادوا قتله تخلصاً من شره، لكن عادات العرب عادت إلـى أذهانـهم فـي تلـك اللحظة، فتخلص من القتل(٨٠)، والمشهور عند المنتفق أن من أشار بقتل -حمـود- هو صـاحب الجمـس -علـي الصويـح- والـد الشـاعرة الشـعبية المعروفـة - فدعة -.

والغريب في هذه المعاملة السيئة للأمير القتيل وللأسـرى، أنـها جـاءت بوجود حمد الحمود الشخصية الرزينة والشجاعة، والذي لم يجد من يأويه هو وأبيـه بعد تدمير الوالي -عمر باشا- مدينتهم "لملوم"* عام ١٧٦٩م، وطلبه إياهم في كـل مكان، إلا أهل المنتفق بعد أن هربا إليهم، طالبين منهم الحماية والعون، وقد حصـلا عليها، وجرى أكرامهما وحمايتهما(٨١). وقد قتل الأمير ثامر، عـن عمـرٍ ينـاهز الخمسين عاماً، ومن سلالته ظهرت أسرة ال السعدون، واصبحت لقب جميع الأسرة بما فيهم إخوتهم وابناء عمومتهم من آل شبيب.

---

(٨٠) علي الشرقي - ذكرى .... - مصدر سابق - ص٣٣.

* لملوم: المدينة التي إتخذها الخزاعل حاضرة لمشيختهم.

(٨١) جعفر الخياط - مصدر سابق - ص١٦٤.

المبحث الثاني

١٧٧٩ – ١٨٣١م

أغليوّين .... وبادية المنتفق

آلت إمارة المنتفق بعد مقتل أميرها ثامر بن سعدون، إلى أخيه من أمه وابن عمه، الشيخ، "ثويني بن عبد الله بن محمد بن مانع السخاء بن شبيب الثاني بن الشريف حسن". ومن صفاته أنه كان وسط القامة، مربوعاً أبيض اللون، قوي البنية، يمتاز بالهمة العالية والعزم المتين، قليل الحديث، عنيداً جلداً، له مطامح لا حد لها، فما حدثته نفسه بشيء إلا وأقدم عليه قبل فوات الفرصة، شجاعاً جريئاً ظهر معدنهما في كل المواقع التي اشترك فيها[1]، فساهم في العصيان الذي قام به والده ضد الدولة العثمانية عام ١٧٦٨م، كما كان الساعد الأيمن في جميع حركات ومواجهات الأمير ثامر وساهم مساهمة فعالة في تحرير البصرة من قيد الإحتلال الفارسي، وكان يحب العرب والعروبة ويكره الترك والفرس، ويتمنى ان يكون الحكم للعرب[2]، وكان أول عمل قام به عند توليته المشيخة، أنه سمح لمتسلم البصرة -سليمان آغا- بالعودة إليها، مع التأكيد له بالعون والمساعدة في كل أنشطته، لما بين الإثنين من معرفة سابقة[3]، بعد ان كان سلفه ثامر بن سعدون، يرفض دخوله.

بعد دخول المتسلم للبصرة، راسل السلطات العليا في استنبول، طالباً منها ولاية العراق، مستنداً في ذلك على ركنين، أولهما: قوة المنتفق التي تأمر عليها صديقه -ثويني- وثانيهما: دعم المستر لاتوش Latouche المقيم البريطاني في البصرة لمساعيه في هذا الجانب[4]، لأنه وجد فيه رجل الساعة الذي يمكن المراهنة عليه مستقبلاً بما يخدم المصالح البريطانية وينميها. وقد تحقق له مطلبه في شوال

---

(١) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٢١٣.

(٢) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص٢٠٩.

(٣) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – مصدر سابق – ص٨١.

(٤) علاء كاظم نورس – حكم .... – مصدر سابق – ص٤٤.

١١٩٣هـ الموافق في كانون الثاني ١٧٨٠م، بعد أن وضعت الدولة فيه ثقتها كرجل للمرحلة القادمة، ومنحته رتبة الباشوية بدرجة مير مران.

وقد رتب سليمان باشا أوضاع البصرة، وغادرها متجها نحو بغداد بحماية وقوة المنتفقيين بقيادة أميرهم -ثويني-[٥]. وعند وصوله إلى السماوة، استقبله الشيخ -حمد الحمود- رئيس عشائر الخزاعل، استقبالا لائقا، وقدم له الهدايا والطاعة. وقد التقى ثويني العبد الله وحمد الحمود، وبحضور الوزير الذي صالحهما وأزال أسباب البغضاء بين العميرتين. ويستعيب اهل المنتفق ما حدث خصوصا وأن أميرهم السابق والمقتول بيد الخزاعل، هو أخ للشيخ ثويني. وقد كان أولاد الأمير ثامر أكثر الناس ألما وحساسية مما جرى في ذلك اللقاء، وبتقديري ان تصرف الشيخ ثويني في المصالحة مع الخزاعل، كان إجراء سليما يستجيب لما يطمح به في إبعاد الأجنبي عن أرض العرب، هذا غير أنه جنب الطرفين دماء هما بحاجة إليها في المواجهات ضد الأجانب والغرباء، إلا أن تصرف الشيخ ثويني، لم يفهم على حقائقه من قبل بعض أبناء المنتفق، مما أدى لاحقا إلى سهولة الإنشقاق الداخلي في المواقع القيادية لإمارة المنتفق.

إتجه الوزير سليمان باشا لمركز حكمه في بغداد، في حين عاد الشيخ ثويني، إلى ديار المنتفق حيث أخذ يزاول عمله كشيخ مشايخ عليها، مؤيدا من قبل صديقه الحميم وزير بغداد، وحاصلا على ولاء ومحبة أغلبية رجال المنتفق، هذا غير هيبته وشخصيته النافذة اللتين قدرتهما القوى المحلية الأخرى، بما أعطى للمنتفق هيبة ونفوذا يخشاها الجميع.

وقد ظل الشيخ ثويني، على ولائه لصديقه وزير بغداد طيلة السنوات الست الأولى من إمارته، ولم يدخل خلال تلك الفترة في مواجهة إلا مع عشائر "بني

---

(٥) لونكريك - مصدر سابق - ص ٢٣٥.

كعب" الساكنة في منطقة الأحواز، أثر تسللهم لمناطق نفوذ المنتفق، والتقى بهم في معركة سميت بيوم "دبي"

استطاع فيه أن يلحق بهم الهزيمة(٦). كما كان له يوم آخر معروف باسم يوم، "ضجعة" مع قبائل بني خالد عام ١٧٨٦م، حينما استطاع أن يخضع الإحساء لحكم المنتفق(٧). ومن أيامه المشهورة يوم "التنومة" في العام ذاته، حينما افتتح منطقة العارض في نجد، وحاصر عاصمة السعوديين في "الدرعية" ودكها بالمدفعية المرافقة له، بعد أن قاد عشائره في انتصارات متلاحقة ضد قوى الإمارة السعودية، وكاد يفتتح عاصمتهم لولا وصول أخبار لديه بتوتر الوضع في العراق بين العرب والمماليك(٨).

لقد كان استيلاء سليمان باشا على دست الحكم في بغداد، يمثل العصر الذهبي لفترة حكم المماليك(٩)، والذي أخذ يكثر من شراء المماليك ويدربهم على السلطة وقيادة الجيوش، بنفس الوقت فإنه أخذ يبعد العرب عن مواقع المسؤولية ويوقع بهم أقسى العقوبات، بحيث كاد العراق أن يفقد شخصيته العربية، أمام إتساع الأوضاع الشاذة التي عمقها الحكم المملوكي. هذه الأوضاع العراقية المتسمة بالاكفهرار والقسوة، أخذت تؤلم الجميع، خصوصا بعد أن أصبحت باشوية بغداد ليست بالصعبة على راقص مثل عجم محمد، او وغد مغامر مثل بكر صوباشي وأمثالهما، لذلك كان من حسن حظ العراق أن يتواجد في فترة سليمان باشا، ثلاث شخصيات، قدر لها ان تقود لواء المعارضة والثورة العربية ضد الأوضاع الغير طبيعية التي يعيشها العراق، الأول (سليمان بك بن عبد الله بك الشاوي الحميري)

---

(٦) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٢١٤.

(٧) المصدر أعلاه – ص٢١٦.

(٨) فاسيلييف – تاريخ العربية السعودية – دار التقدم – موسكو ١٩٨٦ – ص١٠٦.

(٩) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٣٦.

شيخ عشائر "آل عبيد" والذي يوصف بأنه من أفراد الدهر عقلا وحلما وكرامة وشجاعة[١٠]، والثاني: (تويني بن عبد الله بن محمد المانع) أمير المنتفق، والذي يوصف بأنه المع أمراء العرب، والذي تخضع لحكمه الضفة اليمنى من نهر الفرات من حدوده مع مشيخة الخزاعل إلى الفاو، والذي ثار علانية ضد الحكومة بعد أن التف حولة العرب، وبرهن على أنه خصم عنيد للحكومة، وآمر قدير ومحبوب ومحترم من قبل عشائره[١١]، والثالث (حمد بن حمود بن عباس بن محمد الخزعلي) شيخ الخزاعل، والثائر الدائم على السلطة العثمانية ورجل الشجاعة والهمة، وصاحب الكلمة النافذة في الفرات الأوسط وما حولها[١٢].

إتفاق هذه الشخصيات الثلاث على الثورة، بسبب تسلط المماليك وتردي أوضاع الناس، يمكن أن يوصف بأنه محاولة جريئة وجسورة للعراقيين ضد التسلط الأجنبي، لأن ما حدث شكل أخطر ثورة عربية قامت في وجه حكومة المماليك[١٣]. وقد كانت هذه الثورة زلزالا صدع أركان المملوكي، وكاد أن يقضي عليه لو تعاملت سلطات إستنبول مع هذه الثورة بالطريق السياسي بعيدا عن طريق العنف والقمع العسكري.

لقد كانت بداية هذه الثورة، ممارسات الوالي وكهبته ضد العرب، والتي استهجنها ورفضها – باب العرب* الشيخ سليمان الشاوي، والذي وجد أن خير طريق لإفشال هذه الأفعال، هو خلق تحالف ذي فعل حقيقي يجمع (آل عبيد

---

(١٠) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص١٧٢.

(١١) الرحالة الإنكليزي جاكسون – مشاهدات بريطاني عن العراق – ترجمة سليم طه– مطبعة الأسواق التجارية– بغداد (بدون تاريخ) – ص٤٥ – ٤٦.

(١٢) حمود الساعدي – مصدر سابق – ص٤٢.

(١٣) أحمد علي الصوفي – مصدر سابق – ص٦٣.

* باب العرب: منصب استحدثه الوالي سليمان الكبير، يتخصص بمعالجة أوضاع القبائل العربية في ولاية العراق. وكان الشاوي يشغله طيلة وجوده.

والمنتفق والخزاعل) يسلك طريق الثورة والعنف بوجه المماليك أزاء ممارساتهم وأفعالهم التي اوقعت الضرر بالعرب وبالإقليم العراقي خصوصا وأن الضرائب قد أثقلت عاتق جميع عشائر العراق وسكانه، هذا غير أن المواسم الزراعية الجدبة قد تعددت سنينها. كما أن القادة استشعروا – وكان الشاوي أكثر زملائه متابعة ومراجعة لتطورات المسرح الدولي– إن اللحظة المناسبة للإستقلال قد حانت، خصوصا وان الدولة العثمانية كانت في تراجع عسكري دائم أمام إنتصارات القوى الأوروبية عليها(١٤)، مضافا لذلك أن ما مر به الأقطاب الثلاثة من شبه استقلال عن السلطة المركزية، كان واضحا. فالخزاعل لا يربطها بمركز الولاية غير مناسبة دفع الضرائب، وكذلك آل عبيد ومثلها المنتفق والتي استطاعت أن تستقل بالبصرة ولمرتين ١٦٩٤ – ١٦٩٨م و ١٧٠٥ – ١٧٠٨م، فلماذا لا تتكرر التجربة وعلى الأوسع؟ لذلك ما أن التحق سليمان بك الشاوي بامير المنتفق، حتى كتبا إلى حمد الحمود كتابا يوضحان له فيه أحوال العراق ونيتهما على الثورة(١٥).

وقد كان إتفاق الأقطاب الثلاثة، إدراك سليم للواقع السياسي الذي كان سائدا آنذاك والزاخر بالآلام من قبل الحكم المملوكي(١٦)، وقد لاحظ القنصل الأمريكي العام في بيروت، أن السلطات العثمانية لا تستطيع السيطرة على العراق شهرا واحدا، إذا ما إتحدت القبائل العربية تحت قيادة زعيم واحد، ولذلك لجأت إلى المكائد لإحداث إنشقاق ليس بين القبائل الكبيرة فقط، بل وداخل فروع القبيلة الواحدة، ونادرا ما كانت تفشل في تلك المكائد(١٧).

---

(١٤) محمد فريد – مصدر سابق – ص٣٩٧.

(١٥) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – ص١٠٠.

(١٦) ياسين العمري – غاية ...... – مصدر سابق – ص١٩٠.

(١٧) د. خالد السعدون – مصدر سابق – ص٤٨.

ما أن تم الإتفاق، حتى سار الشيخ ثويني محاطا بالقوات المنتفقيـــة، حتـــى دخل البصرة في السادس من أيار عام ١٧٨٧م مستوليا في الوقـــت نفســه علـــى الأسطول دون حوادث عنف، مع تأكيد ثويني لقواتـــه بضـــرورة إحـــترام الملكيـــة إحتراما كاملا، كما جرى القاء القبض على المتسلم إبراهيم أفنــــدي الـــذي وضـــع بسفينه وشحن إلى مسقط[١٨]. وبدخول القوات المنتفقية للبصـــرة عـــادت حكومتـــها عربية قبلية[١٩]. وقد رافق إظهار القوة العسكرية للحلفاء الثلاثة، أنهم لـــم يـــهملوا الطريق السياسي، لذلك كتب الشيخ ثويني، لإستنبول مضبطه وشـــحها بامضــاءات وجوه البصرة وهم مذعورون، طالباً الموافقة على الإجراءات التي قام بـــها نظـــراً لإضطراب الامور وعدم إستتبابها على عهد من سبقوه، ووعد أن يكـــون خاضعـــاً للسلطات بشرط تعيينه باشا على بغداد والبصرة معاً[٢٠]. وبنفس الوقت فقـــد كـــان تقدير الحلفاء الثلاثة، ان الرد القادم من استنبول سيكون سلبياً مهما حوت عريضـــة الطلب من جمل واستعارات بلاغية هادفة، لذلك غادر ثويني بقواته البصرة، وخيـــم على نهر الفرات، منتظراً الجيش المملوكي المتوقع قدومه بين لحظةٍ وأخرى مـــن بغداد[٢١].

لقد رأى سليمان باشا، ومماليكه، آثار خطورة اتساع واستمرار هذه الثـــورة لأنه قدر – وكان تقديره سليماً– إنه لو تمكنت هذه الثورة من النجاح، فمعنى ذلـــك ليس ضياع حكم المماليك لوحده، إنما هو استقلال العراق عـــن الحكـــم العثمـــاني بالكامل، وعليه فقد كانت أوامره لمماليكه ولجيشه بضـــرورةِ الاســـتعداد والتـــأهب

(١٨) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١٨٦.

(١٩) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٤٥.

(٢٠) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٨٥.

(٢١) د. عبد العزيز سليمان نوار – داود باشا– دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٨– ص٣٦.

لحسم هذه الثورة عن طريق القوة العسكرية، في حين كانت رسائله لإستنبول توضح مدى خطورة هذه الثورة على الدولة والآثار المترتبة في حالة نجاحها[٢٢].

أما رد إستنبول على ما حدث، فقد كاد السلطان ان يعدم مفتي البصرة الذي حمل المضبطة التي ارسلها له الشيخ ثويني، لولا هروبه ليلا، بنفس الوقت كتب لوزير بغداد، كتابا قال فيه "أنه سيكون مسرورا لو أرسل رأس ذلك المتمرد إلى القسطنطينية"[٢٣]، في حين كان رأي وزراء ومستشاري الباب العالي، حين استشيروا بما حدث، رفض تلك المضبطة وما حوته، لأن ثويني عبارة "عن اعرابي متغلب"[٢٤].

لذلك حشد سليمان باشا، كل ما قدر عليه من قوى واردافها بقوات الأكراد من ال بابان وبقوات متصرف درنه وباجلان، ثم استعار الإنكشاريين من الجليلي في الموصل، وكتب إلى شيخ بني كعب يناشده العون[٢٥]، وطلب من استنبول ارسال الكثير من العتاد الذي يحتاجه[٢٦]، لأنه رأى أن ما ينتظره ليس معركة عادية ضد متمردين، بقدر ما رآها معركة مصير له ولعموم الوجود المملوكي والعثماني في العراق. لذلك فما أن تقدم الجيش المملوكي نحو البصرة، حتى دخل في معركة ضد الخزاعل، أبدى فيها حمد الحمود ومقاتلوه مقاومة باسلة[٢٧]، كان نتيجتها لصالح الجيش الذي واصل تقدمه نحو ديار المنتفق متأهبا

---

(٢٢) الصوفي – مصدر سابق – ص٩٧.

(٢٣) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٨٥.

(٢٤) عثمان بن بشر – مصدر سابق – ص٨٢.

(٢٥) لونكريك – مصدر سابق – ص ٢٤٥.

(٢٦) الكركوكلي – مصدر سابق – ص٢٤٥.

(٢٧) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – ص١٠١.

ومستعدا. وقد تراجع حمد مع ما تبقى من قواته نحو حليفه ثويني، منتظرين معا معركتهم الحاسمة مع سليمان باشا ومماليكه.

وقد جرت تلك المعركة في موقع "أم الحنطة" القريبة من البصرة في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٧٨٧م، حيث كان تعداد الجيش الثائر يبلغ الـ (٢٠/٠٠٠) مقاتل من المشاة والخيالة[٢٨]. وقد كانت معركة عنيفة إشترك فيها الوزير بنفسه محرضا ومشجعا مقاتليه[٢٩]، في حين استبسلت قوات الثوار في القتال بشكل ملفت للنظر، خصوصا وأن قائدي الميدان الرئيسي، وهما "محمد بن عبد العزيز بن مغامس المانع" من المنتفق و "أبو الغمسي بن محمد الخزعلي" من الخزاعل، كانا يعدان من أشجع الناس وأجرأهم في مباشرة القتال وإدارته. وقد إستمرت المعركة أربعة ايام، قاتل فيها الطرفان بشدة وبتصميم عال أبدى كلاهما ضروبا من الشجاعة والاستبسال[٣٠]. لكن في ضحى اليوم الرابع، بان النصر واضحا لقوات المماليك[٣١]، بعد ان قتل من خيالة العرب نحو ثلاثة آلاف، ومثلهما أو أكثر من المشاة، واستولى الجيش على الغنائم[٣٢]، في حين إنسحب القادة الثلاثة من ميدان المعركة، نحو منطقة "الجهرة" القريبة من الكويت، حيث كان الشيخ ثويني، جريحا من أثر المعركة[٣٣]. ويصف الرحالة البريطاني (توماس هاويل T. Howel) ماجرى في المعركة، بأنه (مذبحة رهيبة، .....

---

(٢٨) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١٨٧.

(٢٩) علاء كاظم نورس حكم .... – مصدر سابق ص ١٥٦.

(٣٠) لوريمر – مصدر سابق – ص١٨٨٦.

(٣١) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص١٧٧.

(٣٢) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – ص١٠٢.

(٣٣) علي الشرقي – الألواح .... – ق١ – ص١١٦.

فالميدان مغطى بعظام الرجال والخيول)[٣٤]، وبنتيجة المعركة، استرجعت البصرة دون مقاومة وارتبطت بباشوية بغداد من جديد[٣٥].

ويواجهنا، سؤال مهم، لماذا فشلت الثورة؟ وكما نرى، فإن فشل الثورة، عائد للأسباب التالية:

١. إن سليمان باشا ومماليكه، قدروا خطورة الثورة وما تؤول إليه من نتائج، لذلك حشدوا كل قواهم العسكرية والمادية على قوات الثائرين.

٢. سلوك المماليك في سياسة تقسيم وتشطير قبائل الثوار، من خلال تعيين ثلاثة قادة بدلاء من قبائل قادة الثورة، وهم حمود الثامر للمنتفق، و – محسن – المحمد الحمود للخزاعل، وإخوة الشاوي الثلاثة لعشائر آل عبيد. ورغم ان البدلاء لم يقدموا دعما عسكريا كبيرا لوزير بغداد، لكن موقفهم فت في عضد من كان يتهيأ للإلتحاق بالثورة أو دعمها.

٣. عدم تضلع وقدرة قادة الثورة، على ممارسة سياسة الحرب، وتمسكهم بسياسة المعركة، وهذا ما بان واضحا بعد إنكسارهم عسكريا في المعركة، وهذه السياسة تلغي هامش المناورة وتعدد الصفحات.

٤. أن الثوار في مشروعهم، لم يبحثوا –كما فعلت شعوب الإمبراطورية العثمانية الأخرى – عن مظلة دولية للدعم والإسناد السياسي والعسكري، أو لوضع الكوابح في عجلة الماكنة العسكرية المتجهة نحوهم. وكما أظن أنه حتى لو تطوعت قوة دولية كبرى آنذاك، وفاوضت الثوار على دعمهم، لرفضوا دعمها خشية أن يتهموا بمولاة الأجنبي –الكافر– على أبناء دينهم.

---

(٣٤) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(٣٥) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٤٥.

٥. أن الثوار لم يبحثوا عن الدعم السياسي في دوائر استنبول، ولو من باب التحالفات المؤقتة، لأن السلطات المركزية كانت ترغب في الغاء تحكم المماليك. ولو تحقق ذلك لأعطى للثورة وقتا ثمينا كانت تحتاجه لدعم مسيرتها.

٦. قصور نظر الثوار في إجراء تحالف مع إمارة البابابيين في شمال العراق، لغرض تشتيت الجهد والحشد العسكري المواجه لهم.

٧. عدم تكافؤ عدة وتسليح الطرفين، والتي تميل لصالح الجيش المملوكي.

بعد إنسحاب الشيخ -ثويني- عين باشا بغداد (حمود بن ثامر بن سعدون بن محمد المانع) شيخا لمشايخ المنتفق[٣٦]، والذي استمر فيها لمدة سنة واحدة، ثم أعيد إليها ثويني بإلحاح من متسلم البصرة، بحجة عدم رضاء المنتفق عن مشيخة حمود الثامر[٣٧]. إلا أن ثويني، تواطأ في مؤامرة جمعته مع -مصطفى آغا - متسلم البصرة و -عثمان باشا - حاكم شهرزور، ضد باشا بغداد، الذي استطاع كشفها[٣٨]، فإستطاع أن يفرق ذلك الجمع بالسياسة وبالقوة العسكرية، فقد استمال لجانبه - عثمان باشا - بشكل مؤقت، وتوجه بقوته الضخمة نحو البصرة، الأمر الذي اضطر متسلمها للهرب بعد أن يأس من جدوى المقاومة[٣٩]، في حين مال ثويني بعد تخاذل حليفه، نحو بادية نجد، متجنبا وأعوانه الاصطدام بقوات الباشا[٤٠]، حيث توجه نحو "الدرعية" عاصمة "آل سعود" حيث جرى إكرامه والإحتفاء به، وكانت مدة بقائه ضيفا على مضيفيه بحدود عام[٤١]. وجراء هذا الفعل

---

(٣٦) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١٨٨.

(٣٧) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٤٦.

(٣٨) حسين خلف الشيخ خزعل – تاريخ الكويت السياسي – ج١ – بيروت ١٩٦٢ – ص٥٣.

(٣٩) الكركوكلي – مصدر سابق – ص١٩٠.

(٤٠) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٤٦.

(٤١) ابن بشر –ج١ – مصدر سابق – ص٨٧.

جرى عزله عن المشيخة، التي أعيدت إلى حمود الثامر في شباط عام ١٧٨٩م[٤٢].

بعد تلك الأحداث المترادفة مع بعضها والمطبوعة بطابع العنف وبعد تولي حمود الثامر لإمارة المنتفق، فقد سعى إلى تأكيد سطوته وقوته أمام عشائره وأمام منافسيه وأعدائه. لذلك وتقديرا منه لما يمثله الشيخ ثويني من مركز ثقل قد يزعزع سلطته، وهو الطليق في الصحراء والقادر على خلق التحالفات حتى مع الأضداد، هذا غير هيبته وشخصيته النافذتين، فقد رأى – حمود – ان يشتت جموع عمه ثويني المقيمة بالقرب من جبل "سنام" قرب سفوان، والتي تجمعت لمناصرته بعد أن وصلها من نجد خصوصا وان متسلم البصرة السابق – مصطفى آغا– قد التحق بحليفه السابق مما عزز المعنويات، الأمر الذي دفع الجانبان، إلى الدخول في معركة حاسمة، حققت فيها قوات المنتفق التي يقودها حمود الثامر نصرها على أميرها السابق ثويني، في معركة سميت يوم "سفوان"[٤٣]، مما إضطر ثويني إلى النزوح لعربستان، منتظرا وراصدا الاحداث وما تفرزه [٤٤].

هذه المعركة، هي أولى المشاهد التي وقفت فيها قوات المنتفق تقاتل بعضها، رغم أن ما كان لدى الشيخ ثويني، من قوة كان صغيرا ومحصورا باتباعه وأعوانه وأشقائه، إلا أن ما حدث كان جديرا بالتسجيل والملاحظة. هذه الموقعة رغم عدم أهميتها في تثبيت سلم القيادات في إمارة المنتفق، إلا اني أراها تجربة مريرة تذوقتها المنتفق بمرارة أشد، ونبهت المماليك ومن خلفهم في الولاية إلى الطريقة الأسلم لتمزيق المنتفق.

---

(٤٢) علاء كاظم نورس – حكم .... – مصدر سابق ص٤٨.

(٤٣) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٢٢٢.

(٤٤) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٠٨.

بعد إطمئنان خواطر الأمير حمود الثامر بطل الأساطير القبلية[٤٥]، بابتعاد أخطرمنافسيه، وتشتت قواتهم، فقد وجه كل جهوده وإمكاناته الفكرية والعسكرية، نحو منافسيه القدماء "الخزاعل" خصوصا وأن له معهم، قصة، ذكرنا بعض أحداثها في المبحث الأول من هذا الفصل، هذا غير طموحه في اعادة حاظرة السماوة لنفوذ المنتفق، مثلما كانت سابقا قبل استيلاء الخزاعل عليها عام ١٧٠٣م في أواخر أيام – مانع السخاء–. الأمر الذي دعاه إلى استشارة رؤساء الأثلاث وأعيان المنتفق ووجوهها، بشأن الحرب مع الخزاعل، فلمس منهم التأييد والحماسة[٤٦]. فجهز جيشا قويا يبلغ تعداده ثمانية آلاف مقاتل، وبمثل هذا العدد كان جيش الخزاعل الذي وضع تحت قيادة الشيخ حمد الحمود رئيس فرقة الخزاعل الساكنين في الجزيرة، وإنقياد الشيخ محسن محمد الحمود رئيس فرقة السلمان من الخزاعل الساكنين في الشامية، لهذه القيادة أزاء عدوهم المنتفقيين[٤٧]. وقد جرت أحداث هذه المعركة التي استمرت ثلاثة أيام في تشرين الثاني عام ١٧٩٠م[٤٨]، أظهر فيها الطرفان شجاعة فائقة وبذلا دماء كثيرة، وجروحا وندبا مؤلمة، إنتهت بإنتصار المنتفق وعودة حاظرة السماوة لنفوذها وسيطرتها[٤٩]. وقد غنمت المنتفق بانتصارها الشيء الكثير، وكان أكثر ما أسعد –حمود الثامر– مقتل "ابن كايم" قاتل والده الأمير –ثامر بن سعدون– بيد "محمد بن معيوف السعيدي" صاحب الفرس الحمراء*، والذي قدم

---

(٤٥) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٤٧.

(٤٦) م. ص. مخ –رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(٤٧) حمود الساعدي – مصدر سابق – ص٥٤.

(٤٨) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – ص١٠٩.

(٤٩) محمد رشيد السعدي –قرة العين في تاريخ الجزيرة والعراق والنهرين – مطبعة الرشيد – ١٣٢٥هـ – ص١٢٤.

* هو من ثلث "بني سعيد" وعرفت عائلته فيما بعد بعائلة "البوحمرة" توصفيا لفرسه الحمراء التي كان يمتطيها اثناء المعركة. ومنذ ذلك الوقت منح –محمد المعيوف- مشيخة ثلث بني سعيد عامة.

رأس ابن كايم وحصانه الأبيض هدية لأميره(٥٠). كما اغنت هذه الموقعة الموروث الشعبي العراقي في الشعر وفي الامثال، واشتهر المثل الذي قاله -حمود الثامر- بخصوص عائدية السماوة، حينما قال [الحكك بالسيف والعاجز يريد شهود](٥١).

هذه المعركة،وما آلت إليه من نتائج، رفعت من أسهم ورصيد المنتفق وأميرهم لدى السلطات العثمانية ولدى القوى المحلية المحيطة بالمنتفق، هيبة ونفوذا، واقنعت الآخرين بالإمكانات غير الناضبة لهذا الإتحاد القوي. بنفس الوقت فإن نتائج هذه المعركة قد طيبت خواطر من شارك في معركة -العرجا- وتعرض فيها سواء للأسر أو الهزيمة. والملفت للنظر أن الأمير -حمود-، ترفع عن السلوك الذي يخدش القيم الإنسانية، ويهز تقاليد الفروسية لدى المنتصر، فلم يفعل بأسراه من الخزاعل مثلما فعلوا به وبالمنتفقين يوم أسروا عام ١٧٧٩م، رغم كل الإلحاح والضغط الذي مورس عليه من قبل أبناء المنتفق، بل أكرمهم وأثنى على شجاعتهم وأولم لهم على مائدته، واعادهم إلى أهلم مصحوبين بالإحترام بصحبة السيد - إدريس بن السيد علي الياسري-(٥٢).

بعد هذه المعركة، تفرغت المنتفق لأحوالها، بعد أن وجدت نفسها صاحبة الكلمة النهائية والنافذة في العراق الجنوبي وسواحل الخليج، وسلكت مع سلطات الوالي سياسة الولاء والهدوء، مما منحها كسب ثقة السلطات الحكومية ورضاها وارتفعت مكانة -حمود الثامر- كثيرا سواء على صعيد أبناء المنتفق او على صعيد سواهم من سلطات حكومية أو قوى محلية متعددة.

---

(٥٠) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(٥١) أمثال شعبية لها حكايات - جمع وتنسيق وشرح رفعت رؤوف البازركان -مطبعة الرشاد - بغداد ١٩٨٣ - ص٥٩.

(٥٢) م. ص. مخ - رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس . وقد أكد لي هذه الحادثة السيد (رشيد الياسري) في لقاء معه في ناحية الموفقية في ١٩٩٣/١٠/١٧.

في سنوات ١٧٩٢ – ١٧٩٧م، كانت إمارة "آل سعود" والمتمرسين في عاصمتهم الدرعية. قد بدأت إندفاعا هائلا في شبه الجزيرة العربية وفي المراعي العراقية، خصوصا بعد أن كيفت حملات الغزو القبائلية على أنها "جهاد إسلامي"(٥٣). وتعرضت مراعي المنتفق وصحراء الشامية، لهجمات قاسية من قبل الوهابيين*، وانتشر دعاتهم في دواوين العشائر الفراتية يحاولون نشر آرائهم ومعتقداتهم في أوساط العشائر والمدن(٥٤). وللأمانة فإن ما منع ذلك وحال دونه هو جهد المنتفق وثقلها، حيث لم يكن هناك من معادل يقف بوجه الإندفاع الهائل لما حققه التوجه والتعبئة الدينية التي خلقتها حركة محمد بن عبد الوهاب في نجد، إلا أهل المنتفق، وأفضل دليل على ما نقول ان الجميع، بما فيهم الدولة العثمانية، تجنبوا الإصطدام ووقف تيار هذه الموجة التي كادت تكتسح الجميع. وقد شكل الوهابيون تهديدا حقيقيا لطريق الحج، مما دفع شريف مكة، بشرح الأوضاع المهلكة إن استمرت الأحوال على حالها، للسلطان العثماني(٥٥)، الذي كان يستحث سليمان باشا، على ضرورة القضاء على الوهابيين، لما يشكلونه من تهديد وخطر، غير أن الباشا، كان حينها قد أنهكته الشيخوخة، وغدى غير قادر على الاضطلاع بمهمة صعبة كهذه(٥٦). هذه الاحوال المتردية من تفاقم الخطر الوهابي، والحاح سلطات

---

(٥٣) يراجع في ذلك: لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب – المؤلف مجهول– تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة – بيروت ١٩٦٧، و: حسين بن غنام– روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام – القاهرة ١٩٦١.

* الوهابية، ليست مذهبا أو طريقة، بل إنهم من أتباع المذهب الحنبلي، وهي أقرب ما تكون دعوة لتصحيح بعض الممارسات الإسلامية. ولذلك استعمالنا لتعبير الوهابية في هذا الكتاب، هو مجرد إصطلاح لتقريب المعنى من باب: خطأ شائع أفضل من صواب مجهول.

(٥٤) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٥٧.

(٥٥) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص١٩٨.

(٥٦) لونكريك – مصدر سابق – ص٢٥٧.

استنبول على الفعل، دفعته إلى تكليف الشيخ -ثويني العبد الله-* بعد أن أعيد لمشيخة المنتفق عام ١٧٩٦م، بالتحرك إلى حرب الوهابيين بعد أن خلع عليه وزوده بالأموال[٥٧]، لحاجتهم إلى قائد يتصدى إلى مثل هذه المهمة الصعبة.

ما كاد الشيخ ثويني، يستقر في رئاسة المنتفق حتى أعلن النفير العام، فاحتشدت عنده عربان المنتفق وأهل الزبير وأهل البصرة ونواحيها، وجميع بوادي الضفير، وقد قضى مدة ثلاثة أشهر وهو يعبئ قواته تعبئة كاملة سواء من أدوات السلاح أو ذخائره[٥٨]، كما أرسل أسطولا يحمل الذخائر والمؤن إلى القطيف، وقد رافقت الأسطول ثلة من عرب عقيل سكنه الكرخ، وما يزيد عن كتيبة واحدة من الجنود الأجيرة، كما تقاطرت عليه الأرتال من الكويت والبحرين، وجرى حث متسلم البصرة ان يسنده بالرماة والمدفعية[٥٩]. والشيخ ثويني هو أول عراقي تصدى للتوسع الوهابي، بعد أن وعى أخطاره على العراق[٦٠]، ليس في هذه الحملة، بل فيما سبقها عام ١٧٨٦م، لولا رسائل سليمان بك الشاوي إليه تستحثه على العودة بعد إضطراب الأحوال مع المماليك، والتي أدت فيما بعد إلى إندلاع الثورة العراقية ضد الحكم المملوكي.

لقد كانت محطة الجيش الاولى في هذه الحملة منطقة "الجهرة" حيث إنتظر ثويني تكامل قواته، بنفس الوقت تكاتب مع براك بن عبد المحسن السرداح رئيس

---

* جرى العفو عن الشيخ ثويني عام ١٧٩٢ في سنة المراحم، وهي السنة التي تم فيها العفو عن كل مناهضي الباشا، وقد فرضت عليه الإقامة الجبرية في بغداد، وغدى من مستشاري الوالي، خصوصا وأن ما يربطهما سابقا من مودة لم ينقطع رغم إختلاف الرؤى.

(٥٧) عبد الكريم محمد غرايبة - مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ - ١٩١٨ - ج١ - دمشق ١٩٦٠ - ص١٤٩.

(٥٨) لونكريك - مصدر سابق - ص٢٥٧.

(٥٩) الكركوكلي - مصدر سابق - ص٢٠٤.

(٦٠) لونكريك - مصدر سابق - ص٢٥٦.

بني خالد يستحثه للإلتحاق به، في حين سير قسما من عساكره في السفن، فيما سار هو ببقية الجيش برا[٦١]، فلما سار الجيش بهذه العدة والعدد، إضطربت نجد خوفا وهلعا منه[٦٢]. حينما بلغت هذه الأخبار مسامع الأمير "عبد العزيز آل سعود" جمع كل قواته مدركا خطورة الموقف، كما أمر أتباعه بمراقبة الجيش القادم نحوهم وحماية الأبار الرئيسية للمياه، وتسميمها إن عجزوا عن حمايتها، ولذلك أرسل لملاقاة قوات ثويني أكثر قواته صمودا وبسالة، وهي مكونة من حضر العارض[٦٣]، حيث أنيطت قيادتها بـ (محمد بن معيقل) الذي تنحى عن مكانه السابق "جريه"* ونزل في " أم ربيعة وجوده"** هيبة من هذا الجيش، وكتب للأمير – عبد العزيز – يطلب منه المدد، فأمده بجيش تحت قيادة ابن أخيه (حسن بن مشاري بن سعود) على أن تكون القيادة لإبن معيقل[٦٤]، ولكن الشيخ ثويني لم يشأ أن يعجل الحرب، فأعرض عن الوهابيين، وارتحل بجيوشه من "الطف"***، حتى نزل على "الشباك" الماء المعروف في ديار بني خالد، فلما قصد ثويني ذلك المكان تأهبا لغزو الدرعية، بانت آثار هذا الجيش وأهميته واضحة عند عشائر ابن سعود، من يأس وخوف ورعب[٦٥].

---

(٦١) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦ – ص١٢٢.

(٦٢) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٢١٢.

(٦٣) فاسيليف – مصدر سابق – ص١١٣.

* موقع يقع جنوب بلدة الكويت.

** موضع ماء يبعد عن الاحساء يوما.

(٦٤) عبد الرحيم عبد الرحمن – الدولة العودية الأولى ١٧٤٥ – ١٨١٨م. معهد البحوث والدراسات العربية – القاهرة ١٩٦٩ – ص٩١.

*** موقع على الطريق المتجه للإحساء، تستعمله القوافل محطة للإستراحة.

(٦٥) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٦– ص١٢٣.

إلا أن الحظ، يلعب لعبته، ويبتسم للأمير عبد العزيز ففي أثناء انشغال الجيش بنصب خيمة في موقعة الجديد في الأول من تموز عام ١٧٩٧م، ينفرد الشيخ ثويني عن حاشيته، وأقرب خيمة له هي خيمة محمد العريعر فيفاجئه عبد مملوك للجبور من بني خالد إسمه "طعيس"[٦٦] وبيده حربه فيطعنه بها، بحيث يخرج سنانها من الجهة الأخرى لجسمه، فيموت ثويني حالا[٦٧]، ويقتل – طعيس– بعده مباشرة بدون استجواب[٦٨]!!!

وقد حمل الشيخ ثويني لخيمته، وأشاع رؤساء المنتفق أنه مصاب في حين جرى دفنه سرا في جزيرة "العماير" في الاحساء[٦٩]. وتشير أغلب المصادر إلى ان – طعيس– من المؤمنين بالوهابية، وقد جرى إعداده وتجنيده لهذه المهمة تحت غطاء الدفاع عن الدين بوجه "الكفار". وأميل إلى الإعتقاد أن ما جرى هو ما نسميه اليوم بالإغتيال السياسي. وما زال المثل يضرب في نجد عن "بيعة طعيس" كمثل للاستقتال من أجل تحقيق هدف معين.

ورغم التكتم على ما حصل، إلا أن مقتل ثويني قد قرر مأل النزاع، حيث إنفصل بنو خالد بزعامة (براك السرداح) عن هذه الحملة. كما أن الإضطراب وانعدام النظام بدءا بالانتشار في صفوف الحملة التي انقسمت إلى قطع صغيرة، بنفس الوقت الذي بدأ فيه الإنسحاب شمالا بدون رابط، بعد ترك المدفعية وذخائرها[٧٠]، مما أتاح المجال لإبن مشاري أن يطاردهم، تاركا لفرسانه من البدو

---

(٦٦) الكركولي – مصدر سابق – ص٢٠٤.

(٦٧) علاء كاظم نورس – حكم .... – مصدر سابق – ص٥٢.

(٦٨) فاسيلييف – مصدر سابق – ص١١٤.

(٦٩) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص٢١٨.

(٧٠) عبد الرحيم عبد الرحمن – مصدر سابق – ص٩٦.

حرية القتل الكيفي، والحصول على الغنائم الكثيرة، حتى أوصلهم إلى سـفوان-[٧١].
وقد جرى لم شعث الجيش المنهزم والمتفرق بصعوبة من قبل - ناصر العبـد الله - شقيق ثويني، حيث رغب بإعادة الكرة على الوهابيين، إلا أن باشا بغـداد صـرف النظر عن هذه الفكرة، وولى مشيخة المنتفق بعد مقتل أميرهـا السـابق، للشـيخ - حمود الثامر - بعدما أدرك فداحة ما حصل، وقد زوده الشـيخ -حمـود- بتقديـر موقف سليم عن الحركة الوهابية وما تملكه من قوة واندفاع اتجاه الآخرين[٧٢].

لقد كان وقع مقتل الشيخ تويني، عظيم المنتفق وقرمها الماجد في -الشباك- كبيراً لدى كافة الأوساط، ففي بغداد أحدث إغتياله فزعاً وقلقاً، لأن الدولة إعتمـدت على قابلياته الممتازة في صد تقدم الوهابيين نحو العراق، حيث سبق له أن هزمـهم في معارك سابقة، رغم أنهم هزموا الجيش التركي مراراً.[٧٣] وفي نجد كان لغيـاب ثويني فرصة كبيرة لأنه شكل خطراً حقيقياً عليهم[٧٤]، ويصفه مراقب محـايد بأنـه شجاع وكريم وحاد الفهم، ... كاد أن يقضي على الوهابيين قبل - إبراهيم باشـا - بسنوات كثيرة.[٧٥]

هو الليث وافاه على غرةٍ سهمُ

فهد به للمجد أطاحهُ الشمُ[٧٦]

أعطى تحلل جيش هذه الحملة للوهابيين دفقةً من المعنويات، لذلك هـاجموا أطراف المنتفق في رمضان ١٢١٢ هـ أواخر ١٧٩٧م، قصدوا قرية "أم العبـاس"*

---

(٧١) فاسيليف - مصدر سابق - ص١١٤.
(٧٢) د. علي الوردي - لمحات .... - ج١ - ص١٨٥.
(٧٣) الرحالة جاكسون - مصدر سابق - ص٧٩.
(٧٤) عثمان بن سند - مصدر سابق - ج١ - ص ١٠٨.
(٧٥) لوريمر - مصدر سابق - ص ١٨٨٤.
(٧٦) عثمان بن سند - مصدر سابق - ص ٢١٩.
* موقع قريب من مدخل مدينة سوق الشيوخ للقادم من الناصرية.

وقتلوا من وجدوه، بعد أن نهبوا وحرقوا. وقد كان الأمير حمود الثامر في البادية، وحين سماعه بما حدث، جد في اللحاق بهم، إلا أنهم افلتوا راجعين لديارهم.[٧٧]

فشل حملة ثويني واندفاع الوهابيين نحو العراق، شغل الجميع، وكان أكثرهم اهتماما "علي باشا" كهية الوالي الذي عزم على غزو الإحساء بجيش لجب. ففي سنة ١٧٩٨م، جهزه الوالي بحملة كبيرة من الرجال والسلاح وأردفه بقطعات من عشائر شمر، يقودهم الشيخ فارس بن محمد الجربا ومن قبائل الضفير وبني خالد وآل عبيد ومن أهل الزبير ومن النجادة.[٧٨] كما التحق بالحملة الشيخ حمود الثامر بقواته،[٧٩] وكان هدف الحملة السيطرة على الإحساء تمهيدا للزحف نحو الدرعية. إلا أن هذا الجيش الكبير، فشل في مهمته لأسباب متعددة، وعاد لبغداد بعد تسعة أشهر بعد إقرار سلام مترجرج بين الطرفين.[٨٠] وفي أثناء هذه الحملة، غزا حمود الثامر نجدا فأغار على قبائل "سبيع" وغنم منها غنما وابلا كثيرة أنجدت الجيش الكبير كغذاء له.[٨١] ولذلك يمكن أن نعتبر هذه الغارة النجاح الوحيد في حملة علي باشا لفتح الإحساء والدرعية. كما لا بد من الإشارة إلى أن الصلح الذي تم في هذه الحملة، لم يحظ بقبول حمود الثامر الذي وجده أقرب للهدنة منه إلى معاهدة صلح وسلام، لذلك رفضه، ورفض التوقيع على الشروط التي اتفق عليها الطرفان.[٨٢]

فشل الحملة الثانية أعطى للوهابيين معنويات عالية، لذلك فكروا في الهجوم على العراق. ففي سنة ١٨٠١م تقدم الأمير "سعود بن عبد العزيز" وجموع غفيرة

---

(٧٧) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٦ – ص ١٢٥.
(٧٨) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٠٥.
(٧٩) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٦ – ص ١٢٧.
(٨٠) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٠٦ – ٢١٠.
(٨١) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٢٧.
(٨٢) المصدر أعلاه – ص ٢٣١.

من أتباعه نحو العراق عن طريق السماوة، وأخذ يعبث بـــأطراف المنتفــق التـــي استعدت له،[٨٣] فحول وجهته لهدف آخر في هذا الوقت كتب الأمير حمود الثـــامر لوالي العراق يخبره بنية الوهابيين على مهاجمة إحدى مدن العراق المهمـــة.[٨٤] إلا أن الوالي كان في أواخر أيامه يعاني المرض والعجـــز، ويلــف بلاطــه الحســد والمؤامرات الداخلية،[٨٥] فلم يأخذ الأمر بالجدية التي اشتهر بــها، فكـــانت مذبحــة كربلاء الأليمة التي وقعت في نيسان ١٨٠٢م والتي تركت انطباعا مؤلما في جميــع النفوس.[٨٦]

الملاحظ في هذا الجانب، أن المنتفق وعت أخطار الوهابيين على "ديرتـــهم" واستعدت لها، فلم يعطوهم فرصة للهجوم عليـــهم، وبنفــس الوقــت، فقــد كــانت استخباراتهم دقيقة فيما نبهوا الوالي إليه من الأخطار المحدقة مما بيتـــه الوهـــابيون من مخططات إلا أن تلك المعلومات لم يؤخذ بها، فحدث ما حدث بكربلاء.

بعد وفاة سليمان الكبير، في آب ١٨٠٢م، تولى الولاية صـــهره وكهيتــة – علي باشا – بتوصية منه، وقد كانت الأمور جيدة بينه وبين إمارة المنتفـــق، فكـــان الشيخ حمود الثامر، يحظى بمحبة وولاء جميع ابناء المنتفق، إلا أنه أمـــر بـــإجلاء (نجم بن عبد الله بن محمد المانع) شقيق الشيخ ثويني، و(راشد بن ثامر بن ســـعدون بن محمد المانع) شقيقه، لديار عشائر (زبيد) لشغبهما داخل "الديـــرة" ومحاولتـــهما تشويش أفكار الناس حول علاقة المنتفق مع الوالي الجديد.

---

(٨٣) الصوفي – مصدر سابق – ص ٨٠.

(٨٤) علاء كاظم نورس – حكم ...... مصدر سابق – ص ٥٦.

(٨٥) د. علي الوردي – لمحات ...... ج١ – ص ١٩٧.

(٨٦) أبي طالب خان – رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوروبا سنة ١٢١٣هـــ – ترجمة مصطفى جواد – مطبعة الإيمان – بغداد – ١٩٦٩ – ص ٣٨٤ – ٣٨٥.

وفي عام ١٨٠٤م يقوم الأمير "سعود بن عبد العزيز آل سعود" بعد تولي الإمارة خلفا لوالده المقتول، بمهاجمة الزبير والبصرة، حيث تمكن من أهل الزبير وحاصر البصرة، إلا أن متسلمها – إبراهيم آغا – صابر على الصمود، فلم يمكنه من احتلالها،[٨٧] ثم جاءته جموع المنتفق بقيادة أميرها حمود الثامر، مناصرة له تريد اللقاء بالوهابيين لثارات سابقة،[٨٨] إلا أنهم حينما علموا بتوجه المنتفق نحوهم، تراجعوا متوجهين نحو ديارهم في الدرعية.[٨٩]

وفي عام ١٨٠٥م ساق الوالي – علي باشا – الجنود نحو أرض العجم يقودها بنفسه لمحاربة – فتح علي خان – وقد أوغل في الأراضي الفارسية[٩٠]، ثم وجه جنوده بقيادة ابن أخته سليمان بك لمقاتلة عبد الرحمن باشا بابان متصرف السليمانية وبعد مناوشات بينهما، يؤسر سليمان بك ويرسل مخفورا إلى طهران،[٩١] في هذا الظرف الدقيق والمضطرب الذي يمر به الوالي وجيشه، تطل طلائع قوات المنتفق لنجدة الوالي، حيث تحميه وقواته حتى دخولهما بغداد، آمنين من الخوف الذي أزاله وجود المنتفقيين معه.[٩٢]

بعد مصرع علي باشا عام ١٨٠٧م، يتولى الولاية ابن أخته سليمان باشا الصغير المحبوب من الجميع لشجاعته وسخائه،[٩٣] وقد كانت علاقته مع المنتفق جيدة، كما كان يبادل الأمير حمود الثامر، الاحترام بحيث نشأة مودة بين

---

(٨٧) عثمان بن سند – مصدر سابق – ج ١ – ص ١٣٠.

(٨٨) ابن الغملاس – مصدر سابق – ص ٧١.

(٨٩) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٦ – ص ١٦١.

(٩٠) المصدر أعلاه – ص ١٦٥.

(٩١) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٠٢.

(٩٢) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٥٧.

(٩٣) سليمان فائق – الكولومنده – مصدر سابق – ص ٣٧.

الاثنين.[٩٤] إلا أن قلة خبرة الوالي وشجاعته، وشبابه أوقعته في إشكالات مع السلطات المركزية في استنبول التي حركت متسلم البصرة سليم آغا بالضد منه عام ١٨١٠م، إلا أن ذلك التحرك أخمدته قوات المنتفق التي دخلت البصرة مجهضةً هذا العصيان، ومعينةً أخ الوالي من الرضاعة – أحمد بك – متسلماً جديداً للبصرة، بعد أن فر متسلمها السابق نحو بوشهر.[٩٥] ولا بد من الإشارة إلى أن بريطانيا جاهدت في إزالة هذا الوالي لأنه دخل في إشكالات مع مقيمها في بغداد، حدت من نشاطه وعرَّضت مصالح بريطانيا للخطر،[٩٦] وهي المصالح التي كانت تنميها وتزيد مساحاتها منذ أن تدخلت لصالح تعيين – سليمان باشا الكبير – والياً على العراق عام ١٧٨٠م، فرعى الرجل مصالح بريطانيا ولم يدخل معها في أي إشكالات بل إن التفاهم كان يسود علاقاتهما. علماً أن تعيين سليمان باشا الصغير والياً على العراق بعد مقتل خاله – علي باشا – جاء بتدخل من سفير فرنسا في استنبول – سباستيان – فحسب الوالي على أنه يرعى المصالح الفرنسية،[٩٧] ويعرقل مثيلاتها البريطانية.

فشل عصيان البصرة وضغوط السفارة البريطانية، دفع سلطات استنبول أن ترسل شخصاً خبيراً في حبك المؤامرات والدسائس هو محمد سعيد حالت الذي نجح في مسعاه، حيث قتل الوالي بعد تفرق جيشه، غيلةً، من قبل عشيرة "الدفافعة" من شمر طوقه والنازلين قرب نهر ديالي،[٩٨] وهو في طريقه قاصداً ديار المنتفق وأميرها حمود الثامر، لكي يحتمي بهم.[٩٩] كما جرى تنصيب "عبد الله باشا

---

(٩٤) ياسين العمري – غاية ...... مصدر سابق – ص ١٩٩.

(٩٥) لونكريك – مصدر سابق – ص ٢٧٢.

(٩٦) رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ – ترجمة بهاء الدين نوري – بغداد – ١٩٥١ – ص١٤.

(٩٧) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٠٦.

(٩٨) د. علي الوردي – لمحات ...... ج١ – ص ٢١٣.

(٩٩) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٧٤.

التوتنجي" واليا على العراق من خلال الفرمان الذي يحمله - حالت - والذي فوض بوضع اسم الرجل الذي يراه ملائما لمنصب الولاية.(١٠٠)

تعدد الولاة، مع ما رافق ذلك من عدم الاستقرار، أدى إلى ظاهرة واضحة هي ضعف السلطة وتعدد الطامعين بها، وبروز أكثر من رأس يدعي بأهليته لتولي المراكز الأمامية في الحكم. في هذا الظرف وضع - حالت - عبد الله باشا التوتنجي، واليا على العراق، وهو موصوف بالفكر المتقد والجلد على العمل والسمعة الحسنة.(١٠١) لكنه كان طيلة ايام ولايته مشغولا بأمرين:

الأول: محاربة عبد الرحمن البابان، والثاني: مراقبة وتضييق الخناق على أولاد سيده السابق - سليمان باشا الكبير -

وبخصوص الأمر الثاني لعلاقة المنتفق بأحداثه، فقد هرب "سعيد بك بن سليمان الكبير" نحو المنتفق بعد أن استشعر بالنيات الخطيرة التي يبيتها الوالي ضده في الأشهر الأخيرة من عام ١٨١٢م طالبا منهم الحماية والأمان.(١٠٢) وقد سبق هذا الهروب، محاولة سابقة إلا أن تدخل المقيم البريطاني أصلح الأمور بين الطرفين، وأعاد سعيد بك إلى بغداد بأمان الوالي وحمايته.(١٠٣)

رأى الوالي وكهيته طاهر آغا أن الهروب الأخير وباتجاه المنتفق أمر خطير يستوجب القمع ودون تأخير خشية أن يكاتب استنبول مطالبا بإسناد الأمر

---

(١٠٠) علاء كاظم نورس - حكم ...... مصدر سابق - ص ٨١.

(١٠١) لونكريك - مصدر سابق - ص ٢٧٤.

(١٠٢) سليمان فائق - تاريخ ...... مصدر سابق - ص ١٦.

(١٠٣) رحلة المستر ريج - مصدر سابق - ص ٦٢.

إليه.[١٠٤] خاصة وقد سبق وصول سعيد بك إلى المنتفق وصول " جاسم بك بن محمد الشاوي" إليهم متباعدا عن الوالي الذي أراد إنزال الأذى به.[١٠٥]

إن هروب هاتين الشخصيتين المهمتين، مع الإهمال والصدود الذي يكنه الوالي وحمود الثامر لبعضهما، دفع بالأمور إلى التأزم والتعقيد، رغم أن الطرفين تبادلا الرسائل المهدئة التي أريد بها احتواء هذه الأزمة،[١٠٦] إلا أنه حينما تبدأ الخلافات بالظهور وبشكل يتقاطع والوصول لحل وسط، خاصة في المجتمعات القبلية، فإنه تكون للمضاعفات المستجدة دائما، قوة استدعاء للتراكمات المترسبة من أسباب قديمة.

أمام هذه الحالة سار الوالي على رأس جيشه نحو أرض المنتفق، معلقا أماله على ضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد: المنتفق وسعيد بك والشاوي. أما حمود الثامر، فقد جمع رؤوس الثلاث وقادة قواته وكبار رجاله، وعرض عليهم الحالة في خطاب موجز وبليغ،[١٠٧] مؤكدا لهم أنه سيقاتل لحماية ضيوفه حتى ولو بنفسه،[١٠٨] ففرح كثيرا حينما وجد الحماسة والمعنوية العالية عند رجاله في الدفاع عن المنتفق وضيوفها،[١٠٩] مما عزز معنوياته وأعطاه دفقا من الشحنات في الأفكار أوفى الاستعداد للمعركة المقبلة.

الغريب في هذه الحملة الموجهة نحو المنتفق، أنها اسندت من جميع رؤساء القبائل المهمة في وسط العراق وشماله وبواديه، فكان مع الجيش قوات

---

(١٠٤) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٥٨.

(١٠٥) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٣٩.

(١٠٦) يمكن مطالعة الرسائل المتبادلة، في الملحق.

(١٠٧) يمكن الاطلاع على الخطاب في الملحق.

(١٠٨) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ١٨.

(١٠٩) المصدر أعلاه – ص ٢٠.

عشائر ربيعة يتقدمها الأمير – مشكور – وقوات الخزاعل ومقدمتهم الشيخ – سبتي بن محسن المحمد – وقوات عقيل يتقدمهم شيخهم – ناصر محمد الشبلي – وقوات الجشعم، مضافا إليها قوات اللاوند وأغوات الأكراد والتركمان، هذا غير قوات – نجم العبد الله – المعين من قبل الوالي – التوتنجي – أميرا للمنتفق بدلا من أميرها حمود الثامر. بحيث كان حجم الجيش والعشائر المساندة له في مسيرة نحو المنتفق، من أضخم الحملات العسكرية التي شهدها العراق.[١١٠] هذه الحملة الضخمة دفعت حمود الثامر وسعيد بك، للقيام بحركة سياسية ناجحة، حينما كاتبوا قادة الجيش الحكومي، وذكروهم بفضل سليمان الكبير ورعايته لهم، كما وعدوهم بالمناصب والمكافآت الممتازة.[١١١]

في ١٠ كانون الثاني عام ١٨١٣م وقعت المعركة المنتظرة في محل يقال له "أغليوين"* وقد ظهرت أرجحية جيش الوالي في بدايتها بفضل الكثافة النارية التي يملكها ومدفعيته،[١١٢] مما فرق أغلبية جيش المنتفق، إلا أن صمود الشيخ حمود ومعه سعيد بك،[١١٣] مع ما رافق ذلك من استبسال قوات القلب من المنتفقيين والذين يقودهم برغش بن حمود الثامر [١١٤] ومقتل أمير ربيعة على يد صالح الثامر [١١٥]، وانضمام أغلبية جيش الوالي لابن سيدهم القديم،[١١٦] قد أوضح في النهاية حقائق الموقف ونتائجه. إزاء ذلك وجد الوالي وكهيته مع بعض الأتباع أنفسهم

(١١٠) سليمان فائق – الكولومنده – مصدر سابق – ص ٤٢.
(١١١) علاء كاظم نورس – حكم ...... مصدر سابق – ص ٨٦.
* أغليوين: جدول صغير يقع بين مدينتي سوق الشيوخ والناصرية.
(١١٢) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٦ – ص ٢١٥.
(١١٣) المصدر أعلاه – ص ٢١٦.
(١١٤) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٧٩.
(١١٥) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤١٥.
(١١٦) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٥٩.

مطوقين بخيالة المنتفق التي يقودها علي الثامر الذي تولى فيما بعد قتل الشيخ المعين نجم العبد الله،[١١٧] مما اضطرهم إلى الاستسلام، فنقلوا إلى سوق الشيوخ كأسرى، حيث كانت حياتهم معلقة على حياة برغش الذي كان يكافح لحياته ويقاسي آلام جروحه،[١١٨] والتي توفى منها بعد يومين، فكانت نهاية الوالي وكهيته بعد أن شنقوا ورميت رؤوسهم تحت أقدام سعيد بك.[١١٩] وقد كان غضب أمير المنتفق على هذا الإجراء كبيرا، حيث نفى مسببه أخاه "راشد بن ثامر" استنكارا لقيامه بهذا العمل، الذي يتنافى وقيم الفروسية.

لقد كان انتصار المنتفق في هذه المعركة كبيرا،[١٢٠] بحيث أنها لم تمكن أحدا من غزاتها من العودة لأرضه سالما، فبالإضافة لمن قتلوا في المعركة، فقد غرق شيخ الخزاعل أثناء مطاردة خيالة المنتفق له في نهر "المسرهد"*[١٢١] وقتل مقدم الجشعم،[١٢٢] واستسلم المتبقون طالبين "الدخالة". أما بقية الجيش فقد حماهم سعيد بك، بعد أن جردوا من أسلحتهم ومدافعهم وكافة عددهم.[١٢٣]

وهكذا فإن أزمات التوتر والشك لا تقتصر تفاعلاتها على ما هو حاصل في اللحظة إنما تجيء لحظة الشك معبأة بكل ما سبقها وبكل ما يتوقع أن يلحقها من ظنون وتوجسات، وهذا أحد أوجه الفعل الذي يمكن أن تلعبه القبائل في تقرير حقائق الموقف السياسي. وما حصل فإن المنتفق لوحدها، دون كل الإمارات

---

(١١٧) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤١٥.

(١١٨) لونكريك – مصدر سابق – ص ٢٧٥.

(١١٩) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٤١.

(١٢٠) علي الشرقي – الألواح ...... ق ١ – ص ٥٦.

* نهر المسرهد، هو نهر الغراف الحالي.

(١٢١) حمود الساعدي – مصدر سابق – ص ٦٤.

(١٢٢) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٧٩.

(١٢٣) علاء كاظم نورس – حكم ...... مصدر سابق – ص ٨٦.

العراقية أعدمت والياً معيناً بفرمان سلطاني، وعينت آخراً بواقع ما حصل وبقـــوة نفوذها. لذلك فإن دخول سعيد بغداد في السادس عشر من مـــايس عـــام ١٨١٣م، وبصحبته حمود الثامر وجيش المنتفق،[١٢٤] يمثل قمة ما حققته المنتفق مـــن نفـــوذ وهيبة محلياً وإقليمياً.

ومن جديد يواجهنا سؤال جدير بالاهتمام، ... لماذا لـــم تفعلـــها المنتفـــق وتستقل بالوضع ما دامت هي من تقرر وتفعل؟ هل هو تردد مـــن حمـــود الثـــامر والمنتفقيين!!! أم هو الخوف من السلطة العليا في استنبول !!! أم أنهم قدروا عـــدم إمكانيتهم لحكم العراق!!! أم أنهم استشعروا عدم القبـــول مـــن بعـــض الأطـــراف المحلية!!! أم أنهم لم يفكروا أصلاً بهذا الإطار!!! أم ماذا ؟

ما بأيدينا من المصادر والوثائق لا تجيب بشيء عن كل هذه الاحتمـــالات، ما تبقى لدينا هو الاستنتاج والمتمثل بعدم نجاح المنتفقيين وأميرهم فـــي مزاوجـــة "البداوة" المطبوعة بها حياتهم بأشكال "التحضر" القائمة آنذاك، ممـــا دفعـــهم إلـــى الارتحال نحو "بداوتهم" رغم كل إغراءات "التحضر" التي وفرها لهم انتصارهم في أغليوين.

بعد أن تسلم سعيد الفرمان السلطاني بتعيينه والياً على العراق في حزيـــران ١٨١٣م[١٢٥] فقد قدر قيمة المساعدة التي قدمتها له المنتفق، لذلك باتت سلطة ونفوذ هذا الاتحاد القبائلي مساوية لسلطة الوالي، وغدا حمود الثامر حاكماً مـــن خلـــف الستار.[١٢٦] وعليه فبعد أن رتب سعيد باشا أموره داخل بغداد وعين موظفيه فـــي أيالات العراق الثلاثة، عاد حمود الثامر ومقاتلوه نحو "ديرتهم" ليمارســـوا حياتـــهم ونشاطاتهم باستقلالية واضحة مع ما رافق ذلك من هيبة ونفـــوذ كبـــيرين دون أي

---

(١٢٤) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٦٠.

(١٢٥) لونكريك – مصدر سابق – ص ٢٨١.

(١٢٦) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٨٠.

تدخل من قبل سلطات الوالي في حياتهم وأنشطتهم، بحيث شكلت حدود الإمارة معظم العراق الجنوبي وكل البادية الواقعة غرب الفرات حتى حدود واحات القصيم بنجد، يضاف لذلك كل الجزائر والأهوار الواقعة في هذه الحدود، وكانت مساحتها أكثر من (١٠,٠٠٠) ميل مربع.[١٢٧]

في عام ١٨١٦م، تدخل جيوش الوالي، ومعها المنتفق والضفير وعشائر (الرولة) من عنزة برئاسة (الدريعي) في معركة ضد تجمع شمر وزبيد والخزاعل،[١٢٨] الذين هزموا أمام جيش الوالي ومن أعانه بعد أن قتل منهم الكثير،[١٢٩] كان أبرزهم الفارس "ابنيه بن قرينس الجربا الشمري"[١٣٠] والذي كان يعد من فرسان العرب وشجعانها[١٣١] وقد كان ألم أمير المنتفق حمود الثامر لمقتله شديداً، حيث وبخ قاتله ابن أخيه "عيسى بن محمد" وبصق بوجهه وطرده من ديوانه،[١٣٢] ثم قام بدفنه في منطقة (الزرزورية) الواقعة في الجهة اليمنى من نهر الديوانية.[١٣٣]

لم يتمكن الوالي سعيد باشا من ضبط أحوال ولايته، رغم شبابه ومحبة الأهالي له بسبب تدخلات "الحريم" في إسناد وعزل الرجال فيما يخص مناصب الولاية المهمة،[١٣٤] واستهتار الوالي في حياته الشخصية،[١٣٥] هذا غير عدم رضا

---

(١٢٧) عبد الله فياض – الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ – ط ٢ بغداد ١٩٧٥ – ص ٤٥.
(١٢٨) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٦ – ص ٢٢٣.
(١٢٩) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٦٨.
(١٣٠) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٨٦.
(١٣١) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤١٧.
(١٣٢) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".
(١٣٣) حمود الساعدي – مصدر سابق – ص ٧٦.
(١٣٤) سليمان فائق – الكولومنده – ... مصدر سابق – ص ٤٤.
(١٣٥) د. علي الوردي – لمحات ...... ج ١ – ص ٢٢٣.

سلطات استنبول عن تصريفه للأمور في ولايته خصوصا في تقريبه للعـــرب،[١٣٦] لذلك صدر الأمر بنقله إلى حلب، وقد استجاب أولا للأمـــر الســـلطاني،[١٣٧] إلا أن مقربيه فتلوه عن رأيه وجعلوه متمسكا بمنصب ولاية العراق وجرأوه على عصيان أوامر استنبول.[١٣٨]

ترافق مع هذه الأحداث، هجرة أغلب رؤوس المماليك من بغداد، يقودهـــم داود أفندي باتجاه المناطق الشمالية، كلهم ينشدون الحصول على الفرمان السلطاني بولاية العراق.[١٣٩] وقد صدر الأمر من استنبول بعزل – سعيد باشا بـــن ســـليمان الكبير من ولاية العراق وتقليدها إلى داود باشا.[١٤٠] وبات على الوالي الجديـــد أن ينتزع وبأي شكل مركز ولاية بغداد، لكي يثبت لمركز السلطة في استنبول جدارتـه وأهليته فيما أنيط به من مسؤوليات، لذلك أسند في مسعاه هـــذا بقـــوات حكوميـــة أرسلت من الأناضول، وأردف بقوات من الجليليين في الموصل، هذا غير قواتـــه التي استطاع جمعها من أغوات الأكراد والمماليك الفارين من ســـعيد باشـــا.[١٤١] ولذلك شد رحالة متوجها نحو بغداد عازما على دخولها بالقوة أن لم تستجب للأمـــر السلطاني. أما سعيد فلم يجد معادلا للقوة المهاجمة لمقر ولايته، غير القوات التـــي نصبته واليا عام ١٨١٣م، ونقصد بها قوات المنتفق، لذلك كتب مستعطفا إلى حمود الثامر، يخبره بواقع الحال ويطلب نجدته،[١٤٢] فوصل مع (١٥٠٠) مقاتل مما أنعش

---

(١٣٦) علاء كاظم نورس – حكم ...... مصدر سابق – ص ٩٠.

(١٣٧) المصدر السابق – ص ٩١.

(١٣٨) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٥٤.

(١٣٩) لونكريك – مصدر سابق – ص ٢٨٤.

(١٤٠) عباس العزاوي – تاريخ ... ج ٦ – ص ٢٣٧.

(١٤١) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٥٥.

(١٤٢) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٩٦.

معنويات الوالي المتدهورة.[١٤٣] بعد أن استكمل داود باشا استعداداته توجـــه نحـــو بغداد التي كانت تواجه أزمة اقتصادية متفاقمة عازمـــا علـــى دخولـــها بـــالقوة ان استعصت عليه، إلا أن اصطدامه الأول لسوء حظه، كان مع قوات المنتفق فـــي ٧ كانون الثاني ١٨١٧م حيث تمكن رجال المنتفق من إيقاع الهزيمة به، بعد أن فاجأوا قواته وأدهشوها بالبسالة القتالية، ففرقوا جيشه متبعـــثرا،[١٤٤] بل أنـــهم كـــادوا أن يؤسروا داود باشا نفسه إلا أنه أفلت بأعجوبة.[١٤٥]

بعد هذه الموقعة، انسحب داود باشا وقواته نحو الشمال، بعد أن قدر عـــدم إمكانياته على تحقيق ما يصبو إليه بوجود قوات المنتفق في بغداد، علـــى الجـــانب الآخر، فقد اعتقد سعيد باشا بعد هذا الانتصار أنه أصبح بمأمن من المفاجآت، لذلـــك إذن – تحت ضغط الظروف الاقتصادية – لجيش المنتفق بالعودة إلى ديـــاره،[١٤٦] فحكم على نفسه بهذا القرار بالهلاك، لأن هذه القوات هي التي حمت بغداد، حينمـــا كانت موجودة، لكن بعد انسحابها فقد دخل داود باشا وقواته المدينة بســـهولة ودون خوض أية معركة،[١٤٧] في العشرين من شباط عام ١٨١٧م، بموكب فخم، بعـــد أن راسله الأعيان والعلماء بدخول بغداد وتولي السلطة فيها.[١٤٨]

بعد استتباب الأمر لداود باشا فقد قدر – وكان تقديره ســـليما – أن الخطـــر المباشر لسلطته يتمثل بقوة ونفوذ المنتفق ووحدتها، لذلك كرس جهوده لضرب هـــذه القوة من داخل سياجها، وليس من خارجه، مع ما جبل عليه من صبر وجلد وطـــول

(١٤٣) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٧٤.
(١٤٤) لونكريك – مصدر سابق – ص ٢٨٥.
(١٤٥) علاء كاظم نورس – حكم ...... مصدر سابق – ص ٩٨.
(١٤٦) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٦ – ص ٢٣٩.
(١٤٧) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٥٥.
(١٤٨) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٦ – ص ٢٤١.

نفس في تحقيق أهدافه. ولم تلطف الجو القائم بين الإثنين الرسل المتبادلة، التي أفاد بها حمود الثامر، الوالي باحتلال الدرعية من قبل قوات إبراهيم باشا وسقوط إمارة آل سعود،[١٤٩] أو في الوفد الكبير الذي أرسلته المنتفق محملا بالهدايا عام ١٨٢٠م بمناسبة ختان – طوسون – نجل الوزير داود باشا.[١٥٠] وقد التقى الوالي بالوفد، واستطلع رأي بعضهم بضرورة تبديل أمير المنتفق لكبر سنه وكفافه، إلا أنه جوبه بموقف موحد ومتمسك بإمارة حمود الثامر الأمر الذي دفع داود باشا بالتريث وحساب الخطوات ومداها في هذا الأمر.[١٥١]

أما المنتفق فقد قدرت منذ البداية أن علاقتها ستكون متأزمة مع داود باشا، نظرا لدورها في الدفاع عن سعيد باشا وهزيمة قوات داود، هذا غير أن ذكرياته عن إعدام المنتفق لواليه السابق عبد الله باشا التوتنجي ما زالت طرية وحاضره في الذهن، علما أن داود كان يحتل منصب "الدفتر دار"* في زمن المذكور، وهذا أحد أسباب الحقد الدائم من داود على المنتفق، لكونها مرغت كبرياءه لمرتين. لذلك فيخيل إلي، أن داود باشا تغاضى في خلال سنين حكمه الأولى عن المنتفق، تاركا لها حريتها واستقلالها كما هما، عائد للأسباب التالية: الأول: أنه يعرف قوة المنتفق وما تجلبه عليه عداوتها من أذى، الثاني: أنه انشغل بحركات عصيان متعددة قادها أولاد سيده السابق سليمان الكبير وأغا الإنكشارية – عليوي – وقاسم الشاوي وغيرهم،[١٥٢] الثالث: أنه لم يجد الشخصية الموازية في المنتفق وفق تقديره للثقل الذي يمثله حمود الثامر من هيبة ونفوذ. لذلك فقد تمسكت المنتفق بأوضاعها، ولم

---

(١٤٩) الكركوكلي – مصدر سابق – ص ٢٨٧.

(١٥٠) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٣٢٤.

(١٥١) الصوفي – مصدر سابق – ص ١٨٣.

* الدفتر دار: كلمة فارسية تركية مركبة من دفتر المعروفة، ودار صاحب أو حامل، ويراد بها المسؤول عن الحسابات، أي رئيس موظفي الواردات والخزينة.

(١٥٢) د. عبد العزيز سليمان نوار – مصدر سابق – ص ٨٠ – ٨٦.

تتنازل عن سيادتها في مجال نفوذها لسلطات داود باشا، بل أنها أبعدت موظفيه ومنعت دخولهم لديرتها. وكان أبرز ما حدث، حينما أهمل حمود الثامر مقابلة مندوب الوالي (إبراهيم بك آل عبد الجليل) الذي أرسل لديار المنتفق عام ١٨٢٣م لأمر هام، بحيث أنه لم يقابله إلا بعد شهر من وصوله، تحقيرا للوالي وإشعاره بقوة المنتفق.(١٥٣)

هذه الأزمات دفعت الأمور إلى التعقيد بعد أن وجد داود باشا، أن حمود الثامر القوة الحقيقية في العراق الجنوبي، مما دفعه أن يشجع كل منافس لأمير المنتفق يتطلع لموقع الإمارة، فكثر المرشحون، فكان هناك محمد بن عبد العزيز بن مغامس وبراك بن ثويني العبد الله وحنيان بن مهنا بن فضل بن صقر وعجيل بن محمد الثامر، ... وغيرهم مما سبب لغطا وتقولات كثيرة في داخلية المنتفق الأمر الذي دفع حمود الثامر إلى عقد تحالف مع الشيخ غثيث بن غضبان أمير كعب، يتضمن مناصرة أحدهم للآخر بوجه محاولات داود باشا.(١٥٤)

استغل الوزير من جانبه تطلع البعض للإمارة، فوجدها فرصة لا تتكرر في التدخل بالشؤون الداخلية للمنتفق، لذلك أعلن عن عزل الشيخ حمود الثامر عن الإمارة وتوليتها للشيخ "عجيل بن محمد بن ثامر بن سعدون الكبير" المعروف ب "أخو سعدى"* بعد أن ألبسه خلعة الإمارة في الأيام الأولى من عام ١٨٢٦م،(١٥٥)

---

(١٥٣) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٢٥.

(١٥٤) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٣٦٥ – ٣٦٦.

* أخو سعدى: بعد أن طلق والده والدته، فقد عاش عجيل مع أخواله "التغالبة" أمراء عشائر ربيعة طفولته وشبابه. وهذا ما كانوا ينتخون به في الشدائد، ولأن الطفل يحتفظ بالمخزون التراثي الذي تعلمه أول مرة، ويحافظ عليه في مختلف أطوار عمره، فقد ظلت نخوة الشيخ عجيل ب – أخو سعدى – تأثرا بأخواله، ملتصقة به طيلة حياته، عكس ما ينتخي به ابناء المنتفق أو أبناء عائلة آل شبيب ب (منشه) أو (نوره) على التوالي.

(١٥٥) المصدر السابق – ص ٣٦٨.

وزوده بالكثير من الأسلحة والذخائر، وأمره بالتوجه إلى سوق الشيوخ وطنه ومركز إمارته، مع ضرورة التمهل والحذر في الدخول بقتال ضد الشيخ حمود.[١٥٦] كما طلب الوزير من متسلم البصرة أن يعلن هذه الإجراءات في أرجائه وأن يحافظ على البصرة من المفاجآت.[١٥٧]

ولأن الشيخ حمود ليس من أولئك الذين تصادر إرادتهم أية قرارات حكومية، فقد بادر إلى الطرق على الحديد وهو ساخن، حينما أمر ولديه ماجد وفيصل بتطويق البصرة التي أخذت تقاسي أهوال الحصار الذي استمر شهرين. بنفس الوقت جرى تنفيذ تحالفه مع – كعب – حين وصلت قواتها وانضمت لقواته في تنفيذ الحصار. ترافق مع ذلك أن قطعا من أسطول "مسقط" قد رست بقوتها تحت أمره قوات المنتفق لتقطع الطريق البحري عن المدينة المحاصرة، متضامنة مع الشيخ حمود وتنفيذا لطلبه.[١٥٨]

وجود هذه القوات أزَّم الوضع وصعَّد من توتر الأحوال، بحيث كانت البصرة مهددة بالسقوط. وقد عالج متسلم البصرة أحواله الصعبة هذه، بدهاء حينما تمكن من رشوة قائد أسطول مسقط الذي انسحب لدياره،[١٥٩] وكاتب أمير كعب، محذراً ومنبهاً لخطورة مساعداته لحمود الثامر، فانسحبت قواته،[١٦٠] ولأن إطالة المدة من الأمور التي لا تطيقها قوات العشائر، ولأن ذلك ما حدث فقد وجد – ماجد بن حمود الثامر – نفسه وحيداً يخوض معركة خاسرة مع قوات المتسلم بعد

---

(١٥٦) د. عبد العزيز نوار – مصدر سابق – ص ١١٠.

(١٥٧) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٦ – ص ٢٩٣.

(١٥٨) لونكريك – مصدر سابق – ص ٣٩٨.

(١٥٩) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٣٧٠.

(١٦٠) د. عبد العزيز نوار – مصدر سابق – ص ١١١.

انسحاب أخيه – فيصل – نحو أبيه متخاذلاً، مما اضطره هو الآخر أن ينسحب متراجعاً.(١٦١)

إزاء التراكم الحاصل في سرعة الأحداث وتقلبها، ولأن أمير المنتفق الجديد، مسنود بقوات حكومية ذات كثافة نارية شديدة، فقد انسحب الشيخ حمود نحو البادية، راصداً ومراقباً للأحداث، حيث اتضح له بعدها أن أغلبية أبناء المنتفق تؤيد شيخ مشايخها الجديد، (١٦٢) بعد أن أغرتهم السلطة الحاكمة بالوعود والأموال. لذلك وجد – أخو سعدى – ضرورة ايقاف الشيخ حمود لخطورته وهذا ما تحقق له في تشرين الثاني ١٨٢٦م، حينما استطاع أسره، حيث أرسله إلى الوزير في بغداد والذي وضعه تحت الإقامة الجبرية.(١٦٣) في تقديري أن ارتقاء – أخو سعدى – لموقع الإمارة مع كل ما يتصف به من كفاءة وشجاعة ومؤهلات أخرى، وأزاحت الأمير السابق بِقوة ونفوذ القوات الحكومية، أجده من أقسى الضربات وأوجعها التي تلقتها المنتفق طيلة أيام وجودها – لأن الخروج على المنتفق وبالطريقة التي حدثت وبوجود أميرها العظيم حمود الثامر يشكل حالة من حالات الانحدار في النفس وفي القيم وفي هيبة الموقع أو السلطة، لذلك لم يكن متوقعاً حدوثه من قبل ابن أخيه – أخو سعدى – وبانتهاء حكم الأمير حمود الثامر، ينتهي أهم فصول تاريخ المنتفق، وهو فصل كفاحهم السياسي الصريح من أجل الإمارة والاستقلال، وبدأ مكانه طور جديد اتسم فيه تاريخها بالتحول نحو الاستقرار والتوطن في المناطق الزراعية.(١٦٤)

بعد أن حُسمت الأمور في المنتفق لصالح أخو سعدى فقد طمح إلى إقناع كل أبناء "ديرته" بجدارته وأهليته لتولي هذا الموقع بعد حمود الثامر، وهذا ما دفعه

---

(١٦١) عباس العزاوي – تاريخ ... ج ٦ – ص ٢٩٣.

(١٦٢) المصدر السابق – ص ٢٩٥.

(١٦٣) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤٢٤.

(١٦٤) د. عماد عبد السلام رؤوف – الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في القرون المتأخرة – مديرية دار الكتب للطباعة والنشر – بغداد ١٩٩٢ – ص ٤٢٢.

إلى تبني سياسة الترضية مع كل معارضي إمارته وفي المقدمة منهم أعمامه وأشقائه وبني عمومته، وقد نجح في ذلك. مع الجميع باستثناء أبناء حمود الثامر الذين رفضوا التسليم بما حدث وذهبوا ضيوفا عند شيوخ المحمرة الذين أحسنوا وفادتهم.(١٦٥)

من جانب آخر، فقد سعى أخو سعدى إلى توسيع حدود إمارته، خصوصا في المناطق الزراعية المثمرة، وكان إن تطلع أولا إلى إمارة أخواله من "ربيعة" والمحاددة لمناطق نفوذه الشمالية، فجهز جيشا وسار به معاكسا لتيار نهر الغرّاف، ودخل وإمارة ربيعة في معركة سميت بمعركة "الشطرة الأولى" في شهر ربيع الأول ١٢٤٤هـ المصادف ١٨٢٨م، انتهت بانتصاره وجلاء أمراء ربيعة من مناطقهم إلى منطقة "شادي" شمال مدينة الكوت الحالية.(١٦٦) وقد نقلت نتائج هذه المعركة ولاءات عشيرتي (عبودة وبني ركاب) من ربيعة إلى المنتفق، من خلال أدائهما للضرائب ومشاركتهما في معارك وغزوات المنتفق اللاحقة،(١٦٧) كما أثرت هذه المعركة في الموروث الشعبي وبشكل خاص في الأشعار التي قيلت فيها، حيث ظلت اللازمة القائلة:

[آلي يريد البرص* ما ينزل بشادي**

منزله بين العبد والجادرية***]

---

(١٦٥) حسين خلف – مصدر سابق – ج ١ – ص ٧٨.

(١٦٦) يعقوب سركيس – ق ٣ – مصدر سابق – ص ٣١٦.

(١٦٧) المصدر أعلاه – ص ٣١٨.

* البرص : أرض منبسطة تقع غربي مدينة الشطرة الحالية، وكانت منازل أمراء ربيعة.

** شادي: نهر يقع شمال مدينة الكوت الحالية.

*** العبد والجادرية: تلان يقعان شرق مدينة الشطرة.

تشير بوضوح إلى النتائج النهائية لصراع الإرادات بين الإمارتين في تلـــك الفترة.[١٦٨]

ما تحقق شكل أولا رصيدا ونصرا لأمير المنتفق – أخو سعدى – أمام أبناء "ديرته" دفعته مستغلا ذلك النصر وارتفاع معنوياته ومعنويات مقاتليه، إلى أن يحسم حدود إمارته المترجرجة مع الخزاعل، لذلك ما أن أطل شـــهر شـباط مـــن عـــام ١٨٢٩م، حتى كانت جيوش المنتفق بقيادة أميرها، تلتقي جيش الخزاعل الذي يقـوده شيخها ذرب بن مغامس آل سلمان،[١٦٩] في معركة تقع غرب السماوة تستمر عشرة أيام، قدم فيها الطرفان ألوانا من الشجاعة والإقدام، انتهت بانتصار المنتفق وتثبيـــت حدودهم عند سدرة "الأعاجيب"* بعد أن وسمها أخو سعدى بوسم المنتفق المعـــروف "الشبيبية"،[١٧٠] مؤكدا في ذلك النصر، أهمية السماوة وعشائرها لمصـــير المنتفـــق وللعراق فيما بعد.

مثلما كانت قوة ونفوذ أخو سعدى في المنتفق وما حولها في صعود مضيفـة هيبتها وحقائق القوة التي تملكها وتحت تصرفها على عموم الإقليم الذي يمتد عليـــه نفوذها، كانت أحوال حليفه والي بغداد داود باشا في تدهـــور، بعـد أن تدهـورت علاقته مع استنبول، خصوصا بعد إعدامه لمبعوث السلطان (صادق أفندي) والـــذي وصل بغداد مفتشا وراصدا مع التفويض بخلع وإنهاء حكم داود باشا ومماليكـــه،[١٧١] ترافق مع ذلك انتشار مرض الطاعون في بداية صيف عام ١٨٣٠م، مما أضـــاف

---

(١٦٨) م. ص: منح – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(١٦٩) حمود الساعدي – مصدر سابق – ص ٨١.

* سدرة الأعاجيب: شجرة نبق قائمة على متن نهر الفرات، فوق مدينة السماوة، ... والأعاجيب، عشيرة تنضوي تحت راية الخزاعل، ... يراجع: لغة الغرب – المجلد الأول – ص ٢١٧.

(١٧٠) يعقوب سركيس – ق ٣ – مصدر سابق – ص ١٧٠.

(١٧١) د. علي الوردي – لمحات ... ج ١ – ص ٢٦٧.

هما جديدا لبغداد، والتي اتجه نحوها جيش سلطاني يقوده والي حلب (علـــي رضـــا باشا اللاز) بعد أن اتضح أن استقلالها عن مركز القرار في استنبول أمر لا يطـــاق ولا يأتلف مع الاحترام الذاتي للإمبراطورية الأم.[١٧٢]

دفع ازدياد تدهور الأوضاع من جراء المرض والجوع وانقطـــاع السـبل الناس في بغداد إلى أن ينحصر تفكيرهم بالموت وحده بعد أن تعطلت الحيـــاة عـــن ايقاعها في هذه المدينة، كما أن نهر دجلة قد شارك في الإعلان عن غضبـــه ممـــا يحدث، ففاض وأغرق المدينة وأحاط بها، بحيث لم يمنح لأحد إمكانية الهرب منـــها. إن تجمع هذه الكوارث وزحف الجيش السلطاني القادم نحو بغداد زاد مـــن معانـــاة الناس وشقائهم.

إزاء هذه الأحداث والكوارث، وبعد أن استطاع أبناء بغداد طـــرد طلائـــع جيش – اللاز – التي يقودها "قاسم باشا العمري" ومن ثـــم قتلـــه، وعـــدم إمكانيـــة التوصل إلى نتيجة، فقد تطلع سكان بغداد إلى وصول جيش المنتفق والـــذي يقـــوده أميرهم أخو سعدى لفك الحصار عنهم، إلا أن تلك المحاولة صدت وأبعدت قـــوات المنتفق عن إمكانية نجدتها لبغداد.[١٧٣] كما اقترح على داود باشـــا، بـــالفرار إلـــى المنتفق بعد أن ضاقت السبل به، إلا أن مرضه وضعفه منعـــاه مـــن تنفيـــذ ذلـــك الاقتراح.[١٧٤]

أمام هذه الإرباكات والإيقاع غير المنتظم لمجمل الأنشطة فضـــل البعـــض من متنفذي بغداد ووجهائها أن يصانع المهاجمين، من خلال تسهيل أمـــر دخولـــهم

---

(١٧٢) لونكريك – مصدر سابق – ص ٣١٥.

(١٧٣) سليمان فائق – الكولومنده – مصدر سابق – ص ٥٩.

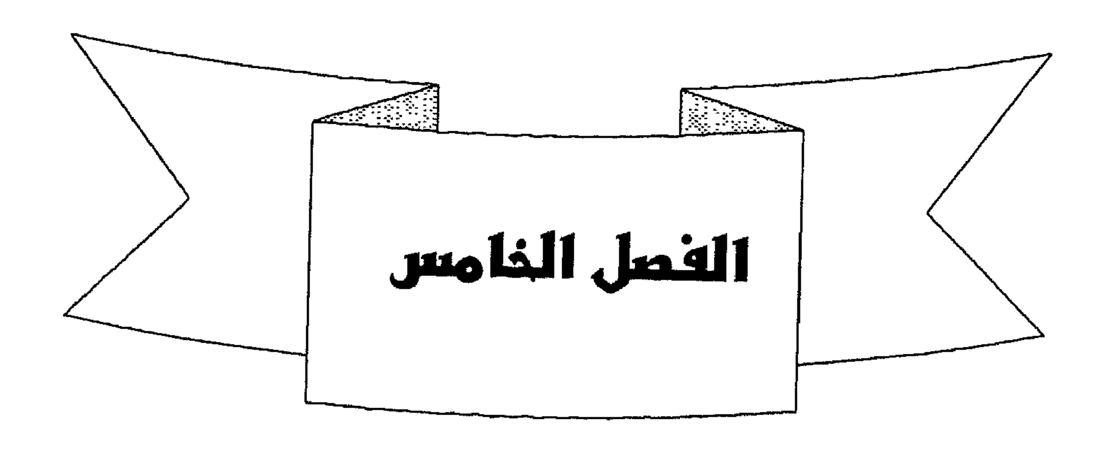
(١٧٤) علاء كاظم نورس – حكم ... مصدر سابق – ص ٢٦٨.

بغداد، وهذا ما حدث في ١٤ أيلول ١٨٣١م، حينما انتقلت بغداد من سيطرة يد إلى يد أخرى وبدون مقاومة وعناء.[١٧٥]

وبدخول هذه القوات إلى بغداد انتهت فترة حكم المماليك، بعد أن ترافقت الكوارث الطبيعة النازلة ببغداد، مع قوات الدولة التي يقودها – اللاز – لتقطع أنفاس دولة المماليك وتقبرها ولتبدأ مرحلة أخرى من مراحل الحكم العثماني للعراق.

---

(١٧٥) د. عبد العزيز نوار – مصدر سابق – ص ٢٧٦.



السيطرة المركزية والتهديم

لم تكد بغداد تلملم جراحاتها التي بدأت واضحة في جسدها جراء مـــرض الطاعون الذي انتشر فيها ومنها إلى عموم العراق ومن الجوع الذي رافقه وفعـــل فعله في حركة الناس وما صاحب ذلك من معارك بعضها قاتل فيها أهل بغداد ضـد الجيش القادم لاحتلال هذه المدينة، وبعضها كان داخليا، جراء الانقسام الذي تـــرك أثره في مزاج الناس بشكل مترجرج، بسبب الولاءات المتناقضة للسكان، سواء تلك التي اصطفت مع داود باشا ومماليكه أو تلك التي تطمع للتمسك بما تقتنصـــه مـــن فرصة من الوالي الجديد، هذا غير ولاءات الناس العشائرية والدينية والاجتماعيـــة، والتي لها حصة في شكل الأحداث ومساراتها.

لم تكد تلك الجراحات بالكاد تلتئم حتى كان "علي رضا باشا اللاز" يدخـــل بغداد لينهي عهد المماليك، وليباشر سلطة استنبول المباشرة على الإقليم العراقـــي، والتي كانت أحد الأهداف الأساسية للسلطان "محمود الثاني" في إصـــلاح أوضـــاع إمبراطوريته، بعد أن اتضح لديه مدى الأطماع الأوروبية وعمقها بممتلكاته، والتـي عاش كثيرا من أحداثها المؤلمة، وبان له واضحا مدى التخلـــف المعشـــعش فـــي أركان كل أجهزة الدولة، والتي أقنعته، أن ليس بالإمكان إصلاحـــها إلا بالســـلطة المباشرة والمركزية من قبل مركز السلطة في استنبول. وكانت أحد هذه الأهـــداف التي سعى – على ضوء إمكاناته – لتحقيقها، إزالة حكم المماليك في العراق، وهـذا ما تحقق في تلك الحملة التي قادها الوالي – اللاز –

بعد تلك الأحداث الدامية، وجدت المنتفق نفسها من جديد في صدامٍ مباشـــر مع السلطة الجديدة التي سعت إلى إسقاط وأبعاد كل من آزر الحكم السابق، لذلـــك وبعد أن احتل – اللاز – بغداد، فقد جرى قبل هذا الاحتلال وأثناءه، إطلاق ســـراح جميع المسجونين، وكان في مقدمتهم الشيخ "حمود الثامر" أمير المنتفق السابق الذي قصد مباشرةً صديقه القديم "صفوك فارس الجربا" شيخ مشايخ شمر، والذي جاء مع

الحملة الجديدة معينا لها في القضاء على حكم داود باشا،[1] والذي قدمـــه للوالــي الجديد، حيث شرح له أوضاع المنتفق وتأمر أخـــو ســعدى بمعونـــة داود باشـــا ومماليكه، فأمر الوالي بإعادة أولاد حمود الثامر من منفاهم في المحمرة، لغـــرض استلامهم إمارة المنتفق التي عزل عنها عجيل بن محمد الثامر.[2] وأرى أن الوالــي تحفظ في إعادة حمود للإمارة لأسباب متعددة، منها كبر سنه وكفافه وتخوفه منـــه لقوة شخصيته وطموحه، هذا غير أن السلطة تحاول أن تراهن على اسباغ فضلـــها على شخص مجهول لها، على أن تمنح ذلك لآخر معروف لها، مثل حمود الثامر، كما أني أستنتج أن – حمود – قد زهد بالإمارة والمشيخة، إزاء ما حدث له، وبـدى يتطلع أن يتداولها أولاده وهو على قيد الحياة.

لذلك كتب حمود لأولاده بضرورة الإسراع نحو بغـــداد مـــع مناصريـــهم لغرض استلام أوامر الوزير الجديد. وفي أثناء انتظاره لمجـــيء أولاده، أصيـــب بالطاعون، فتوفى في ١٣ شعبان ١٢٤٧ هـــ الموافق ١٨٣١م عن عمر يتجـــاوز السبعين، ودفن في المكان المسمى "تل أسود".[3] وكان فقدانه أليما عند الجميع بمـــا فيهم أعدائه، فهو بطل الأساطير القبلية، وهو الفرد المتميز في الشجاعة والتدبـــير والكرم والذكاء والدهاء والمرونة، وأيامه ومواقفه مشهوده..[4]

بعد وصول رسائل حمود الثامر لأولاده، فقد توجهوا نحو بغـــداد لمقابلـــة الوالي الجديد، فوجدوا أن أباهم قد غادر الحياة، فزادهم هذا الأمر ألما وعزيمة على خلع أخو سعدى ومحاربته، لذلك واجهوا الوالي – اللاز – وأعلموه بنيتـــهم ومـــا يهدفون إليه، فبارك مسعاهم من خلال أوامره إلى الكتخدا (بكر الحلبي) بمـــؤازرة

---

(١) د. عبد العزيز نوار – مصدر سابق – ص ٢٦١.
(٢) عثمان بن بشر – ج ٢ – مصدر سابق – ص ٨١.
(٣) المصدر السابق – ص ٥٥.
(٤) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٢١.

هذا الهدف بقوته العسكرية، وطلب أيضاً من الشيخ – صفوك الفارس – أن يرافق الحملة العسكرية هو وعشائره عوناً لأولاد حمود الثامر.[٥]

بعد أن تقدمت القوات الغازية لديار المنتفق، استعد لها – أخو سعدى – وقواته، حيث دخل الطرفان في معركة استمرت أسبوع سميت (بحرب الشطرة الثانية). وجرت شمال مدينة الشطرة الحالية في آذار ١٨٣٢م. ورغم قلة قوات المنتفق ورداءة تسليحها قياساً لأعداد وعدة الجيش الغازي، إلا أنها كادت أن تحقق النصر، لولا أن داهمها مرض "الهيضة"،[٦] فسقط العديد من فرسان المنتفق ورجالها الشجعان بدون قتال، وكان أحدهم أميرهم عجيل بن محمد الثامر مما سهّل للقوات الغازية أن تحقق النصر بعد أن قتل الأمير أخو سعدى من قبل أبناء عمه، أولاد حمود الثامر.[٧] وجرى دفنه في الموضع المسمى "أصبيخ"* شمال شطرة المنتفق القديمة، عن عمرٍ يناهز الثالثة والأربعين.[٨] والغريب في ما حدث أن (صفوك الفارس الجربا) قد ساهم في دعم صديقه عجيل أثناء حربه ضد عمه حمود، لكننا نراه الآن محارباً له وداعماً مناوئيه أولاد حمود الثامر !!!

بعد تلك الأحداث، تولى "ماجد بن حمود الثامر" مشيخة المنتفق مدعوماً من قبل والي العراق.[٩] ولم يحدث في إمارته ما يستحق الذكر، لأن عموم أهل

---

(٥) عبد العزيز نوار – مصدر سابق – ص ١١٢.

(٦) م. ص : مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(٧) عبد العزيز نوار – مصدر سابق – ص ١١٢.

* أصبيخ: تل قليل الارتفاع في الشمال الغربي لمدينة الشطرة على بعد نحو (٤) كلم عنها، وقد مر به "سعدون باشا" عام ١٩٠٣م بعد موقعته الدموية مع القوات العثمانية في المدينة، وأقام له عرضاً عسكرياً احتراماً له.

(٨) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(٩) د. عبد العزيز سليمان نوار – تاريخ العراق الحديث – دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٨ – ص ١٦٣.

المنتفق قد ركنوا للهدوء والسلام. وبعد عام على إمارته، توفى فخلفه أخوه "فيصل" والذي لم تستمر إمارته أكثر من ستة أشهر، توفى بعدها، فشغل مكانه رجل المنتفق القوي في حينه "عيسى بن محمد الثامر" بعد أن كتب لوالي بغداد يطلب المشيخة مدعوما من عموم أهل المنتفق، فجاءت الموافقة على ذلك في الأيام الأخيرة من عام ١٨٣٣م.(١٠)

وتعليقي على ما حدث، أن شكل الثارات التي دفعت أبناء العم إلى الاقتتال قد أربحت والي بغداد – أيا كان – وثلت من قوة المنتفق وعنفوانها الشيء الكثير، فأبناء حمود الثامر، الذين قادوا حركة التمرد والعصيان، ضد أخو سعدى لم يكونوا بكفاءة وتدبير أبيهم، أو بكفاءة عجيل بن محمد الثامر، لذلك كانت الأحداث ونتائجها خسارة على المنتفق، وما مقتل أخو سعدى إلا خسارة مضافة إلى الخسائر الباهظة التي أصابت المنتفق في أعماقها.

بعد أن استقرت الأوضاع لصالح – عيسى – من دون منافس يهدد مركزه، فقد تطلع إلى الاستيلاء على مدينة الزبير ذات الاستقلال الداخلي، ضمن نفوذ إمارة المنتفق، بدفع من (محمد بن إبراهيم الثاقب) منافس "آل زهير" حكام الزبير في حينه وعموما فقد توجه جيش المنتفق ليضرب حصارا على الزبير دون سبب مقنع أو مبرر قوي، سوى أن المنتفق قد انحازت لطرف دون آخر من طرفي الصراع على مشيخة البلدة، وقد انحاز شيخ الكويت لجانب المنتفق في ذلك الحصار(١١)، الذي استمر سبعة أشهر، انتهى بدخول المدينة بعد نفاد الطعام والرصاص عند المدافعين في آذار ١٨٣٤م، وشهد نهاية الحصار مجزرة ضد "آل

---

(١٠) عثمان بن سند – مصدر سابق – ج ٢ – ص ٨٢.

(١١) حسين خلف – مصدر سابق – ج ١ – ص ١٠٢.

زهير" اشتركت فيها كل الأطراف المنتصرة[١٢]، بعد أن رفض أمير المنتفق المساومة على دم عمه (علي الثامر) الذي قتل أثناء الحصار، بالذهب الذي عرضه عليه عبد الرزاق الزهير.[١٣]

أنتشرت حالة الهدوء والسكينة في أراضي المنتفق أيام عيسى حيث لا حروب داخلية ولا غزوات خارجية، مع ما رافق ذلك من خير وبركة مَنَّ بهما الله على السكان، الأمر الذي وفر للجميع السلام والعيش الرغيد. بنفس تلك الفترة وخلال ثلاث سنوات ابتدأت من عام ١٨٣٤م، فقد انقرضت آخر الإمارات العراقية المستقلة وشبه المستقلة، حيث صفيت إمارة "آل الجليلي" في الموصل، وإمارة بابان، ثم لحقتها إمارة العمادية،[١٤] وحتى المشيخات القوية والمؤثرة قد بدأت تتراجع عن واقع نفوذها السابق، مثل مشيخة الخزاعل في الفرات الأوسط، وآل عبيد، عند أعالي دجلة، هذا غير انطباع مشيخة شمر في الجزيرة بالتحالف الدائم مع نهج الدولة.[١٥] كل ذلك جاء متأتياً من توجه الدولة المركزي، نحو إقرار السيطرة المركزية، وهذا بلا شك مهما كانت أسبابه، سيؤثر سلباً على إمارة المنتفق التي ستواجه الدولة بقضها وقضيضها لوحدها، دون قوى مساندة تعينها بالمشاغلة، لذلك سرعان ما أحست الدولة بقوتها بعد نجاحها في فرض السيطرة المركزية، فاختلقت أزمة مع المنتفق في عام ١٨٣٨م، مردها الضرائب الواجب دفعها، مما أزَّم الموقف، الأمر الذي دفع – اللاز – إلى التفكير بترشيح أمير جديد على المنتفق، بدلاً من الشيخ عيسى، وبعد التداول مع متسلم البصرة، جرى الاتفاق على ترشيح (فارس بن علي الثامر) لذلك الموقع، وجرى استقدامه إلى بغداد، حيث

---

(١٢) أحمد نور الأنصاري – النصرة في أخبار البصرة – تحقيق د. يوسف عز الدين – ط ٢ – مطبعة الشعب – بغداد ١٩٧٦ – ص ٣٨.

(١٣) حسين خلف – مصدر سابق – ص ١٠٢.

(١٤) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٧ – ص ٢٧ – ٣٨.

(١٥) لونكريك – مصدر سابق – ص ٣٣٤.

التقى الوزير الباشا، الذي أعجب به وبشخصيته ووافق على إسناد إمارة المنتفق له، مع استعداد الدولة لإمداده بالعون والمساعدة العسكرية إن رغب بذلك. لذلك صدرت الأوامر إلى متسلم البصرة في بداية عام ١٨٣٩م، بإعلان عزل الشيخ عيسى بن محمد وتولية إمارة المنتفق للمرشح الجديد، الذي بادر إلى التحرك نحو سوق الشيوخ، مركز الإمارة، بعد أن رفض أي شكل من أشكال المساعدة العسكرية الحكومية والقبلية التي عرضها عليه وزير بغداد، اعتقادا منه أنه لن يواجه أية متاعب أو مضايقات. إلا أن ذلك الاعتقاد الواهم، بددته الإرادة المتوثبة لأمير المنتفق عيسى، الذي بادر إلى ملاقاة مرشح الوالي الجديد قرب مدينة النعمانية الحالية، مع مفرزة خيالة حسنة العدد والعدة، مجهضا من خلال حسمه السريع أي أثر لتدخل والي بغداد في شؤون المنتفق، بعد أن أخذ من مرشح الوالي "الكرك"* وسلاحه وفرسه، ثم طلب من مرافقي فارس أن يعودوا إلى اللاز وينقلوا له ما شاهدوا مع أيصائهم إن غضب الوالي أو رضاه لم يعد مهما إزاء ما حدث.(١٦)

بعد فشل هذه المحاولة، إزدادت صلابة المنتفق وتطلعت نحو التأثير الأبعد أمام سلطات وال كانت خطته الوحيدة في حكم القبائل أن يحرك قبيلة على أخرى يترافق مع ذلك كسل وسمنة يمنعانه من إجهاد نفسه في العمل،(١٧) خصوصا وأن تلك السنين قد شهدت اندفاعا قويا ومؤثرا لسلطات والي مصر محمد علي باشا في إقليمي الشام والجزيرة العربية. لذلك فقد بادرت المنتفق في الضغط المتوازي على سلطات بغداد واستنبول، حينما كتب الأمير عيسى بن محمد إلى قائد الحملة المصرية في شبه الجزيرة العربية "خورشيد باشا" رسالة ودية في ١٢ آب ١٨٣٩م،

---

* الكرك: اللباس الخاص الذي يمنحه الوالي لشيخ مشايخ المنتفق تحديدا، ويعني تأييد الدولة له ودعمها وقبولها لمشيخته. لذلك قال الشاعر:

ودو لأخو نورة الكرك ودوله ... لا يزعل ويلحك بقايا العسكر

(١٦) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(١٧) لونكريك – مصدر سابق – ص ٣٣٩.

مشيراً فيها إلى فرحهم بالانتصارات التي تحققت ضد العثمانيين.[18] وبتقديري أن تلك الرسالة لا تخرج عن كونها من صيغ المجاملة الهادفة للضغط على ولاة بغداد، خصوصاً وأن المنتفق ظلت تمارس نفوذها الفعلي على إقليمها دون أي تدخل من السلطات الحكومية، مستندةً في ذلك إلى قوتها الفعلية، في ظل وجود أميرٍ شجاع ومحبوب وكريم في حين كانت حقائق القوة للدولة بعيدة عن التأثير الحقيقي في أوضاع المنتفق لأسباب كثيرة ومتعددة، يقف في مقدمتها عجز وقلة إمكانات الوالي الجاهزة للعمل.

في بداية عام ١٨٤٢م، توفى الأمير عيسى بن محمد الثامر محترقاً بعد أن اشتعلت النار في داره أثناء نومه فيها،[19] وقد أرخ الناس وفاته بعبارة "الشيخ حريق".[20] وقد تولى الإمارة بعده أخوه "بندر بن محمد".[21] بنفس العام رأت استنبول أن تنقل – اللاز – إلى الشام، وتكلف "محمد نجيب باشا" بولاية العراق،[22] والذي اشتهر بجباية الأموال من القبائل بطريقة خالية من الرحمة، مع زهو وغطرسة وكبرياء لا تتناسب مع إمكانات القوة الضعيفة التي يملكها أزاء القلاقل التي تسببها القبائل له ولممارساته،[23] مع حماسه في تطبيق الحكم المباشر في البلاد من خلال التخلص من جميع الزعامات والعصبيات المحلية التي وقفت بوجه الدولة ودورها،[24] وهذا بلا شك يستلزم جملة من المستلزمات في مقدمتها سياسة نشطة وحذرة وزئبقية.

---

(١٨) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٢٢٦.
(١٩) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٢٧.
(٢٠) علي الشرقي – ذكرى ...... مصدر سابق – ص ٣٢.
(٢١) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٢٨.
(٢٢) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٧ – ص ٦٣.
(٢٣) لونكريك – مصدر سابق – ص ٣٤٠.
(٢٤) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ١٦٧.

وقد دشن الوالي سياسة جديدة إزاء المنتفق، يمكن أن نسميها سياسة "القضم" المنظم والمتدرج لمناطق نفوذ المنتفق من خلال إفراز بعض المقاطعات خارج نفوذ المنتفق وجباتها، بحجة إن ذلك الإفراز مما تستوجبه سياسة الدولة العليا ومصالحها. والغريب أن هذه السياسة استمرت حتى سقوط الإمارة عسكريا عام ١٨٨١م دون أن يعي أمراء المنتفق أن التآكل والإفراز والقضم هو هدم من جوف القوة للإمارة لغرض إضعافها وإسقاطها لكونها آخر مظاهر الاستقلال التي مارسها العراقيون أثناء الوجود العثماني في أواخر سني القرن التاسع عشر.

وقد كانت الأوضاع الداخلية للمنتفق هادئة، باستثناء مشاكسة راشد بن ثامر عم الأمير بندر، الأمر الذي أضطره إزاء النفرة التي سببها، إلى الهجرة للكويت والاحتماء بحاكمها جابر الصباح مما قوى من عزم المنتفق وأميرهم على مهاجمة الكويت عام ١٨٤٤م، فسار جيش المنتفق نحوها ضاربا عليها الحصار إلا أن المحاصرين أوفدوا لأمير المنتفق (عبد الرحمن الدويرج) أحد وجوه المدينة الذين تربطهم بالشيخ بندر، صداقة متينة، حيث أوضح له عزم أهل الكويت على المقاومة، ومن ثم ركوب البحر مع عوائلهم وأموالهم إذ تعذر عليهم المطاولة، هذا أولا وثانيا أنهم على استعداد لتقديم ما يحتاجه من ذخيرة وطعام لجيشه.[٢٥] ونظروا لمعرفة الشيخ بندر بصحة وصواب ما عرض عليه فقد عاد بجيشه لأرضه.

وفي أعوام ١٨٤٥ – ١٨٤٦م، تهرب الشيخ – بندر – من المجيء لبغداد رغم تكرار الدعوة له كما ازداد السخط بين قبائله على الدولة والذي كان ناشئا من محاولات نجيب باشا، زيادة عوائد المنطقة من الضرائب إلى أكثر من الضعف، مما استلزم منه وسائل صارمة وعنيفة لجباية ضريبة الرأس، مما دفع المنتفق إلى طريق التمرد الدائم على سلطة الدولة إزاء إجراءاتها القسرية.[٢٦] كما أن المنتفق لم

---

(٢٥) حسين خلف – ج ١ – مصدر سابق – ص ١١٩.

(٢٦) لوريمر – مصدر سابق – ص ١٩٩٩.

تكن بعيدة عن المساهمة في جملة من التمردات استشرت في أعالي الفرات وعلى حوض دجلة.[27] إن ممارستها مثل هذا التأثير، ولأنها الإمارة الوحيدة الباقية والتي شغلت أوضاعها أعلى المقامات في استنبول بعد أن عجز ولاتها منذ تدشين سياسة السيطرة المركزية في مسعاهم نحو إسقاطها، فقد أرسلت استنبول لجنة لهذا الغرض سميت لجنة (راغب باشا) عام ١٨٤٧م لاكتشاف أنجح الوسائل وأقلها كلفة لتحقيق هذا الهدف.[28]

وقد توفى الشيخ – بندر – في منتصف عام ١٨٤٧م، عن عمر يقارب من اثنين وخمسين عاما، والمشهورَ عنه في عموم المنتفق، الكرم والجود الزائد حيث يقارن بكرم "مانع السخاء" وقد اشتهرت عنه القصيدة البدوية التي قالها الشاعر (ابن ربيعة) والتي يقول مطلعها:

[بيت السخاء بيت الرخا منكع الجود

بيت عمار المنتفج من عماره]

وقد تبوأ زمام المشيخة بعده أخوه "فهد بن محمد بن ثامر" بعد استحصال الموافقات الأصولية من باشا بغداد على ذلك،[29] إلا أن أيامه لم تطل كثيرا ولم تحفل بشيء استثنائي فتوفى في ضواحي مدينة الزبير في شهر ذي الحجة من علم ١٢٦٥ هـ ١٨٤٩م، وقيل أن وفاته كانت اغتيالا من قبل العثمانيين بالسم لأنه كان يمقتهم ومنع دخولهم أو تواجدهم في ديرة المنتفق.[30]

---

(٢٧) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ١٧٣.

(٢٨) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢٠٢١.

(٢٩) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ١٧٦.

(٣٠) م.ص/ مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

ويلاحظ في تلك السنوات الممتدة حتى عام ١٨٥٠م أن بريطانيا قد نجحت بتحويل الخليج العربي إلى بحيرة بريطانية مغلقة تقريبا، من خلال المعاهدات التي عقدتها مع مشايخ الساحل بعد عام ١٨٢٠م.(٣١) وهذا التحول جاء على حساب الوجود العثماني الاسمي في تلك المناطق. أما في العراق الجنوبي، فقد كانت بريطانيا تقف مع الدولة العثمانية ضد أية حركة ترفض الاستبداد والتسلط العثماني، وهذا ما كانت المنتفق تحاوله رغم صعوبته، لكن الإنجليز بنفس التوازي كانوا في صراع مع العثمانيين في موضوع الحصول على الامتيازات السياسية والتي تؤثر سلبا على حقائق نفوذ وقوة الدولة العثمانية، حتى في إقليمها الفعلي.

لقد كان النشاط الإنكليزي متعدد الوجوه، فهو بعد أن فشل في تحقيق موطئ قدم له في العراق الجنوبي لوجود المنتفق، فقد تحول باتجاه خطوط الملاحة النهرية في وادي الرافدين، لذلك كلف المسؤولون الإنكليز الضابط (جسني Chesney) إلى دراسة إمكانات استخدام البواخر في نهر الفرات، وقد حاولت بريطانيا من خلال بعثة (جسني) النهرية أن تفتتح لها خط ملاحي في نهر الفرات تجعله الممر الرئيسي للملاحة في العراق لملاءمته لخدمة المصالح البريطانية،(٣٢) لكن ذلك النهر لم يشهد تشغيل خط ملاحي للإنكليز بسبب عوائق ملاحية، علاوة على رفض أمير المنتفق التعاون مع هذه البعثة، حيث أبلغها أن مرور أي باخرة إنكليزية في ديرة المنتفق سوف يعرضها للحرق والتدمير، ولا يهمه إن كان ذلك الفعل يغضب والي بغداد أو من في استنبول.(٣٣) ولذلك ظل "فرمان" الموافقة الذي أصدرته الدولة العثمانية في التاسع والعشرين من آب عام ١٨٣٤ لشركة الملاحة البريطانية

---

(٣١) لوتسكي – مصدر سابق – ص ١١١.

(٣٢) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٢٤٢.

(٣٣) المصدر السابق – ص ٢٦٠.

لغرض تسيير سفن تجارية دورية لهم في نهر الفرات بدون تنفيذ طيلة وجود إمـــارة المنتفق. (٣٤)

أما جانب الدولة العثمانية فقد سيطرت على أذهان قادتـــها خـــلال أواسـط القرن التاسع عشر، الحاجة إلى إصدار اللوائح الخاصة بتحديث الدولة فنشـــر مـــا عرف بخطي (شريف كولخانة ١٨٣٩م) و(همايون ١٨٥٦م) الأمر الذي اســتوجب تدخل الدولة المركزي من أجل التحديث والتقدم مما يستلزم المزيد من الإنفاق العـام والذي كانت الدولة عاجزة عنه، فنقلت أعباءها المالية إلى زيادة رفع بدلات الـــتزام الأراضي على القبائل جميعا والتي لم يكن منتظرا منها التسليم بهذا الإجراء الـــذي رافقه شكل عسكري وفعال لدعمه، هذا مع استمرار سياستها بضرب القبـــائل مـــع بعضها، وتأجيج نار الخصومات بين أفراد القبيلة الواحدة. فمثلا زيد خراج أراضـي المنتفق من (١٠٠,٠٠٠) ألف شامي* سنة ١٨٤٢م إلى (٣١٠,٠٠٠) ألف شامـــي سنة ١٨٥٣م،(٣٥) هذا غير أنها مع هذه الزيادة فإنها ظلت مســتمرة علـــى سياســة "القضم" اتجاه الإمارة.

في ظل هذه الأوضاع المقلقة والقلقة، فإن أوضاع المنتفق الداخليـــة كـــانت مساعدة للدولة على إضعاف الإمارة، فالجهاز القيادي انقسم إلى شيع وتكتلات كـــلا يغني ليلاه، وكلا يرى نفسه الجدير بالمسؤولية، يترافق مـــع تلـــك النظـــرة نـــزاع وتشاحن وبغظاء بين أبناء آل السعدون أنفسهم، في تلك الظروف التي أعقبت وفـــاة "فهد بن محمد الثامر" رشحت المنتفق "فارس بن عجيل بن محمد الثامر" أميرا لـــها دون أخذ موافقة الدولة أو رضاها.(٣٦) ذلك الترشيح خلق وضعا اقل ما يقال عنـــه،

---

(٣٤) لوريمر – مصدر سابق – ص ١٩٧٤.

* الشامي ما يعادل في ذلك الوقت شلنا إنجليزيا واحدا وستة بنسات.

(٣٥) المصدر السابق – ص ٢٠١٩.

(٣٦) عثمان بن سند – مصدر سابق – ص ٢٢٨.

أنه أكثر من سيء، لأن الدولة العثمانية حينما رأت الأمر بهذه الصورة، عملت على تشطير القوة الأساسية للإمارة، من خلال خلق أو تشجيع المتنافسين مما ترك بصمات واضحة في شكل التكتلات التي تقاسمت وتزعمت أوضاع الإمارة مما نتج عنها العديد من المعارك الداخلية التي أخذت معها المئات من شجعان المنتفق ودمرت الممتلكات هذا غير – وهذا هو المهم – أن هذه الأوضاع قد أعطت للدولة العثمانية الإمكانية في العمل من داخل العصب الرئيسي للإمارة، ونقصد به القيادة السعدونية نفسها.

كما أن أوضاع العراق لم تكن أحسن حالا من أوضاع المنتفق فهناك سياسة مقررة وثابتة إلا أن كيفية تنفيذها يختلف من وال لآخر فيما يخص القبائل والإمارات القائمة مما أدى إلى الفوضى وتعطيل حركة التجارة وضياع هيبة الدولة.[٣٧] وقد تولى في هذه الفترة التي نحن بصددها ولاية العراق (عبدي باشا) ثم جاء من بعده (محمد وجيه باشا) ثم تولاها من بعده (نامق باشا الكبير)، وكانت ولاية أيا منهم لا تتجاوز السنتين، [٣٨] وهذه التبدلات ساهمت في تصعيد أشكال الفوضى والتكتلات التي كانت تعيشها المنتفق.

وقد استمرت مشيخة "فارس العجيل" حتى ظهور منافسه الرئيسي وأكثرهم حماسة في تطلعه نحو إمارة المنتفق "منصور بن راشد الثامر" الذي أقنعه الوالي الجديد للعراق (رشيد باشا الكوزلكي) والذي تولى ولايته في أيلول ١٨٥٢م، بحمايته له واستعداده لإمداده بالعون العسكري وتنصيبه على إمارة المنتفق، إذ وافق على إفراز "السماوة" وما يتبعها وعشائرها عن "ديرة" المنتفق، لغرض إلحاقها بلواء الحلة. وقد وافق منصور [٣٩] وكانت موافقته تلك تعني استمرار سياسة "فرق

(٣٧) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ١٧٤.
(٣٨) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٧ – مصدر سابق – ص ٨٥ – ١٠٢.
(٣٩) يعقوب سركيس – مباحث ... ق ٣ – مصدر سابق – ص ١٨٠.

تسد" التي كثفتها الدولة وبالمعادل النوعي، مما يوضح تحت أي ظـــرف، خســائر القوى من قوة الإمارة لصالح التوجه المركزي للدولة، لأن الوالي المذكــور كــان يرى أن إمارة المنتفق عقبة كأداء أمام مشروعه في تفكيك القبــائل كــأحد أهـداف السيطرة المركزية التي شددت الدولة على ضرورة تطبيقها في العراق.(٤٠)

بعد اتفاق الاثنين على "مقاولة" العمل، سار الشيخ – منصور أمير المنتفــق المعين، تحيط به قوة تقدر بعشرة آلاف مقاتل مؤلفة من القوات العسكرية النظاميــة، تصحبها المدافع وقوات من عشائر زبيد برئاسة الشــيخ – وادي الشــفلح – ومــن عشائر الخزاعل برئاسة شيخها مطلك كريدي الذرب (٤١)، لمحاربة الشيخ "فــارس بن عجيل بن محمد الثامر". والتقى الطرفان قرب موقع مدينة الشطرة الحالية فـــي شباط ١٨٥٣م. ومن جديد أشهر أبناء المنتفق السلاح بوجه إخوانهم الآخريــن، لأن أبناء "الديرة" مال بعضهم لفارس والبعض لمنصور. وقد كـــاد النصــر أن يكــون لقوات فارس، إلا أن كفاءة الأسلحة الموجودة عند الجيش النظـــامي، قــد حســمت الأمر لصالح الشيخ منصور وقواته، في حين جرى اعتقال الشيخ فـــارس وأرســل لبغداد حيث وضع تحت الإقامة الجبرية ومنع من مغادرة المدينة.(٤٢)

بعد أن حسمت الأمور لصالح الشيخ – منصور – توجه نحو ديار المنتفــق لممارسة صلاحيته كأمير عليها بدعم من والي العراق وقواتـــه العســكرية، حيــث كانت علاقته بمركز السلطة جيدة ومطبوعة بالولاء لأوامرها. ففــي أثنـــاء حــرب

---

(٤٠) أحمد نور الأنصاري – مصدر سابق – ص ٦٨.

(٤١) حمود الساعدي – مصدر سابق – ص ٩٠.

(٤٢) عباس العزاوي – تاريخ ......: ج ٧ – ص ٩٣.

القرم* ١٨٥٣ – ١٨٥٦م، عزم الشاه الإيراني (ناصر الدين) على مهاجمة العراق نتيجة انشغال الدولة العثمانية بهذه الحرب كجزء من تحالفه مع الروس، وقد اهتم – الكوزلكي – بالأمر، حيث جند الجند وحشد قواته باتجاه الحدود، وطلب من شيخ المنتفق أن يستعد لمواجهة الهجوم الإيراني المتوقع، وأناط به حفظ جنوب العراق.[٤٣] وبهذا الجانب فقد كان الفضل الأساسي للمنتفق أنها منعت حصول المد الإيراني في العراق الجنوبي، بحيث حفظت لهذه المنطقة عروبتها.[٤٤]

ورغم كل التبعية فإن – الكوزلكي – ليس من نوع الولاة الذين يمكن خداعهم أو اللعب عليهم، لذلك فحين قدوم الشيخ منصور لبغداد عام ١٨٥٤م لتجديد ولائه وطاعته، فقد قدم للوالي مبالغ جسيمة من الضرائب كخراج يقدر بثمانين ألف شامي، بعد أن جمعها بشق الأنفس، مع عدد من الجياد العربية الأصيلة.[٤٥]

إزاء ذلك وجد الوالي أن الفرصة سانحة لتوجيه ضربة شديدة لإمارة المنتفق إزاء سلبية الأمير وتشبثه بالسلطة، وتشتت الجهد المركزي لأهل المنتفق، لذلك كان دخول الجيش العثماني (سوق الشيوخ) في ١٤ شعبان ١٢٧٢هـ ١٨٥٥م متخذا فيها ثكنة عسكرية لبعض قواته تحصيل حاصل لسياسة "القضم" الحكومية والتهافت الشديد من قبل المتنافسين، ليس هذا فحسب، بل إن – الكوزلكي – قد عين أحد قواد جيشه المدعو – حسين باشا – قائمقاما للمدينة.[٤٦] وهذه هي المرة

* حرب القرم – حرب جرت بين الدولة العثمانية والروس، حول مناطق النفوذ في شبه جزيرة القرم والبحر الأسود، واستمرت ثلاث سنوات. وقد ساند العثمانيين فيها البريطانيون والفرنسيون. وكانت هذه الحرب من أفظع الحروب التي شهدها العالم حينذاك.

(٤٣) د. علي الوردي – لمحات ...... ج٢ – ص ٢٠٠.

(٤٤) د. عبد العزيز نوار – داود ...... مصدر سابق – ص ٩٥.

(٤٥) يعقوب سركيس – مباحث ...... ق ٢ – ص ٤٠٣.

(٤٦) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ١٨٠.

الأولى التي يتخذ فيها الجيش العثماني مقرات ثابتة له في أراضي المنتفق ممارسا بذلك سياسته المركزية الواضحة، مدللا بها على ضعف الإمارة وتردي أوضاعها.

عند نهاية عام ١٨٥٥م جرت المزايدة على التزام* ديرة المنتفق بعد انتهاء مدة التزامها السابق ووجدها – الكوزلكي – ودولته مناسبة أخرى لإضعاف وتصديع جدار الإمارة وقواها الحقيقية، لذلك ولى الوالي الشيخ "صالح بن عيسى بن محمد الثامر" مشيخة المنتفق،(٤٧) عازلا عنها صديقه الشيخ – منصور بن راشد – رغم كل الخدمات الكبيرة التي قدمها للوالي ودولته "العلية". وقد كان أسلوب العزل والتعيين الذي مارسته الدولة العثمانية مع إمارة المنتفق وقادتها من آل السعدون، حلقة مكملة للسياسة المعروفة "فرق تسد" وما يتبعها من بغظاء وكراهية وكمائن وإفخاخ وقتال وتحالفات، الغاية النهائية منها تمزيق الإمارة وإسقاطها، خصوصا وإنها الإمارة الوحيدة الباقية، التي تصارع وتقاتل الدولة العثمانية، وتبدو لصناع القرار عصية عليهم.

لذلك فإن تبوأ الشيخ – صالح – فعالية الأمور جاء بدعم وموافقة الدولة، التي أرادتها مناسبة للاقتتال الداخلي بين أهل المنتفق، وهذا ما حصل، حينما رفض الشيخ – منصور – التعيين الجديد، فجرت معارك بينه وبين قوات الشيخ الجديد الذي دعمته الدولة كالعادة بالقوات النظامية وبقوات العشائر الموالية لها، استمرت هذه المعارك أكثر من شهر، آلت نتائجها لصالح الشيخ الجديد، لكن منصور استمر

---

* الالتزام: صيغة من صيغ تحصيل الضرائب التي تمارسها الدولة على مواطنيها. استعمل لأول مرة في أواخر العهد الأموي، ومارسه العثمانيون في العراق بعد الفتح الثاني عام ١٦٣٨م. وكانت العادة في عهد السيطرة المركزية الذي نحن بصدد بحث أوضاعه، أن تكون مدة الالتزام في ديرة المنتفق ثلاث سنوات قابلة للتجديد. وقد استغل الولاة موضوع الالتزام لإضعاف الإمارة من خلال إبدال الأمراء الذي لا يتطابقون وسياسة استنبول.

(٤٧) د. عبد العزيز نوار – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ١٧٧.

على عصيانه على ما حدث فدخل مع القوات الحكومية بمعركة في مكان يقال لـــه (المغيسل) عند نهر الفرات انتهت بهزيمة القوات الحكومية ومقتل قائدهم "تركجـــة يلمز"* الذي قتله مشاري بن عبد الله السعدون.(٤٨)

نتائج هذه المعركة لم تكن حاسمة لصالح الشيخ منصور بل استمر الشـــيخ صالح في مشيخته متفرغا لإدارة شؤون إمارته إلا أنه اســـتنتج مـــن ملاحظاتـــه للأوضاع، وشكل وحجم تدخل الدولة في شؤون المنتفق – وكان استنتاجه صحيحـا – أن سبب المصيبة والبلاء التي لحقت "بديرة" المنتفق، هي الدولة العثمانية، التـــي فكر في العصيان عليها، فبنى قلعة حصينة سميت "قلعة صالح"* كما ظهرت منـــه بوادر التمرد، حينما امتنع عن تسديد القسط الأول من الخراج، إلا أن الدولة كـانت تراقبه بدقة، فسارعت كعادتها في دق أسافين الشك والانقسام والريبة والأطماع بين أبناء المنتفق، حينما عزلت الشيخ صالح عن المشيخة وأعادت لها الشـــيخ الســـابق منصور بعد أن ابتعد عنها لمدة عشرة أشهر تقريبا.(٤٩)

اتخذ تدخل الدولة في النزاع على الإمارة صيغة جديدة، تختلف عـــن مـــا سبقها، حيث بدأت توكل لمرشحها – أيا كان – مسؤولية خلق الأنصـــار لـــه مـــن داخل أبناء المنتفق، وبما يعرض وحدتهم القائمة إلى التصدع. إن تلـــك السياســـة، عززت بشكل عسكري، حينما بعثت الدولة بعساكرها، نحو الشيخ صالح بعـــد أن رفض أمر عزله، بنفس الوقت ساندت مساعي الشيخ منصور في تثبيت وضعـــه،

---

* تركجة يلمز: كان من قواد محمد علي باشا في الحجاز، لكنه تمرد عليه وهرب إلى العراق، فأكرمته الدولة العثمانية وعينته أحد القواد الرئيسيين على المسرح العراقي .... أنظر: عبد الرحمن الرافعي – عصر محمد علي – القاهرة ١٩٤٧ – ط ٢ – ص ٢٧٨.

(٤٨) محمد رشيد السعدي – مصدر سابق – ص ١٢٥.

* كانت معروفة سابقا بشطرة العمارة، وهي حاليا ناحية من نواحي محافظة ميسان باسم "قلعة صالح".

(٤٩) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٧ – ص ١٠٥.

بعد أن كانت بالأمس تلاحقه وتدخل معه في معارك دامية. والغريب أن أهل المنتفق قد سايروا هذه السياسة العثمانية، وأصبحوا إحدى أدواتها الرئيسيين، فشهدت "الديرة" معارك استنزاف داخلية بين أتباع الشيخين، أخذت بالنتيجة النهائية من قوة المنتفق لصالح الدولة وسياستها. ولأن هذه المعارك طالت دون نتيجة حاسمة، فقد تنازل الشيخ – صالح – عن المشيخة، لصالح ابن عمه الشيخ – منصور – إشفاقا على أرواح الناس، وترفعا منه أن يكون لعبة بيد الساسة العثمانيين في تدمير القوى الحية في ديار المنتفق.

لم يهنأ الوالي – الكوزلكي – طويلا بنجاح سياسته في التفتيت والتي مارسها مع المنتفق، فقد توفى في آب ١٨٥٧م، فخلفه السردار الأكرم (عمر باشا) الذي خلف لنفسه ذكر الجندي الصالح والصارم،[٥٠] وقد نقض ما أبرمه سلفه، حينما عدل عن اتخاذ سوق الشيوخ، مقرا للجيش متخذا من وخامة الهواء وتردي صحة الجنود، سببا زاعما أن بإمكانه تأديب عشائر المنتفق بطابور أو طابورين من الجيش عند تمردهم أو عصيانهم.[٥١]

ظل الشيخ منصور يزاول عمله "شيخ مشايخ" المنتفق مسنودا من مركز الولاية وولاتها، في ظل انقسام يتجذر عميقا في أحوال المنتفق وقوتها. ولأن هدف الدولة "العلية" لم يتحقق بشكل نهائي في إسقاط الإمارة، فقد عادت لتلعب لعبة أخرى تسرع فيها من تدمير أعمدة القوة، حينما أقنع الوالي (محمد نامق باشا) أمير المنتفق – منصور – بإلغاء المشيخة من خلال إبدالها بالوظيفة الحكومية،[٥٢] وتعيينه قائممقاما على المنتفق،[٥٣] كما جرى منحه رتبة (مدير الإسطبل العامر)

(٥٠) لونكريك – مصدر سابق – ص ٣٤١.

(٥١) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٧ – ص ١٢٩.

(٥٢) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٣٢.

(٥٣) عباس العزاوي – تاريخ ...... مصدر سابق – ج ٧ – ص ١٣٠.

وهي رتبة عسكرية، ومنح كذلك لقب "بك"، (٥٤) كما تم تعيين "سليمان فائق"* معاوناً له ومحاسباً. (٥٥)

والملاحظ أنه منذ هذا التاريخ، سوف تصادفنا أسماء أمراء المنتفق مقرونة بلقب سلطاني، إما "بك" أو "باشا" ورغم أن الجميع لم تغيرهم هذه الألقاب، إلا أنه مؤشر على نفاذ "بعض" بهرجة وبيروقراطية دواوين بغداد واستنبول في دواوين البدو والأعراب في المنتفق، مما يؤشر – نجاح – سياسة التدخل في العمق التي مارستها الدولة مع أوضاع المنتفق.

ولم يهن على المنتفقين أن يكون شيخهم موظفاً في الدولة، مع وجود العداء الشديد الذي طال عليه الزمن بينهم وبينها، فقال شاعرهم محرضاً وساخراً.

يا بو علي* الموردة**	أميرنا صاير مدير***
ذبح العساكر فننا****	وشحال لو جانا المشير*****

---

(٥٤) د. علي الوردي – لمحات ...... ج ٢ – ص ٢٢٧.

* سليمان فائق: أحد أهم الرجال الذين عملوا على إسقاط إمارة المنتفق، سواء في عمله المباشر أو في كتاباته للمقامات العليا في استنبول. من بقايا مماليك داود باشا. وهو والد – حكمت سليمان – رئيس وزراء العراق بعد انقلاب ١٩٣٦، والفريق – محمود شوكت – قائد انقلاب ١٩٠٨ على السلطان عبد الحميد الثاني.

(٥٥) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٣٢.

* أبو علي: المقصود به ناصر باشا الأشقر.

** الموردة: شريعة الماء التي يشرب منها، والمقصود ناصر.

*** مدير: مدير الاسطبل العامر.

**** فننا: أي أن واجبنا ومهنتنا ذبح العساكر.

***** المشير: والمقصود به والي العراق آنذاك.

لقد قابل أهل المنتفق عموما إلغاء المشيخة بالرفض مستنكرين كل إجـــراء يتقاطع والمشيخة وقد تزعم هذا الاتجاه الشيخ – ناصر – شقيق الشيخ – منصور – والمعروف لاحقا ب "الأشقر" والذي أيدته الأغلبية، ممـــا دفعـــه أن يقـــود التمـــرد والعصيان،(٥٦) بحيث كادت الأحوال أن تدفع المتمردين إلى قتل – سليمان فـــائق – لولا تدخل الشيخ – منصور – الذي وجد أن هذا الأمر يمس بشرفه وناموسه، وهـــو غير ما اعتادت عليه العرب لضيوفها.(٥٧) هذه الأحوال المضطربـــة بيـــن رفـــض أغلبية المنتفق لإلغاء المشيخة، ورأي الدولة والقائممقام بالقبول ومسايرة الأحـــداث أحدثت حالة من القلاقل والاضطرابات في عموم "ديرة" المنتفق، وبـــدأ العصيـــان واضحا وقويا ضد الدولة حينما وصلت أيـــدي المنتفقيـــن أن يخربـــوا ويقطعـــوا الخطوط التلغرافية بين الحلة وبغداد.(٥٨) هذه الأوضـــاع مـــع اســـتمرار معـــارك الاستنزاف الداخلية بين أبناء المنتفق فريقا ضد آخر أبانت بشـــكل واضـــح مـــدى الكسب الذي تحقق للدولة "العلية" على طريق تحقيق هدفها في إسقاط هذه الإمـــارة بحيث كانت السنوات الممتدة من ١٨٥٨م – حتى بدايـــات عـــام ١٨٦١م ســـنوات صراع داخلي مرير.

بعد سلسلة الأحداث الدامية التي شهدتها المنتفق، فقد رشح متسلم البصـــرة لإمارة المنتفق الشيخ "بندر بن ناصر الثامر" مقترحا ذلك الترشيح على والي بغـــداد الذي التقى بالشيخ – بندر – فوجده مسالما ومن دعاة التعاون مع الدولـــة، فرســـت المزايدة التي جرت بينه وبين الشيخ – منصور – في شوال ١٢٧٧هـ المصـــادف أوائل شباط ١٨٦١م، عليه، ببدل سنوي قدره (٤٩٠٠) كيس، والكيس يومئذ عبـــارة

---

(٥٦) د. علي الوردي – لمحات ...... ج ٢ – ص ٢٢٧.
(٥٧) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٣٤.
(٥٨) المصدر السابق – ص ٣٥.

عن خمسمائة غرش.[٥٩] لكن هذا التنصيب، لم يخل من إفـراز مقاطعـات جديـدة خارج حدود ونفوذ المنتفق، كان أبرزها أبي الخصيب وباب سليمان الواقعين علـى شط العرب، وشطرة العمارة المعروفة اليوم بقلعة صالح.[٦٠] إن تكـرار اقتطـاع أقسام من أراضي المنتفق، وهي السياسة التي يوافق عليها الأمير المنصب، تشـبه فعل من يعطي قمحه لمطحنة منافسة، أو أنها سياسة "تزييت" عجلات الحكومة ضـد الإمارة.

ظل الشيخ بندر أميرا على المنتفق طيلة مدة التزامـه التـي انتـهت فـي ١٨٦٣/٩/٣٠م منتهجا سياسة التأييد لوالي بغداد، وداعما كل خطواته، وهي بالتأكيد خطوات الغاية منها، إضعاف إمارة المنتفق وتسهيل الأمر للدولة، لإسـقاطها. وقـد كانت نية الوالي – نامق باشا – إسناد المشيخة إلى – نـاصر الأشـقر – تكريسـا لسياسة التقسيم والتشطير التي دأبت عليها الدولة مـع المنتفـق،[٦١] إلا أنـه فـي اللحظات الأخيرة للرأي النهائي، ولأن الوالي، خبر ضعـف ومسـالمة – بنـدر – للدولة، وابتعاده عن المشاكل، يقابلها قوة وطموح الأشقر، فقد جددت إمارة – بنـدر – على المنتفق من تاريخ انتهائها ولمدة ثلاث سنوات،[٦٢] إلا أنه توفى بعد ترأسـه بيومين، فدفن في مقبرة الشيخ عمر السهروردي في بغداد.[٦٣]

وتشاء الأقدار، أن يكون الشيخ "فهد بن علي الثامر" متواجدا فـي بغـداد، أثناء تلك الأحداث، وهو أحد المنافسين والطامحين بالإمارة، فيواجه الوالي – نـامق باشا – متعهدا له بتنفيذ ما اتفق عليه مع الشيخ بندر مع اشتراطه علـى الوالـي،

---

(٥٩) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٧ – ص ١٣٢.
(٦٠) يعقوب سركيس – مباحث ...... ق ٢ – ص ٢٥٧.
(٦١) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٣٦.
(٦٢) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢١٠٠.
(٦٣) يعقوب سركيس – مباحث ...... ق ٢ – ص ٢٥٦ في الهامش.

إصدار عفو عام عن جميع من اعتبرتهم الدولة خارجين على القانون، قاصدا بذلك (منصور وناصر) وقد أخذ خطابات الأمان بيده، بعد أن قبل رئاسة المنتفق.[٦٤] ولأن الوالي، يدرك أنه بالموافقة على هذا التعيين، يشيع جوا من المنافسة والكراهية بين أبناء آل السعدون، فقد وافق على إمارة الشيخ – فهد – على المنتفق في الثاني عشر من تشرين الأول عام ١٨٦٣م، ولمدة ثلاث سنوات بموجب شرطنامة كتبت باللغة العربية.[٦٥]

هذا الأمر لم يحظ بقبول الجميع، حيث حشد الأخوين – منصور وناصر – قواهما للدخول في معركة مع الأمير الجديد، اختبارا للقوة، وفعلا وقع المحظور بين أبناء المنتفق، حيث شهدت معركة "الطينه"* انهزام قوات الأخوين أمام قوة الأمير الجديد،[٦٦] بما عزز من قوته ونفوذه، ثم أردف هذا النصر، حينما أفرزت الدولة قوة خاصة بقيادة (حافظ باشا) لمطاردة الأخوين، حيث تم أسر الشيخ – ناصر – في حين اتخذ الشيخ منصور الصحراء ملاذا له،[٦٧] حيث كان أمير المنتفق فهد يتفقده ويخبره بحركات الجيش ضده، ويود أن يسلم نفسه للسلطات محافظة على حياته،[٦٨] لمحبة الشيخ فهد لمنصور، وفعلا سلم الأخير نفسه، بضمانة سليمان فائق وقد قبل الوالي نامق باشا دخالته وعفا عنه.[٦٩]

---

(٦٤) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢١٠٥.

(٦٥) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج ٧ – ص ١٤٥.

* الطينة: سميت بهذا الإسم لوجود غدير ماء يفصل المعسكرين عن بعضهما، ويقع هذا الموقع في الأرض المسماه بـــ "الطويسات" بين مدينتي الحي – الكوت.

(٦٦) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢١٠٦.

(٦٧) د. علي الوردي – لمحات ...... ج ٢ – ص ٢٢٩.

(٦٨) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٤٤.

(٦٩) المصدر السابق – ص ٤٩.

وطد الأمير الجديد نفوذه على ديار المنتفق من خلال كياسته واستقامته، هذا غير عدله وشجاعته التي يعرفها الجميع،[٧٠] كما أن ابناء المنتفق قد ملوا الاقتتال والاحتراب الداخلي، مما ساعد في استتباب الأمن. وقد جرت أول مفاوضة بمد سلك البرق بين بغداد والبصرة مرورا بديار المنتفق في كانون الثاني ١٨٦٥م، وكان هذا الأمر، مبعث رضا الدولة،[٧١] التي منحت على أثره لقب "بك" لكلا الشيخين المتنافسين (فهد وناصر).[٧٢] كما شهدت هذه الفترة، رفض الشيخ – فهد – معاونة العثمانيين في حملتهم ضد شيخ الخزاعل، لأنه كان يدرك، إن قوتهم له، وضعفهم سيؤثر عليه، خصوصا وأنه رفض مقابلة القائد العثماني – حافظ باشا – وتعمد أن يوظف قوة المنتفق ونفوذها، بما يمنع أي تواجد عثماني في "الديرة".[٧٣]

وإن كان من قول عن هذه الفترة، فهو إن ما يؤسف له، أن شخصين بكفاءة واقتدار الشيخين (ناصر وفهد) قد عجزا أن يؤسسا مشروعا مشتركا لإنهاض الإمارة وهي في خريف أيامها، وكان بإمكانهما ذلك لما يتصفان به من إمكانية واقتدار، إلا أن التشطير والتفتيت الذي عملت عليه الدولة العثمانية اتجاه هذه الإمارة ومواطنيها، قد فعل فعله حتى عند المستويات القيادية للإمارة.

بقيت ديرة المنتفق بالتزام الشيخ فهد باشا العلي حتى نهاية آب عام ١٨٦٦م، وبعدها أحيلت رئاسة المنتفق على الشيخ "ناصر بن راشد الثامر" المعروف عند الجميع بـ "الأشقر"[٧٤] وهذه الإحالة جاءت متوافقة مع سياسة الدولة في تشطير القيادات السعدونية، من أجل خلق التنافس والبغضاء، كما لم تتم تلك

---

(٧٠) عبد الله الناصر – تاريخ السعدون – مطبعة الراعي – النجف ١٩٤١ – ص ٥٠.

(٧١) م.ص.مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(٧٢) المصدر أعلاه.

(٧٣) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢١٠٩.

(٧٤) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٧ – ص ١٥٠.

الإحالة، دون إفراز بعض الأراضي من "ديرة" المنتفق،[٧٥] حيث أُفرزت مقاطعات (الفياضية والعامية ويوسفان وكوت الإفرنجي وكباسي الكبير والصغير وجزيرة العين وريان وجبارات وكيتبان والصفارية)[٧٦] وهي مقاطعات تقع على نهر شط العرب. وما أُفرز يتماشى وسياسة الدولة في استمرار "القضم" الدائم من مناطق المنتفق ونفوذها، وترافق معه أن الدولة قد بدأت تحرك العشائر على أمرائها، لأنها تدرك أن بقاء آل السعدون أقوياء، معناه انعكاس إيجابي على أوضاع الإمارة، خصوصاً وأن الدولة قد بدأت غزلها في هذا الجانب مع العشائر بموضوع الأرض، العزيزة جداً على مواطني العشائر، مما خلق علاقات قلقة بين الأمير وقبائله.[٧٧]

أمام كل تلك الأوضاع، فقد أحيلت مناطق ديرة المنتفق في الثالث عشر من أيلول عام ١٨٦٦م، ببدل سنوي يبلغ قدره (٤,٣٣٨,٨٧٥) غرش، أي ما يعادل (٤٨٠٠٠) ليرة ذهب، على الشيخ – ناصر باشا الأشقر – وفق شرطنامة كتبت باللغة العربية، بعد أن صودق عليها من قبل المجلس الكبير للولاية وبحضور الوالي والموظفين المختصين.[٧٨]

وقد كان تبوأ الشيخ ناصر الأشقر لموقع شيخ مشايخ المنتفق، يشكل مرحلة ذات طابع خاص في حياة المنتفق وحياة قادتها ومواطنيها، كما أنها ذات طابع مختلف في مسيرة السنوات اللاحقة في تاريخ العراق ومستقبل أحداثه، لأن ما شهدته من وقائع أفرزت نتائج قدر لها أن تلعب دوراً حاسماً في تقرير أشكال

---

(٧٥) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٥١.

(٧٦) يعقوب سركيس – مباحث ...... ق٢ – ص ٢٥٩.

(٧٧) عبد الله الفياض – مشكلة الأراضي في لواء المنتفك – مطبعة سلمان الأعظمي – بغداد ١٩٥٦ – ص ٦٥.

(٧٨) يعقوب سركيس – مباحث ...... ق ٢ – ص ٢٦٣.

وأوضاع ذات طبيعة، كانت تبدو في حينها، بأنها ذات شكل دائمي، وهذه النتائج بسلبها وإيجابها، كانت الفيصل في الشكل النهائي لتكوينات وتغييرات قاطعة.

وكالعادة فإن إمارة الأشقر، لم تحظ بالقبول العام من أبناء المنتفق، فعزم على الانتقام من أبناء عمومته الذين كانوا يعاكسونه، لكنهم أخذوا حذرهم منه،[٧٩] فلم تحدث معارك داخلية. وقد كان لشخصية الأشقر وما فيها من حسن السياسة والكرم والشجاعة وحسن التدبير، أثرا في استيعاب الأمن ونشر السلام بين ابناء "الديرة" جميعا، هذا غير أن حسن اطلاعه على الأمور وثقافته، قد عاوناه في تأكيد نفوذه وتحقيق أكبر قدر ممكن من القبول بإمارته والسياسة التي يسير عليها.

بعد أن نقل الوالي – محمد نامق باشا – إلى استنبول، لتقليد منصب وزير الحربية، انتدب – تقي الدين باشا – لمنصب والي العراق بدرجة وزير،[٨٠] ولم يتغير شيء في سلم أولويات الدولة بخصوص وضع المنتفق، حيث وسعت من جهدها لخلق كل ما يهيئ من الأسباب لإسقاط الإمارة، ترافق ذلك مع سلسلة من المقالات التي نشرها – سليمان فائق – متسلم البصرة في صحف الأستانة، يحث فيها المقامات العليا في الدولة على بذل كل ما يمكن من جهد للتمكين من هذه الإمارة، التي أعيت الدولة وأذاقتها الهزائم والمرارة.[٨١] وقد كانت نتائج هذه المقالات ذات شكلين، أولهما: أن الدولة عزلت – تقي الدين باشا – بعد أن لمست عدم قدرته على تحقيق هدفها في القضاء على المنتفق، وانتدبت "مدحت باشا" في عام ١٨٦٩م لولاية العراق،[٨٢] مع إيصائه بضرورة تحقيق ذلك الهدف الذي طال أمد انتظاره، وثانيهما: أن تلك المقالات على سلبيتها اتجاه المنتفق وأميرها الأشقر،

---

(٧٩) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤٣٢.

(٨٠) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٧ – ص ١٥٤.

(٨١) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٥٣.

(٨٢) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٧ – ص ١٥٧.

لكنها منحته مساحة واسعة من الإعجاب والهيبة عند رجال استنبول، مما دفعهم أن يفكروا بشيء استثنائي يحقق هدفهم بأقل الخسائر، وهذا ما تعهد به مدحت باشا.[٨٣]

وقد تظافرت نية الوالي الجديد، مع مسعى سليمان فائق الذي كان يضمر الكيد للقضاء على هذه الإمارة، هذا غير كرهه الشديد للأشقر، فنقل لمدحت باشا كل ما يمكنه من آراء وأفكار وما يقترحه من تدابير تهدف في خلاصتها إلى إسقاط إمارة المنتفق.[٨٤] وقد قام مدحت باشا بتوضيح سياسته وسياسة الدولة القاضية بضرورة الإصلاح وجهدها ونيتها الصريحة بذلك، إلى أمير المنتفق – الأشقر – أثناء لقائهما، وأعلمه أن المشيخة زائلة فإن لم تكن اليوم فغدا، وقال له: لنتفق أن نقلب الشيخ باشا، والزعامة وظيفة كبيرة، والشرطنامة ورقة تفويض، كما عدد له حسنات الاستقرار وآثاره الإيجابية اقتصاديا وسياسيا.[٨٥]

لقد أدرك الأشقر أبعاد الموقف وخفاياه، وهو العارف بمديات القوة المتوفرة لديه والتي تملكها الدولة، هذا غير شعوره وتقديره بمدى الشرخ العميق الذي استطاعت الدولة أن تفعله في تمزيق القيادات السعدونية، لذلك كانت موافقته قسرية رغم كل ما حدث بعدها، وعليه فقد تم الاتفاق بين الأشقر ومدحت باشا على الأمور التالية:

١- تأسيس متصرفية، باسم متصرفية المنتفق، تكون تحت رئاسة شيخ مشايخ المنتفق ناصر باشا الأشقر.[٨٦]

٢- بناء حاظرة جديدة برغبة الأشقر، وجعلها مقرا رسميا للمتصرفية، بدلا من سوق الشيوخ مقر الإمارة السابق وتسميتها باسم "الناصرية" تيمنا باسم ناصر

---

(٨٣) المصدر السابق – ص ١٩٣.

(٨٤) سليمان فائق – تاريخ ...... مصدر سابق – ص ٥٤.

(٨٥) المصدر السابق – ص ٥٩ – ٦٠.

(٨٦) عبد العزيز نوار – تاريخ ...... ص ٣٧٤.

الأشقر،[٨٧] وهي المدينة التي خططها المهندس البلجيكي (جولس تيلي Jules Tilly) عام ١٨٦٩م بشكل عصري لم تألفه مدن العراق في حينه،[٨٨] وقد تبرع – الأشقر – لبناء المدينة بمبلغ (٤٢٥٠) ليرة ذهب، وألف ليرة أخرى لإنشاء جسر من القوارب يربط المدينة بالجانب الآخر من نهر الفرات.[٨٩]

٣- تفويض الأراضي الأميرية وشرائها من الدولة وتسجيلها بسندات الطابو، وتوطين ساكنيها من العشائر،[٩٠] ولم يكن هذا التفويض خاصاً بالمنتفق، إنما كانت الحالة عامة، وفي جميع العراق.

لم تمضِ أيام على هذه الترتيبات، وفي الأيام الأخيرة من عام ١٨٦٩م، حتى كان – مدحت باشا – يواجه ما عرف باسم وقعة الدغارة أو ذبحة المتصرف،[٩١] وهي انتفاضة قادتها عشائر عفك ضد سياسته الضرائبية وقتلت على أثرها ابن أخته – توفيق بك – متصرف لواء الحلة.[٩٢] وقد أوعز الوالي إلى متصرف المنتفق بمساعدته في إجهاض هذا التمرد، فجهز (٤٠٠٠) خيال قادهم الشيخ – فهد باشا العلي –.[٩٣] ورغم أن هذه القوة لم تشترك في أية معركة، لكنها أوضحت للوالي أهمية مساعدة المنتفق له وسرعت استجابتها، مما دعاه أن يشكر

---

(٨٧) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٧ – ص ١٩٦.

(٨٨) يعقوب سركيس – مباحث ...... ق ٣ – ص ٣١٨.

(٨٩) د. علي الوردي – لمحات ...... ج٢ – ص ٢٥٢.

(٩٠) صديق الدملوجي – مدحت باشا – بغداد ١٩٥٣ – ص٣٨.

(٩١) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص ٣٥١.

(٩٢) مذكرات الحاج صلال الفاضل "الموح" – تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري – مطبعة العاتي – بغداد ١٩٨٦ – ص ٣٢ وما بعدها.

(٩٣) جعفر الخياط – مصدر سابق – ص ٣٥٥.

الأشقر على همته، ويعين الشيخ فهد باشا العلي متصرفاً للديوانية عام ١٨٧٠م بعد فصلها عن لواء الحلة.[٩٤]

هذه الانتفاضة، سرّعت من نية مدحت باشا في تطبيق قانون الطابو وتفويض الأراضي في العراق، كجزء من إصلاحاته،[٩٥] وفيما يخص المنتفق، فقد كان الأمر قبل التفويض، أن الأمير المنتفقي يوزع الأرض بين أفراد عشائره بشكل حصص متساوية ضمن ما يمكن أن نطلق عليه "الملكية المشاعية". وقطعاً أن هذا التقسيم لم يكن دائماً عادلاً، فهناك أبناء الأمير أو خاصته، أو هباته وهداياه، لكنها بشكل عام تأخذ بنظر الاعتبار، ضرورة الحفاظ على تماسك اتحاده القبلي، الأمر الذي يدعوه لشمول أغلبية عشائره بزراعة الأرض.[٩٦] لقد كانت "الديرة" تعتبر ملكاً للقبيلة كلها، وليس ملكاً فردياً للشيخ أو عائلته، وموضوع استغلالها عائد للفائدة المتأتية من زراعتها وفقاً لخصوبتها ونظام الري فيها،[٩٧] وبما يخدم الجميع ويفيدهم.[٩٨]

لقد كانت الغاية الأساسية من تفويض الأراضي والتي دشنها مدحت باشا، تصفية النظام لقبائلي والعشائري، ووضع ملاّك الأراضي وزارعيها تحت نظر ويد الدولة، وهذه أحد أوجه سياسة السيطرة المركزية التي سعت الدولة العثمانية لتنفيذها في إمارة المنتفق، لأنها الإمارة الوحيدة المتبقية بعد تصفية وإسقاط جميع أوجه الاستقلال التي كانت تتمتع بها الإمارات العراقية الأخرى. وقد كان التفويض

---

(٩٤) جريدة الزوراء – عدد (١٦) في ١٦ أيلول ١٢٨٥ هـ.

(٩٥) سعيد حمادة – النظام الاقتصادي في العراق – المطبعة الأمريكانية – بيروت ١٩٣٨ – ص ١١٧.

(٩٦) عماد أحمد الجواهري – تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ١٩١٤ – ١٩٣٢ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٨ – ص ٧٩.

(٩٧) د. وميض جمال عمر نظمي – مصدر سابق – ص ١٠.

(٩٨) حنا بطاطو – مصدر سابق – ص ٩٨.

يستلزم وثيقة تحريرية رسمية، مما يلغي سلطة الشيخ في منح الأراضي لعشائره، كما هو معمول سابقا، ويجعل العلاقة مباشرة بين الدولة والمزارع المباشر، أي أن هذه الطريقة تهدف إلى إلغاء الملكية الجماعية، والتحول عنها إلى الملكية الفردية، وهذا ما يسبب تفكك الوحدة القبائلية،(٩٩) ويسهل للدولة التعامل المباشر، سواء بالسياسة أم بالقوة مع من يرفض رأيها وتوجهاتها، هذا إن علمنا أن القانون العثماني فيما يخص الأرض قد منع صرف سند الملكية للقبيلة بكاملها عن طريق الشراء.(١٠٠)

لقد كانت النتائج الاجتماعية والاقتصادية لسياسة تفويض الأراضي في ديار المنتفق عميقة الأثر، إذ أنها مست جوهر العلاقات الإنتاجية في القبيلة من جهة، وأدت من جهة أخرى إلى خلق طبقة اجتماعية جديدة.(١٠١) أي أن تفويض الأرض للسعدون، سمح لبروزهم كطبقة متميزة، لكنه بنفس الوقت أدى إلى تحللهم كمجموعة اجتماعية ذات منزله تقليدية. هذه الطبقة الجديدة هي أصحاب الأملاك الواسعة، أو ما سموا فيما بعد – رغم عدم انطباق الوصف عليهم – بالإقطاع، هذا التكون الجديد، نفذ عميقا وبأثر سلبي وتهديمي في طبيعة العلاقة القائمة بين الأمير السعدوني وقبائله ومقاتليه، لذلك لا أبالغ حينما أقول أن بدء تفويض الأراضي في المنتفق، وخصوصا أن أغلبها قد سجلت للسعدون نتيجة لامتناع عشائر المنتفق عن الإقدام على هذه الخطوة خوفا من الالتزامات تجاه الدولة، مثل الضرائب والتجنيد والاستقرار ...الخ. كان الحد الفاصل بين الاستمرار بالإمارة أم سقوطها الذي تحقق عسكريا وفعليا بعد ذلك بسنوات في معركة (الريس) عام ١٨٨١م. لقد سقطت الإمارة حتما قبل المعركة، لكن واقع الصدام العسكري قرر واقع حال

(٩٩) عبد الله الفياض – الثورة ...... مصدر سابق – ص ٢٢.

(١٠٠) صديق الدملوجي – مصدر سابق – ص ٤٧.

(١٠١) عماد أحمد الجواهري – مصدر سابق – ص ٣٧.

فعلي، التفويض أسقطها. إن تفويض الأراضي الذي بدأه الأشقر ومدحت باشا، قد أضاف للسلطة القبائلية سلطة رسمية، فبعد أن أصبح الأشقر متصرفاً ووالياً، فهو بنفس الوقت "شيخ مشايخ" المنتفق هذه الإشكالية أساءت له في علاقته مع عشائره، بدل أن تكون عامل قوة مساعد، لأن عشائره رأته موظفاً حكومياً، يأتمر بأوامر السلطة، في حين كان أسلافه يقودون عشائرهم بالضد من إرادة السلطة،(١٠٢) هذه الحالة عمقت من إشكالية وقلق العلاقة القائمة بين الأمير السعدوني وعشائره، ولم تحسنها جهود الأشقر الكبيرة، وحثه لجميع عشائره في المنتفق بأن يسجلوا الأراضي التي يتصرفون فيها بأسمائهم، حيث كان يحذرهم وينصحهم، بل يخوفهم من مغبة ما يأتي، إلا أنهم امتنعوا عن ذلك وتوهموا وساوس كثيرة.(١٠٣) ويذكر الأستاذ – الفياض – أنه سمع ممن عاصروا ناصر باشا الأشقر، أنه كان يحرض الناس جميعاً على شراء الأراضي وتسجيلها بأسمائهم في دائرة الطابو.(١٠٤)

إذن لقد أحدث تفويض الأراضي شرخاً كبيراً في طبيعة العلاقة القائمة بين الأمير وقبائله، بحيث جعل العلاقة الجديدة الناجمة من هذا القرار مترجرجة ومؤذية ومقلقة بين المزارع الحقيقي للأرض والمالك الرسمي. إن مشكلة التفويض والخلافات الحادة التي تزاوجت فيها المطامع والكراهية الشخصية وحب السلطة، كانتا كبيوض الأفاعي التي فقست تحت جناحي السياسة، مع حكومة تلعب لعبة الإنتهازية الواضحة.

صحيح، بل أكيد، أن نفوذ الأشقر، قد لعب دوراً رئيسياً في تسجيل معظم أراضي المنتفق له ولأقربائه ولخاصته، لكنه بنفس الوقت، كان يحث الجميع أن يفعلوا مثله، ويسجلوا أراضيهم بأسمائهم لكن حماسه هذا اصطدم بجدار من

---

(١٠٢) د. علي الوردي – لمحات ...... ج٢ – ص ٢٥٠.

(١٠٣) علي الشرقي – ذكرى ...... مصدر سابق – ص ٤٥ – ٤٦.

(١٠٤) عبد الله الفياض – مشكلة ...... مصدر سابق – ص ٤١.

الصمت وعدم المبالاة من قبل الجميع، خوفاً من الجندية ودفع الضرائب والاستقرار، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نُحمل الأشقر أو عائلة آل السعدون، مسؤولية ما حدث، مثلما فعل البعض من الكتاب وموظفي الدولة، رغم علمهم أن هذه الأرض كانت طيلة وجود إمارة المنتفق تحت تصرف الأمير، وتوزع لرغبته، متأثرين بوجهة نظر الإنكليز، السلبية والمتحاملة اتجاه آل السعدون ودورهم الوطني، خصوصاً وأن المحتل الجديد بعد عام ١٩١٨، قد صادر جميع أراضي آل السعدون ولم يعطهم منها إلا وفقاً لقانون ٧,٥% الذي سنه وطبقه لأراضي المنتفق تحديداً.*

نحن لا ندافع عن حالة خاطئة والمتلخصة بتفويض الأراضي، لكني أجد أن هناك الكثيرين من العراقيين في العمارة وديالى والحلة وبغداد وكربلاء والموصل قد اشتروا من الدولة وفي ولاية مدحت باشا، مئات الآلاف من الدوانم الزراعية، لم تشملهم قوانين الإنكليز اللاحقة، والأهم أنه لم يذكرهم أي باحث تاريخي، أو يتطرق إليهم وما يملكون!! إني أتساءل، لماذا ذلك التجاهل ولماذا هذا التخصيص؟ ولماذا تلك اللامبالاة في مناطق العراق الأخرى، وتلك الحماسة المبالغة عند الحديث عن المنتفق وآل السعدون؟ إنه سؤال لا أدعي لنفسي إمكانية الإجابة عنه، لأنه متشعب، تدخل فيه السياسة والدين والمواقف الوطنية والعرق وطبائع البشر و ...... و ...... الخ.

---

* نظراً للدور الوطني الذي اضطلعت به أسرة آل السعدون في محاربة الإنكليز أثناء دخولهم للعراق، فقد سن المحتلون الجدد قانوناً صمموه تحديداً على أراضي المنتفق، ولم يطبق خارجها، أعطوا بموجبه نسبة ٩٢,٥% من الأراضي لشيوخ المناطق و"السراكيل" الذين تعاونوا معهم وخدموهم وسهّلوا احتلالهم، وأعطوا الباقي ٧,٥% للمالك الحقيقي صاحب الطابو من أسرة آل السعدون. ولم تتأثر أي أسرة أو عائلة مالكة للأراضي الزراعية في العراق، مثلما تأثرت أسرة آل السعدون من المحتل الإنكليزي.

إذن وهذا ما لا نجامل فيه، فإن تفويض الأراضي الذي يتبعه استقرار العشائر لم يكن دقيقاً ولا عادلاً، بل إنه ساهم بقسط وافر من المسببات التي أسقطت الإمارة لاحقاً، ولكن هذا الاستقرار هو إحدى مراحل الانتقال الحتمية التي لا بد أن تمر بها القبائل في مراحل حياتها. وعليه فرغم ما طبل لمدحت باشا وإصلاحاته في العراق، فإن مسألة تفويض الأراضي، خلقت مشكلة عويصة ومعقدة للعراق وأهله، شغلت الناس طويلاً وأدت إلى خراب الأراضي، كما أنها خلقت نزاعاً دائماً بين الزراع والمتفوضين، هذا غير كونها خلقت طبقة إقطاعية تمتلك الكثير ولا تعرف قيمته، عدا كونها منافية للمنطق والوجدان.(١٠٥)

وعلى صعيد السياسة الخارجية، فقد تطلع الوزير – مدحت باشا – لتوسيع دائرة نفوذ الدولة في منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية، حينما استغل النزاع القائم بين الأخوين (عبد الله وسعود) أثر وفاة والدهم الأمير (فيصل بن تركي آل سعود) خصوصاً أن عبد الله أرسل وكيلاً عنه إلى بغداد، عارضاً التبعية ودفع الأتاوة، إذا نهضت الدولة وساعدته في اقصاء أخيه عن الإمارة،(١٠٦) كذلك كتب

---

(١٠٥) يراجع في ذلك:

١- وادي العطية – تاريخ الديوانية قديماً وحديثاً – المطبعة الحيدرية – النجف ١٩٥٤ – ص ٥٨.

٢- عبد الرزاق الظاهر – الإقطاع والديوان في العراق – مطبعة السعادة – القاهرة ١٩٤٦ – ص ١٨.

٣- لوتسكي – مصدر سابق – ص ١٧٤.

٤- عبد الله الفياض – مشكلة ...... مصدر سابق – ص ٥٠.

٥- د. علي الوردي – لمحات ...... ج٢ – ص ٢٤٩.

٦- عماد أحمد الجواهري – مصدر سابق – ص ٢٧٦ وما بعدها.

(١٠٦) لونكريك – مصدر سابق – ص ٣٦٣.

لنفس الغرض إلى ناصر باشا الأشقر، أمير المنتفق يطلب مساعدته.[١٠٧] وقد تلقف مدحت باشا هذا العرض، وأعد له حملة بقيت أنباء إعدادها بعيدة عن أسماع الإنكليز ذوي النفوذ القوي في الخليج العربي،[١٠٨] ولذلك تحركت الحملة في الواحد والعشرين من شهر نيسان عام ١٨٧١م من بغداد، متجهة نحو الإحساء بقيادة الفريق – نافذ باشا – حيث أسندتها المنتفق بالمال والرجال،[١٠٩] وجهزها شيخ الكويت بثمانين سفينة لنقل الجيش مع قوة استطلاعية صغيرة.[١١٠] ولم تلق الحملة أية مقاومة تذكر، حيث كان للمدفعية العثمانية الدور الأهم، مما مكن الحملة من الاستيلاء على الإحساء بأسرها في أواخر حزيران ١٨٧١م، حيث شكلت فيها إدارة وجعلت لواء من ولاية البصرة.[١١١]

وقد توجه مدحت باشا، بنفسه إلى الإحساء في أواخر عام ١٨٧١م، ليشرف بنفسه على أوضاع هذا الإقليم، حيث ألغى حكم – آل سعود – واتخذ التدابير اللازمة لحكم الإحساء حكما مباشرا،[١١٢] متخذا من فرار – عبد الله – من المعسكر العثماني حجة لذلك،[١١٣] وقد استمرت هذه الجولة لمدة (٤٠) يوما غطتها جريدة الزوراء بشكل تفصيلي.[١١٤]

---

(١٠٧) J.B. Philiby – Saudi Arabia (Nations of the Modern World) 1St Edition – London 1955 – P: 221.

(١٠٨) عبد العزيز نوار – لمحات ...... مصدر سابق – ص ٤١٦.

(١٠٩) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٧ – ص ٢٥٨.

(١١٠) حسين خلف – مصدر سابق – ج١ – ص ١٣٧.

(١١١) محمد رشيد السعدي – مصدر سابق – ص ١٤٧.

(١١٢) د. عبد العزيز نوار – لمحات ...... مصدر سابق – ص ٤٣١.

(١١٣) J.B. Philiby – OP . Cit – P: 222.

(١١٤) جريدة الزوراء – الأعداد (٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٩).

في هذه الفترة، ونظراً للمساعدات الكبيرة التي قدمها الأشقر للدولة، فقد أغدقت عليه الأوسمة العالية التي لا ينالها إلا من يحتل منصب الصدارة العظمى،[١١٥] حيث وجهت إليه رتبة الوزارة، وقلد ولاية البصرة في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام ١٨٧٤م، حينما كان في أستنبول، حيث حظي بمقابلة السلطان عبد العزيز.[١١٦] والملاحظ على سياسة الدولة في هذا الجانب، أنها استهدفت تقليل نفقاتها، بنفس الوقت أعطت اعترافها بقوة المنتفق ودورها في العراق الجنوبي.[١١٧] الوالي الأشقر من جانبه، أحكم القبضة، حينما اسند لولده – فالح – متصرفية الناصرية ومشيخة المنتفق، لكي يتفرغ لأمور ولايته الكثيرة.

لم تقابل سيطرة الدولة على الإحساء بالرضا من قبل "آل سعود" الذين أرادوا إعادة نفوذهم عليها عن طريق المفاوضة والسلم، حينما بعث الأمير – سعود – أخاه – عبد الرحمن – إلى بغداد عام ١٨٧١م لمفاوضة الدولة، حيث أقام فيها بحدود ثلاث سنين، وعاد لنجد عام ١٨٧٤م، بعد أن اتضح لديه فشله في هذا المسعى. عندها عزم "آل سعود" على استرداد الإحساء بالقوة، فقاموا بحركات معارضة ضد الدولة العثمانية،[١١٨] ولأن لواء نجد ضمن تشكيلات ولاية البصرة،* فقد طلبت الدولة من الأشقر ممارسة واجباته، فحشد جيشاً بقيادته، يقدر بعشرة آلاف مقاتل، ومعهم ألف بعير تحمل المؤن والذخيرة،[١١٩] وسار باتجاه الإحساء، حيث استطاع أن يهزم القوات السعودية، ويدخل مدينة – الهفوف – في أواخر عام

---

(١١٥) يعقوب سركيس – مباحث ...... ق٢ – ص ٢٥٧.

(١١٦) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢١٣٠.

(١١٧) عبد العزيز نوار – لمحات ...... مصدر سابق – ص ٤٣٣.

(١١٨) حسين خلف – ج١ – مصدر سابق – ص ١٤٠.

* المقصود بلواء نجد في هذا العرض، المنطقة التي تقع جنوب البصرة والمطلة على الخليج العربي التي تجدها شرقا وتحيط بها من الجنوب والغرب صحراء نجد.

(١١٩) علي الشرقي – العرب ...... مصدر سابق – ص ٢٠.

١٨٧٤م. وعين الشيخ "بزيع آل عريعر" زعيم بني خالد متصرفاً عليها، بـدلاً مـن الشيخ "براك بن عبد المحسن السرداح".[١٢٠]

ولم تمضِ إلا ستة أشهر على هذه الأحداث، حتى كانت الإحسـاء، ملتهبـة بثورة ضد المتصرف ودولته، وقد أعلم الأشقر بالإحداث، فكتب إلى الأمير – عبـد الله الفيصل آل سعود – ناصحاً إياه بإطاعة الدولة وتجنب إراقـة الدمـاء البريئـة، فكان جوابه له (أن الحسا دولتنا وليس للسعدون والروم شأن فيـها) الأمـر الـذي اضطره أن يعلن النفير العام في ولايته، حيث جمع جيشاً يقارب تعـداده (٢٠,٠٠٠) ألف مقاتل، زوده بالمدافع والعتاد والمؤن والمعدات اللازمة،[١٢١] وأناط قيادته بولده – فالح باشا – وأرسل معه كل شخصيات المنتفق المهمة والمؤثرة ليكونوا عوناً لـه. وقد سار الجيش باتجاه هدفه، إلا أن شيخ الكويت – عبـد الله الصبـاح – عطـل مسيره حوالي أسبوعين، بحجة خوفه على الجيش تارةً، وأخرى ضـرورة مراعـاة أوضاعه وثالثة قلة المؤن. ولم يحسم الأمر، إلا بمجيء الأشقر، الذي قـاد الجيـش بنفسه، وأوضح لأهل المنتفق وأراهم مكونات وطبيعة من عطلهم عن هدفهم هـذه الفترة.[١٢٢]

كما طلب الأشقر من شيخ الكويت أن يوفر للجيـش سـفناً لنقـل المـؤن والعتاد، مع قوة كويتية للدلالة "كمسبوقة" ونفذت جميع طلباته.[١٢٣] وقد دخل الجيش في معركة ضد أعراب الإحساء وقوات "آل سعود" والمعروفة بوقعـة (الخويـر)*

(١٢٠) عبد العزيز نوار – لمحات ...... مصدر سابق – ص ٤٣٤.

(١٢١) فاسيليق – مصدر سابق – ص ٢٣٥.

(١٢٢) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(١٢٣) حسين خلف – ج ١ – مصدر سابق – ص ١٤٠.

* الخوير: موضع يبعد عن الإحساء (٣) ساعات.

والتي انتهت لصالح المنتفق رغم البسالة التي أبداها أعراب الإحساء في الدفاع.[١٢٤]

لقد كان هذا الانتصار الذي تحقق، أحد أوجه أشكال النفوذ المتزايد للأشقر في العراق الجنوبي وعلى أطراف الخليج العربي، بحيث شكل حالة استقلالية بدأت ظواهرها واضحة وجلية،[١٢٥] لأن الإحساء والمنطقة المحيطة بها، لم تكن تابعة للسلطة العثمانية بشكل حقيقي ، إلا أيام تولي الأشقر ولاية البصرة، وكل ذلك جاء بفضل همته وشجاعته وجلده وإدارته الجيدة.[١٢٦] ولم يستطع من جاء بعده أن يحافظ على هذا الإقليم، بل إنه انفصل عن الدولة لاحقا. والإحساء، كانت تخضع بين فترة وأخرى للمنتفق، خصوصا عندما تكون الدولة عاجزة عن ذلك.

بعد أن تم احتلال الإحساء، عين الأشقر نجله – مزيد باشا – متصرفا عليها، و – مبارك الصباح – معاونا له، بناءا على استقالة – بزيع آل عريعر – بسبب مرضه،[١٢٧] وارتبطت هذه المتصرفية بعد أن جرى تشكيل إدارتها مع ولاية البصرة.[١٢٨] وتعليقنا على هذه الأحداث، إن ما حققه الأشقر في الإطلاله البحرية للإقليم العراقي، كانت أكثر من مهمة، لأنها أعطته مجالا واسعا في الخيارات، وفتحت له التعامل واسعا مع العالم. وقد تكون لثقافة الأشقر ومراقبته ورصده لموازين القوى في المنطقة، هذا غير تفكيره وطموحه الاستقلالي، هي التي دفعته إلى التمسك بهذا الشريط البحري، لما يوفر له من حركة واسعة ونشطة قد يحتاجها

---

(١٢٤) فاسيلييف – مصدر سابق – ص ٢٣٧.

(١٢٥) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢١٣٠.

(١٢٦) ميرزا حسن خان – مصدر سابق – ص ٨٧.

(١٢٧) د. عبد الفتاح حسن أبو عليه – دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر – دار المريخ للنشر – الرياض ١٩٨٦ – ص ٣٦٧.

(١٢٨) عباس العزاوي – تاريخ ......ج٨ – ص٢٦.

في وقت ما. وقد بدا نفوذ الأشقر كبيرا ومؤثرا، مما أوحى أن ثقله قد أصبح موازيا لثقل الدولة إن لم يفقها، لأن اجتماع السلطة الرسمية له كوال على ولاية البصرة، مع النفوذ المحلي الذي توفره له المنتفق، قد أخاف الدولة "العلية" بحيث جعلتها هذه الأحداث تحسب خطواتها، خوفا من أن يعلن الأشقر استقلاله عن الدولة.(١٢٩)

أزاء ذلك تابعت دوائر استنبول باهتمام زائد، الخلاف الناشئ بين الوالي الأشقر ووكيله ومعتمده السابق (قاسم باشا آل زهير) بعد أن قابل الأخير السلطان العثماني، وخوفه من سياسات المنتفق ونياتهم في العراق الجنوبي.(١٣٠) لذلك الحت الدولة بضرورة مجيء – ناصر باشا الأشقر – لاستنبول، فسافر مضطرا في تشرين الثاني ١٨٧٦م حيث تمت مقابلته للسلطان – عبد الحميد الثاني – الذي أصدر في كانون الثاني ١٨٧٧م، فرمانا بتعيين الأشقر عضوا في (مجلس شورى الدولة) بدرجة وزير وإعفائه من ولاية البصرة.(١٣١) وقد كان هذا الاستدعاء والتعيين الجديد في مظهريته تكريما للأشقر، إلا أن واقع الحال، يدل على أنه كان سجنا سياسيا وإقامة جبرية بطريقة مهذبة،(١٣٢) حيث منعت الدولة عودته للعراق حتى وفاته عام ١٨٨٥م في استنبول ودفنه فيها.(١٣٣)

بعد إبعاد الأشقر عن مسرح الأحداث، فقد أعادت الدولة تنظيم تشكيلاتها، حيث ألغت ولاية البصرة، وجعلتها متصرفية مرتبطة بولاية بغداد،(١٣٤) كما أعفت

---

(١٢٩) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص ٧٥.

(١٣٠) البنهاني – مصدر سابق – ص ٣٣٩.

(١٣١) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص ٧٥.

(١٣٢) لوريمر – مصدر سابق – ص ٢١٣٠.

(١٣٣) يعقوب سركيس – ق ٢ – مصدر سابق – ص ٢٥٧.

(١٣٤) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٨ – ص ٣٤.

– فالح باشا – من متصرفية المنتفق في شباط ١٨٧٧م، وإناطتها بالشيخ – فهد باشا العلي – تماشياً مع سياستها في إيجاد النفرة والتشاحن والفرقة بين أسرة آل السعدون وإضعاف الجميع لصالحها.

ثم عادت الدولة وعينت الفريق – أحمد باشا – الملقب بـ "أبي دنبوس" وكيل متصرف على المنتفق عام ١٨٧٩م، وكانت تهدف من ذلك إضعاف الإمارة تمهيداً لإسقاطها.[١٣٥] هذه التدخلات الواسعة من قبل السلطة لم تقابل بالرضا من قبل الجميع، بل إن وجود هذا المتصرف شكل سابقة لم يألفها المنتفقيون، لذلك كانت أوامره عديمة التنفيذ، مما أساء لهيبة الدولة، أكثر مما أفادها مثلما كانت تعتقد، لذلك أسرع الوالي – عبد الرحمن باشا – إلى استبداله بالشيخ – فالح باشا – كمتصرف وشيخ مشايخ المنتفق، معاكساً بذلك لإرادة الدولة ورأيها في هذا الموضوع.[١٣٦]

ورغم أن هذا التبديل قد هدأ من فورة الغليان المتصاعده، إلا أن ذلك الهدوء لم يكن إلا مؤقتاً، بحيث أن ذهاب الوالي – عبد الرحمن باشا – للبصرة للوقوف على أسباب اضطراب المنتفق لم تجد نفعاً، رغم أن الرجل من المتعاطفين مع المنتفق وآل السعدون، ومن الساعين لحل إشكالاتهم مع الدولة بالحسنى.[١٣٧]

أما أحوال المنتفق الداخلية، خلال هذه السنوات، فقد كانت في مظهريتها أكثر من جيدة، بل إنها كانت أسعد أيامها، في حين كان واقع الحال غير المنظور يؤكد أن هذه الأيام تحمل معها نهايات هذه الإمارة،[١٣٨] فقد تحول أمراؤها إلى إقطاعيين، لم تعد تهمهم أحوال الجيش وترصين وحدة الاتحاد، بل انشغلوا على

---

(١٣٥) المصدر السابق – ص ٤٠.
(١٣٦) م.ص.مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.
(١٣٧) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٨ – ص ٤٩.
(١٣٨) علي الشرقي – ذكرى ...... مصدر سابق – ص ٤٤.

تسجيل الأراضي وأجربة النخيل بأسمائهم في دفاتر الحكومة، وتحول قادتها إلى سراكيل مهتمين بالواردات السنوية وما يتحصل لهم منها، وضاع مقاتلوها بين هذا وذاك، ولم يهتدوا الى طريق يعدل الاعوجاج، فتحولت أعنة الخيل إلى دفاتر حسابات، وسيوف المقاتلين إلى ليرات ذهبية، فغدت الإمارة، كتلة كبيرة من الثلج لا تحتاج إلا لدحرجة لتسقط كلها، خصوصا وإن الدولة العثمانية شجعت قبائل المنتفق على الانشقاق عن أمرائها الذين تورطوا معها في موضوع تسجيل الأراضي، زائدا – وهذا هو المهم –لم يتوفر للإمارة، رأس قيادي يحل هذا الإشكال. لذلك فأزاء الضغط الخارجي العثماني، والضغط الداخلي القبائلي، ثارت المنتفق ثورتها الأخيرة.

وقد بدأت منذ نيسان ١٨٨٠م، حركات التمرد والعصيان على الدولة، من خلال طرد موظفي الدولة والامتناع عن أداء الضرائب، وقطع أسلاك التلغراف وإجراء التعبئة الواسعة في ديار المنتفق، مع السعي لتحشيد العشائر الأخرى في نفس الاتجاه،[١٣٩] وقد أرسلت الدولة الكثير من التعزيزات العسكرية لعموم المناطق المحيطة بأرض المنتفق، تحسبا من آثار حركة التمرد المتصاعدة والتي ألغت أي وجود للدولة في المنتفق.[١٤٠]

وبين أيلول وتشرين الأول ١٨٨٠م، ترافق حدثان مهمان، الأول: التحاق – منصور باشا بن راشد الثامر – أمير المنتفق الأسبق، وعضو مجلس إدارة مدينة بغداد، والمقيم فيها إجباريا طيلة ثلاث سنوات سابقة، بديار المنتفق، ليعطي للانتفاضة زخما قويا ودفعا للأمام، حيث استدعى إليه ابن أخيه – فالح باشا – وعموم عشائر المنتفق، وأعلن استقلاله عن الدولة، وسمى نفسه "سلطان البر"،[١٤١]

---

(١٣٩) م.ص.مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) – يوميات زفبودا.

(١٤٠) المصدر أعلاه.

(١٤١) د. علي الوردي – لمحات ...... ج٣ – ص ٣٩.

والثاني: عزل الوالي – عبد الرحمن باشا – وتعيين – تقي الدين باشا – بديلا عنه، وهو المعروف بالبطش والقسوة،[١٤٢] إثر برقية شديدة رفعها رئيس أركان الجيش السادس المرابط في العراق – عزت باشا – إلى السلطان (عبد الحميد الثاني) جاء فيها (أيها السلطان ما دامت ليرات السعدون ومطامع المسؤولين موجودة فلا يمكن إصلاح العراق).[١٤٣]

ان استمرار التصعيد جاء متوافقا من الطرفين، ففي الوقت الذي اتضح أكثر فأكثر ابتعاد المنتفق عن الدولة، نتيجة السلوك المتسم بالكبرياء والغطرسة والعنف والقسوة، التي أصبحت ديدن الولاة، وبما يتنافى تماما ونفسية بدو الصحراء، الأمر الذي أحالهم إلا كتلة ملتهبة من السخط، لا يحتاج إلى مفجر بسيط ليفعل فعله، بذات الوقت فإن الدولة لم تتوقف من إرسال جنودها تعزيزا للموقف وتحسبا من الأيام القادمة.[١٤٤] وهكذا فقد كانت الأجواء حول الجميع مشحونة بالتوتر مزدحمة بالشك معرضة طوال الوقت للمفاجآت.

هذه الحالة، وضعت دوائر استنبول أمام قرار مهم، خصوصا وإنها لم تنظر لما تبقى من سلطة آل السعدون بعين العطف، وسعت بكل وسيلة للقضاء عليهم بعد أن تم تشذيب نفوذهم رويدا رويدا،[١٤٥] حيث أوكلت للفريق – عزت باشا – إمكانية القضاء على هذه الثورة وإمارة المنتفق معا، بما يتيسر له من قوة عسكرية نظامية، وما يمكنه أن يقيمه من تحالفات قبائلية، بعد أن فشلت جهود الأشقر في أستنبول في تهدئة الأحوال واستيعاب الأحداث، رغم مقابلته للسلطان وتعهده له بإعادة الاستقرار والسكينة للمنتفق.

---

(١٤٢) المصدر أعلاه – ص ٤٠.

(١٤٣) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٨ – ص ٥٥.

(١٤٤) م.ص.مخ – رقم الملف – (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

(١٤٥) عبد الله الفياض – مشكلة ...... مصدر سابق – ص ٦٠.

وكان رئيس أركان الجيش السادس – عزت باشا – عند حسن ظن مسؤولي استنبول، حيث كان ثابت العزم، قوي الإرادة، بضرورة إنهاء حياة هـــذه الإمـــارة وفي هذا الوقت وعلى يديه، بعد أن اطمأن إلى سلامة قواته وتصميمها على تحقيـق هذا الهدف.[١٤٦] على الصعيد ذاته، فإن فرار – منصور باشـــا – وازديـــاد حالـــة التمرد، وضع أمير المنتفق – فالح باشا – أمام حالة صعبة، فالرجل يســـميه أهــل المنتفق – فالح الخير – لابتعاده عن العنف وسفك الدماء، هذا غير تدينـــه وتعبـــده الذي طبع تعامله بشكل دائم بطابع سلمي، يضاف الى ذلك أن والده – ناصر باشـــا الأشقر – موجود في استنبول، وتحت نظر ويد الدولة، الأمر الذي دفعه إلى الـتريث والمناورة قدر الإمكان تجنباً للاصطدام.[١٤٧]

تلك التهدئة وذلك السلوك، لم يصمد، أمام الحالة المتصـــاعدة فـــي "ديـــرة" المنتفق، ترافق معها وصول رسالة لفالح باشا، من والده الأشقر، يبيـــن لـــه فيـــها موقف الحكومة وعزمها على كسر شوكتهم، ويطلب منه بذل كـــل جـــهد للوحـــدة وإنفاق المال الكثير والاستعداد للمعركة التي ستكون حاسمة لكلا الطرفين.[١٤٨] وقـد تصاعدت أحداث الانتفاضة بزخم أعلى، حين يلتحق بالثوار الشيخ – فهد باشا العلي – وأعوانه في نهاية آذار ١٨٨١م، مما يضيف خبرةً وقدرةً للثـــورة التـــي بـــدأت مطاليب القائمين بها تتمركز على الاستقلال.[١٤٩]

أنهى الفريق – عزت باشا – تجهيز قواته وسار بها باتجاه المنتفق، عازمـــاً على تحقيق ما أنيط به من مهام. وفي طريقه استطاع أن يضم الى جانبـــه عشـــائر

---

(١٤٦) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٨ – ص ٥٤.

(١٤٧) م.ص. مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

(١٤٨) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(١٤٩) م.ص. مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

ربيعة وزبيد وبني لام،[١٥٠] على الجانب الآخر، فقد كانت المنتفق في عنفوانها، ولم تشكِ من نقص في الرجال، في حين كانت رسائل الأشقر لفالح باشا وقادة المنتفق الآخرين، تعطيهم صورة واضحة عن ما يجري ويدور في استنبول أزاء انتفاضتهم. لقد آن للمرارة المتراكمة أن تطفو على السطح، وكل ما كان على المنتفق أن تفعله هو تقريب عود الكبريت إلى الفتيل.

وقعت المعركة الفاصلة بين الطرفين والمسماه.. (حرب الريس) في نهاية آب ١٨٨١م في منطقة (أم الشعير) قرب مدينة الحي.[١٥١]

وكانت خطة المنتفق الحربية تتلخص بسوق حوالي ثلاثة آلاف بعير، بعد أن وضعوا على ظهورها الرمل وسدوا آذانها بالزفت لكي لا تفزع من صوت المدافع، وكان على كل بعير رجلان، أحدهما ينثر الرمل في وجوه الأعداء لكي يشوش عليهم الرؤية، والثاني يضرب البعير، بعصا من حديد لكي يشتد في اندفاعه للأمام،[١٥٢] ويترافق مع هذا اندفاع قوة المشاة للسيطرة على المدفعية وتعطيل دورها، على أن تقوم خيالة المنتفق بطرد خيالة الجيش والعشائر المساندة له،[١٥٣] وقد كادت الخطة أن تنجح بما خطط لها، حيث هزمت قوات الخيالة العائدة للجيش، وسيطر على بعض كتائب المدفعية، إلا أن وجود قائد الحملة – عزت باشا – على رأس قواته، قد أوجد حالة من التماسك عند قوات الدولة، حيث صمد بشجاعة عالية أمام هذا الهجوم، وهو ثابت العزم مشجعاً جنوده وضباطه ومحرِّضهم على الثبات، في حين كانت مدافعه تؤدي واجبها بشكل كبير وترمي بانتظام وبشكل دقيق.[١٥٤]

---

(١٥٠) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٨ – ص ٥٥.

(١٥١) م.ص. مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

(١٥٢) د. علي الوردي – لمحات ...... ج٣ – ص ٤٠.

(١٥٣) م.ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(١٥٤) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٨ – ص ٥٤.

في خضم تلك اللحظات الحرجة، التي كان فيها النصر لإحدى القوتين، معلقاً على الاستبسال والصمود، تقدم عشائر "المياح" والمتحالفة مع المنتفق في تلك المعركة على خيانة حلفائهم، حينما نقلِوا تحالفهم إلى معسكر الدولة، وبنفس الوقت انثالوا على معسكر وبيوت حلفائهم السابقين وأعملوا فيها نهباً وهم في حالة هيجان وفوضى،(١٥٥) حتى أن مهوالهم قال يخاطب نساء آل السعدون "خلِ* الجش** خالج*** محتاجه****" مما يشير إلى سرعة تنكر الإنسان للمروءة أمام خيال السلطان والطمع. هذه الانتقالة غيرت من النتائج التي آلت إليها المعركة فيما بعد، فقد كانت هذه الحركة بمثابة ضربة قاضية لمعسكر المنتفق، خصوصاً وأن بعض العربان الآخرين، وبعد أن رأوا ما حدث قد شاركوا في عمليات النهب وحالة الفوضى، طمعاً في الغنيمة، مما أدى إلى تحلحل الوضع العسكري. أزاء ذلك وبعد أن رأى المقاتلون من – آل السعدون – هجوم الغوغاء على بيوتهم وعوائلهم، الأمر الذي اضطرهم أن يتركوا مقاتلة الجيش، – الذي لم يهزمهم حتى ذلك الوقت – والدخول في معركة ضد حلفائهم وأنصارهم السابقين، دفاعاً عن بيوتهم وعوائلهم. وقد تداخلت الأحداث بحيث مُنح الجيش العثماني، نصراً سهلاً لا يستحق، بسبب خيانات البعض، حيث كان مقاتلو آل السعدون لوحدهم يخوضون المعركة على الجانبين، حتى دون عشائرهم المنتفقية الأخرى التي نفضت يدها من الأمور، إن لم تكن قد انحازت للمنتصر، هذا الأمر استلزم منهم أن يقاتلوا طيلة النهار والليل كله،

---

(١٥٥) د. علي الوردي – لمحات ...... ج٣ – ص ٤٠.

* خلِ: أي أتركي.

** الجَش: مجموع الافرشة من سجاد وبسط وأغطية في أي بيت، ولعلها محرفة من كلمة "قش".

*** خالج: أي – خالك – لأن مياح هم أخوال آل السعدون.

**** والمعنى، أن أتركي ما تملكين لخالك، فهو بحاجة له.

حتى تمكنوا من ترحيل عوائلهم تحت صليل السيوف ووابل من الرصاص والقنابل.[156]

كانت الهزيمة واضحة، خسرت فيها المنتفق الكثير من الرجال والأموال التي نهبت من بيوت العوائل، وسقطت إمارتها المحتضرة على طريقة موت الأشجار، وبشكل يليق بتاريخها وعطائها الطويلين:

ما حيلة الرامي إذا التقت العدى

وأراد رمي السهم فانقطع الوترِ

وقد انسحب المنهزمون أولاً لمنطقة (العكار)[157] ثم واصلوا المسير باتجاه مدينة الشطرة التي رفضت استقبالهم!!!![158] مما اضطرهم أن يوغلوا نحو بادية الشامية من دون توقف، وبدون أية راحة للمقاتلين أو للعوائل،[159] خصوصاً أن القوات الحكومية كانت تتعقبهم.

لم يمكث آل السعدون في البادية أكثر من شهرين، بعد أن وصلتهم معلومات، أن الدولة وبعض العشائر قد اتصلت بالأمير – محمد الرشيد – أمير حائل، وأغروه بالهجوم عليهم، بحجة أن لديهم أموالاً جمة سهلة السلب.[160] أزاء تلك المعلومات ولقلة ما هو متوفر لديهم من المقاتلين، ولإطاعة عشائر المنتفق للدولة وخضوعهم لأوامرها، بعد أن ألغيت مشيخة المنتفق،[161] كما أن الحكومة

---

(١٥٦) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(١٥٧) م.ص. مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

(١٥٨) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص ٣٦٠.

(١٥٩) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤٤١.

(١٦٠) حسين خلف –مصدر سابق – ج١ – ص ١٤٥.

(١٦١) عباس العزاوي – تاريخ ...... ج٨ – ص ٦٨.

اعتبرت كل من الباشوات – منصور وفهد وفالح – خارجين على القانون،[١٦٢] فقد وجدوا أن التوجه إلى "الحويزة" والنزول بجوار أمير عربستان (مزعل الحاج جابر المرداو) أكثر أماناً من أية منطقة أخرى.[١٦٣]

لقد شغل سقوط إمارة المنتفق الناس لفترة طويلة، وأسف عليها الجميع، بما فيهم أولئك الذين لهم رأي آخر في الإمارة وأشخاصها وقادتها، وقيل في الإمارة وأحداث أيامها الأخيرة الكثير من الروايات والأساطير والأشعار، لعل أبلغها وأشجاها وأكثرها دقةً، ما قالته إحدى نساء آل السعدون، تخاطب فيها أميرها فالح باشا:

أسرع وخوذ الثار فالح يا غرنوك

طاسه وخذاها الروم بيش أحلب النوك

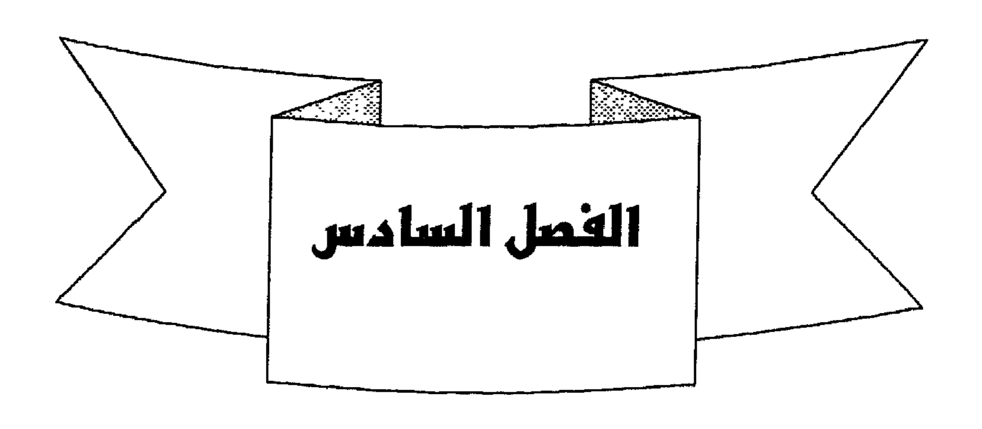
لذلك كانت هذه المعركة مسك الختام في حياة إمارة المنتفق، بعد أن عاشت أكثر من ثلاثة قرون ونصف، وهي في حالة استنفار دائمي، كان أغلبه موجه ضد التسلط والاحتلال العثماني، وبعضه ضد الفرس وأطماعهم. ظلت هذه الإمارة كل هذه الفترة، وهي تقاتل وتنتصر وتحرر، وتنتكس، لكنها حتى في حالات انتكاساتها، كانت تتوهج لفعل إيجابي قادم. كما تمكنت هذه الإمارة من تحقيق، بل من انتزاع نفوذها محلياً وإقليمياً، بما لم تتمكن منه، أية إمارة عراقية أخرى، ولذلك كوفئ من استطاع إسقاطها بالكثير، فالوالي – تقي الدين باشا – أبقي ست سنوات والياً على العراق، وهي مدة لم يحظ بها من تلاه من الولاة، في حين أسندت للفريق – عزت باشا – ولاية ومشيرية اليمن.[١٦٤]

---

(١٦٢) م.ص. مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

(١٦٣) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤٤٢.

(١٦٤) د. علي الوردي – لمحات ...... مصدر سابق – ج٣ – ص ٤١.



النهوض الجديد... وحركة الجهاد

بعد أن انتهت معركة "الريس" وما حققته من نتائج واضحة لأصحاب الرأي القائل بضرورة إزاحة إمارة المنتفق لصالح التوجه المركزي للسلطة العثمانية في العراق الجنوبي، فقد بات جليا منذ الأيام الأولى لما بعد المعركة، مدى الجهد والثقل الذي ستنوء به السلطة المركزية وأجهزتها بعد غياب إمارة المنتفق من أرض الواقع، إزاء تعاملها المباشر مع العديد من العشائر والفروع والأحلاف المكونين سابقا لاتحاد المنتفق القبائلي، هذا أولا، وثانيا: أن الغياب القسري لهذه الإمارة وتحت وطأة السلاح، كان أكثر المتضررين به، الإقليم العراقي من خلال استقطاع أو تجيير المساحات الواسعة – خصوصا المطلة على البحر – لصالح قوى جديدة في المنطقة، لأن المنطقة الممتدة من جنوب البصرة حتى سواحل قطر، كانت واقعة تحت نفوذ وهيمنة المنتفق وبحراستها، لكن حينما غاب اللاعب الأساسي وصاحب النفوذ الفعلي في هذه المنطقة، فبلا شك أن الخارطة اللاحقة لما بعد هذا الغياب ستكون غيرها حينما كانت المنتفق صاحبة الأمر في هذا الإقليم.

وثالثا: إن السلطة العثمانية، لم تخلق البديل المعادل لإمارة المنتفق من خلال سد الفراغ الحاصل في مكونات القوة على مستوى المنطقة، كما أنها وأجهزتها كانت عاجزة عن ملء الفراغ الحاصل لما بعد سقوط المنتفق. ولم يكن أكثر من الإنكليز فرحا بما حدث، لأن إمارة المنتفق كانت آخر الحواجز بوجه نفوذها في العراق وعلى سواحل الخليج، بعد أن استطاعت أن تهندس أوضاعها ومصالحها على مداخل الخليج. وهذا بلا شك أحد شواهد قصور الفهم عند صناع القرار في السياسة العثمانية، في طريقة إدارة الصراعات المحلية والإقليمية لخدمة الهدف الإستراتيجي.

ومما سهل على الدولة استثمار انتصارها في المعركة بشكل واسع وبأكثر من مداه، النفي الاختياري لقادة الثورة والمنتفق باتجاه الأحواز، وخارج أراضي ونفوذ المنتفق، عكس ما كان يحدث في مناسبات سابقة، حينما يخسرون إحدى

المواجهات مع الدولة، فإن في أرض المنتفق سعةً لـــهم ولمقاتليـــهم ولطموحاتـــهم المستقبلية. ليس هذا فحسب، بل إن التراخي والتكاسل واللامبـــالاة التـــي كـــانت واضحة حتى في أثناء المعركة مع العديد من العشائر المنتفقية، ترافق مـــع ذلـــك إعلان الدولة، إنها بالضد من قادة الثورة تحديداً، وليس بالضد من إرادة المنتفـــق. هذه الأمور مجتمعةً ساهمت في تراخي قبضات المقاتلين على بنادقهم، وفت فـــي عضد المساهمة الجماعية بعد النتائج العسكرية التي آلت إليها المعركة، مما انعكس سلباً حتى على أية مساهمة تبغي تعديل الأوضاع وإصلاح اعوجاجها، وبالتالي فقد أصبحت ملفات إمارة المنتفق عند صنّاع القرار، عرضةً للتمزق والضيـــاع، أزاء إنطباق حالة التراخي عند القادة وعموم العشائر المكونة للاتحاد.

لقد تركت نتائج معركة -الريس- تراثاً من العوسج، الأهواء غـــير متفقـــة والفرقه تضرب في الأعماق، والتذمر ظاهرة عامة، وكل ذلك يحدث، وبـــدون رد فعل. كذلك يمكن الافتراض بأن الدمار الاقتصادي الذي أحدثته الحروب المحليـــة والإنتفاضات المتتالية ضد السلطة العثمانية، بالإضافة إلى الأزمة المتفاقمـــة فـــي موضوع الثروة الحيوانية نتيجة هذه الحروب، قد أديا إلى انتكاس اقتصادي رافقـــة ترد في كميات الإنتاج من المواد الأساسية للحيـــاة (الحنطـــة، الشـــعير، التمـــور، الذرة....... الخ) نتيجة للوضع العسكري الذي يستلزم وجود أبناء "الديرة" بشـــكل شبه دائم في ساحة الصدام، كل ذلك قد فعل فعلـــه فـــي إخمـــاد جـــذوة الحمـــاس والفروسية لدى المقاتلين المنتفقيين، مما توجه بالمباشر إلى أهم ركن في ديمومـــة الإمارة، ألا وهي الروح القتالية ومادتها المقاتلة، هذا جانب، وعلى الجانب الآخـــر، فقد سمحت الدولة وشجعت بعض أبناء المنتفق، خصوصاً أولئك الذين لووا أعناقهم لها وأشادوا بنصرها الأخير، بحق التصرف بأراضي أمرائـــهم وملاكيـــهم بـــدون علمهم أو موافقتهم تماشياً مع سياستها في شرذمة وتشطير قوة المنتفق، مما جعـــل هذا الفعل الذي ترعاه الدولة وتديمه، أحد جراح المنتفق الدائمة والموجعة.

بعد سقوط الإمارة في معركة -الريس- بدأ التكالب على المغانم حتى في خضم المعركة، حيث لم تكن الدولة الوحش الجائع الوحيد الذي يبحث عن الفريسة، إنما ركض الدب مع ابن آوى، ليس هذا فحسب، إنما لحق بأبناء "الديرة" خوفا من عدوٍ لا يمكن أن يخيف، بل أنهم نقلوا خوفهم لرعب الآخرين منه، والسبب أن مصالح الأرض والمال التي أسالها الأتراك لهم كان لها الارجحية. كان طاغوت الهيبة للدولة هو من بين كل الوحوش التي افترست همة ومعنوية أهل المنتفق، مما يشير إلى أن سقوط الإمارة كان واقعاً حتى قبل ما آلت إليه النتائج العسكرية لمعركتهم الأخيرة في آب ١٨٨١م.

بعد الانتصار الذي حققته الدولة في منازلتها الأخيرة مع المنتفق، وأزاء هروب القادة خارج حدود المنتفق، وتشرذم ولا مبالاة وشماتة بعض أهل "الديرة" بما حدث، فقد عينت الدولة -محمد باشا- متصرفاً على المنتفق ممارسةً بذلك سياسة السيطرة المركزية بشكل واضح ودقيق، خصوصاً وان تلك الممارسة رافقتها جولة لوالي العراق، شملت أولاً المنتفق، للاطلاع على أحوالها[1]. كما أن الدولة مارست استحصال الضرائب المقررة على قبائله بنفسها وبشكل قسري وشديد[2]، على صعيد آخر، فإن الدولة لم تلغ قرارها السابق والخاص بالعقوبة المقررة على قادة الثورة، رغم أن -منصور باشا- أحد أبرز قادة الثورة، قد عاد الى بغداد وقابل الوالي في أوائل عام ١٨٨٣م، بعد أن حصل لنفسه عفواً خاصاً منه[3].

كانت عموم أحوال العراق متردية، وكان الخراب كبيراً وعميقاً بسبب السياسات التي تنتهجها الدولة ورجالها. فالسكان في تناقص بسبب الأمراض المتعددة والمجاعات، والإنتاج الزراعي في تدهور، لأن أهل الأرض في نزاع

(١) عباس العزاوي – تاريخ ...... – ج٨ – ص٦٣.

(٢) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص٣٦١.

(٣) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

مستمر بين أنفسهم أو بينهم وبين السلطة المركزية، وسلطة الدولة وهيبتها لا تتعدى مراكز السلطة وحدود المدن الإدارية، والعشائر في دوامة متصلة من النزاعات وتردي الأحوال، وبنفس الوقت فإن السلطة لم تغفل أن تقسم العشيرة إلى أقسام وأقسام من أجل التشطير والتفتيت التي دأبت عليهما فيما يخص القبائل العراقية[٤]، ونتج عن ذلك حالة أقرب إلى الفوضى، نتيجةً لانفراط عقد المنتفق وتغريب قادته، مما أدى إلى عدم انتظام الحالة، لفقدان الرأس القيادي القادر على تنظيم وترتيب الأوضاع وبالشكل الذي كانت عليه قبل عام ١٨٨١م[٥].

كما كانت هبة مدحت باشا الإصلاحية ذات طبيعة مؤقتة، حيث لم يتبع ممن جاء بعده من الولاة الطريق الإصلاحي[٦]، لأن ما أدخل من البراعم الأولى للنظم الحديثة في الإدارة والنظام الاجتماعي -السياسي، وما جرت من محاولة جريئة لقلب النظام الاجتماعي وتدجين القبائل العراقية، وفي المقدمة منها المنتفق، وإدخالها ضمن المنظومة الحضارية، تمهيداً لنزع المخالب القبلية منها، وجعلها جزءاً من النظام الإداري العثماني، هذه الجهود لم تستمر، بل أهملت بعد سقوط الإمارة عسكرياً، حيث تركت الدولة جهدها في هذا الجانب بعد زوال الخطر من وجود جيش منتفقي متحد مضاد لسياساتها وإرادتها[٧].

لقد كانت إدارة المنتفق من قبل الدولة بشكل مباشر، حالة أثقلت السلطة بهم جديد، مما دفعها الى أن تفكر بشكل من أشكال المعالجة، هذا من جهة، ونظراً لجهود متوازية قام بها ناصر باشا الأشقر، عضو مجلس شورى الدولة في أستنبول

---

(٤) جاسم محمد حسن – العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ – ١٩٠٩ – جامعة بغداد – كلية الآداب (رسالة ماجستير) – ص ٩٨.

(٥) S- Glubb J. B – War in the Desert – London 1960 – P: 235.

(٦) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٨ – ص١١١.

(٧) لونكريك – أربعة...... – مصدر سابق – ص١١١.

من جهة أخرى، فقد سمحت الدولة العثمانية للمنفيين بالعودة على شكل دفعــــات[٨]، ابتدأت في أواخر عام ١٨٨٤م، وانتهت في منتصف عام ١٨٨٦م، حيث كان آخــر العائدين، فهد باشا العلي[٩]، مع اشتراط الدولة ان تكون العــــودة غــير مقرونـــة بإطلاق أيدي العائدين في أملاكهم ومزارعهم، وأن يكون سكناهم في بادية الشـامية بعيدا عن ريف ومدن المنتفق. وقد سكن العائدون في الموضع المعـــروف باســم "نبعة"[١٠]. وكانت غاية الدولة من ذلك، هي تعميق ما حدث مـــن إنشـــقاق داخــل المنتفق، ونزع صفة الرئاسة بهذه الإجراءات عن قادة المنتفق من آل السعدون.

تخللت أوضاع السكينة والهدوء التي اشترطتها الدولـــة لعــودة المنفييــن، غزوات من بعض قبائل نجد عليهم، وفقا لمعلومات خاطئة وصلت عـــن ضعفــهم وتردي أحوالهم القتالية، إلا أن واقع الحال أوضح للقبـــائل النجديـــة، خطـــأ تلــك المعلومات وعدم دقتها. كما لم تسلم عشائر المنتفق الأخرى رغم التشطير الذي نفذ عميقا فيها وفي لحمتها من غزوات الطامعين من بدو الصحراء الذين يبحثون عــن الغنائم.

لقد عادت أحوال المنتفق الى جمودها الأول، شعراء تائهون وأمجاد مندثرة وفروسية بائدة، بحيث أوشكت الأحوال أن تنتهي إلى العدم. ومن حين لآخر، كانت طلقة نار أو صرخة مكتومة أو هرولة جواد جامح، وحدها الشاهد على أن المنتفـق لم تمت. تكرار هذه الحالات والتقييد –الرسمي– على حركة ونشاط القادة السابقين، دفع عشيرتا (الضفير والبدور) إلى المبادرة لتأسيس مركز قيادي يحميهم أولا مــن الغزاة، ويعيد للمنتفق بعضا من هيبتها السابقة، ويجمع أهلها إلى القتال تحت رايته، لذلك بادروا إلى –فالح باشا الناصر– ان يتصدى للقيادة ليقودهم من جديـــد، لكــن

---

(٨) حسين خلف –مصدر سابق ج١ – ص١٤٥.

(٩) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٦٧) يوميات زفبودا.

(١٠) عبد الله الفياض – مشكلة .... مصدر سابق ص٦٥.

طبيعة الرجل وتكوينه وانصرافه إلى العبادة والصلاة، وهذا حلال وذاك حرام[١١]، دفعته إلى الإعتذار منهم عن تبوء هذه المهمة، وأحالها إلى ابن عمه "سعدون باشا المنصور" الذي كان يتولى في حينها إمامة جامع الصلاة الذي أقيم نبعه – أثناء مكوثهم فيها بعد عودتهم من الأحواز[١٢].

وكان هذا الاختيار أو التكليف أو انتزاع الفرصة أشبه بطاقة حبيسة أطلق لها العنان. ومنذ ذلك التاريخ الذي ابتدأ في الشهور الأخيرة لعام ١٨٩١م، عرفت المنتفق من جديد رايتها السابقة التي طوتها الأيام لأكثر من عقد من السنين، وتجمع المنتفقيون مجددا تحت راية "وارد"* ليبدأوا مرحلة أخرى من مراحل حياتهم الحافلة. إلا أن الملاحظ، حول هذه الهبة التي جاءت لبعث الإمارة، إنها أرادت ان تكون صاحبة الحق في كل إقليم ونفوذ المنتفق السابق، دون ملاحظة أن عقدا من السنين قد خلق آلافا من المتنافسين والطامعين.

ولذلك لم ينزع – سعدون باشا – ومقاتلوه عدة القتال عن أنفسهم، لأنهم دخلوا في العديد من المواجهات، ومع الجميع، بل وحتى مع من تقاعس عن النهوض معهم من أهل المنتفق في مهمتهم لإحياء مجد الإمارة وإعادتها لعزتها وهيبتها السابقة[١٣].

لقد اتخذ سعدون باشا منطقة (شط الكار) وهي منطقة وسطية بين الناصرية والسماوة ونهر الفرات، مكانا له، اخذ يشن منه الغارات، فارضا بها هيبته على

---

(١١) جريدة القبس الدولي العدد (١٦٧٤) في ١٩٩٠/٦/٢٣، مقال الأستاذ عبد اللطيف الشواف (الأسرة السعدونية أحد أسس النظام الزراعي القبلي وأطاره السياسي بإمارة المنتفك).

(١٢) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق"

* وارد: اسم علم أو راية المنتفق.

(١٣) حسين خلف – ج٢ – مصدر سابق – ص ٢٢٥.

جميع العشائر الممتد نشاطها من هيت إلى الكويت[١٤]. وقد عزز موقفه أن مـــالك الأرض – فالح باشا – قد أعطاه وكالة عليها. وجوده هناك أوقعه في تماسات مـــع من سبقه في استغلال الأرض – دون تفويض – لذلك فقد دخل عام ١٨٩٦م فـــي قتال مع (ياسر الياسري) بشأن التزام أعشار شط الكـــار، بخصـــوص الأراضـــي المعروفة بإسم (الليفة واللويفة) انتصر فيها[١٥]، مؤكدا فيها قوته وســـطوته التـــي أرعبت الآخرين.

جسارة سعدون باشا ومقاتليه واستماتتهم وحماسهم المتقـــد، دفعتـــهم إلـــى الاصطدام عام ١٨٩٧م مع عشائر "ال بدير" المحاددة لمناطق نفوذه في منطقة شـط الكار. ورغم شجاعة وبسالة عشائر – آل بدير – فقد خسروا المعركة مع سعدون، الذي أجلاهم عن أراضي (الخرخرة) بعد أن أقام فيها قلعة كبيرة أسكن فيها بعــض جنوده ومأموريه، وقد اشتهرت في حينها القصيدة التي قالتها إحدى بنات عشيرة – آل بدير – تخاطب فيها شيخ العشيرة.

(لا تكلكلني ونا نعسانة

إدهام للباشا يكود احصانه)[١٦].

وبعد مرور أكثر من عام على هذه الواقعة، حشد –آل بدير– معهم قـــوات الحكومة العثمانية بعد أن خدعوا سعدون باشا بالتوقيع على تعهد بمناصفة إيـــرادات الأراضي التي استولى عليها[١٧]، ولأن السلطة ترى في تنمر سعدون فـــي الباديـــة وغاراته التي لم تتوقف تقلل من هيبتها وسلطتها دون أن تستطيع أن توقفها أو تقلل

---

(١٤) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٤٣.

(١٥) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(١٦) حمود الساعدي – دراسات عن عشائر العراق – مكتبة النهضة – بغداد ١٩٧٨ – ص٣٢٥.

(١٧) تكليف رحم الصكبان – آل بدير – مطبعة بغداد – بغداد ١٩٩٠ – ص٢٤.

من حوادثها[١٨]، فقد نهضت مع –آل بدير– في هذا الجانب، وطردت أتباع وجنـود ومأموري المنتفق[١٩]، في معركة لـم يشـارك فيـها سـعدون باشـا أو جيشـه الأساسي[٢٠].

في خريف عام ١٨٩٩م، أغار سعدون بعد أن عبر وجنـوده مـن باديـة الشامية على عشائر "شمر" القاطنة في أنحاء –البغيلة–* وانتصر عليهم، مؤكدا فـي ذلك للسلطات الحكومية التي تبغضه وتبحث عنه للقضاء عليه، أهميته وقدرته على الوصول الى اي هدف، هذا الجانب مع ما ترافق معه من سطوة وهيبة عظمى بين الأعراب في بادية الشامية وشمال جزيرة العرب وعلى حدود عشائر وادي حوران، دفعت بالأمير "عبد العزيز بن متعب الرشيد" أمير حائل أن يوقف نمو هذه القـوة، لأنها مزاحمة له في بعض مناطق نفوذه[٢١]، هذا غـير أن إجـراءه لا تعارضـه سلطات استنبول التي ترى في سعدون باشا متمردا.

لذلك زحف ابن الرشيد نحو بلدة "الخميسية" وهي التي اتخذت كمقر رسـمي ومركز حربي لمشيخة المنتفق[٢٢]، فانتصر في معركة "تل اللحم" ودخل البلدة واقام فيها بضعة أيام، إلا أن المنتفق ومقدمهم سعدون، جمعوا شتات قوتهم حيث التقـى الطرفان في الموضع المسمى (تليل جبارة) في معركة استمرت ثلاثة أيام، قدم فيها الطرفان كل ما يمكنهما من بسالة وجرأة، إنتهت أخيرا لصالح المنتفق واسـترجاع الخميسية واندحار ابن الرشيد[٢٣]. هذا النصر دفع بالمنتفق أن تمنع دخول عشـائر

---

(١٨) د. علي الوردي – لمحات .... ج٣ – ص١٧٣.

(١٩) تكليف رحم – مصدر سابق – ص٢٦.

(٢٠) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

* البغيلة: وهي المدينة المعروفة حاليا بإسم "النعمانية" وهي أحد أقضية محافظة واسط.

(٢١) المصدر السابق.

(٢٢) وزارة الأعلام العراقية – لغة العرب – المجلد الأول – ص٤٣٦.

(٢٣) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٤٥.

شمر للمنطقة الممتدة من أعالي النجف إلى الكويت، حيث منعوهم من مسابلة أطراف العراق وضربهم حيثما وجدوا(٢٤).

ولأن شكل التحالفات القائمة آنذاك بين القوى المؤثرة في المنطقة، يأخذ بنظر الاعتبار حجم ونفوذ وقوة أي منهم محليا وإقليميا، فقد بدا أن أهم قوتين عسكريتين هما، المنتفق وإمارة حائل، في حين كان الشيخ (مبارك الصباح) يقف على صفيح مليء بالزئبق من خلال نقل تحالفاته بين الأضداد خلال ساعات، مشكلا منطقة عازلة، يمكن أن تؤثر في مجرى الأحداث. لذلك، ولأن إمارة حائل تبحث عن منفذ بحري لها، فقد كانت مشاكلها دائمية مع الكويت ومن يحكمها، في حين كان – مبارك الصباح – يستند إلى جدار الحماية البريطانية التي وفرتها له معاهدة الحماية التي عقدها مع بريطانيا عام ١٨٩٩م(٢٥)، بنفس الوقت الذي لم يقطع غزله مع حكومة الباب العالي بحجة التبعية لها والخضوع لأوامرها(٢٦).

هذه الأحوال دفعت مبارك الصباح لأن يخلق تحالفا منه ومن سعدون باشا وعبد الرحمن آل سعود، مضادا لإمارة حائل، كل لأسبابه. وقد أرسل الأمير –ابن الرشيد– إلى سعدون باشا، أحد أقاربه المدعو (سالم بن حمود الرشيد) يطلب منه البقاء على الحياد وعدم الانسياق للعبة التي يقودها مبارك الصباح لمصالحه، إلا أن سعدون رفض ذلك الطلب(٢٧)، لأسباب أراها تدخل في موضوع النخوة والفروسية،وليس فيها للسياسة او متطلبات الحرب، أدنى علاقة، كاشفا بذلك عن قصور في فهم لعبة السياسة في الزمان والمكان.

---

(٢٤) المصدر السابق – ص٤٤٦.
(٢٥) أحمد مصطفى أبو حاكمة – مصدر سابق – ص٣٢١.
(٢٦) حسين خلف –مصدر سابق ج٢ – ص٣٧.
(٢٧) المصدر السابق – ص٤١.

وقد حدثت الملحمة، كما يجب أن توصف في الثامن من تشرين الثاني عــام ١٩٠٠م، والمسماة بمعركة (الطرفية) في حيــن يســميها البعــض (الصريــف)، تمخضت عن هزيمة أعداء ابن الرشيد[٢٨]، بعد أن أبلى فيها الأمير –عبد العزيز بن متعب– بلاء قل أن يوصف، فجر فيه كل طاقاته وأحقاده وعتبه، على من تطــاولوا عليه، حيث غنم أسلحة الجيش الغازي ومعداته، وقتل أفراده وأرعب من نجا منــهم من سطوته وشجاعته وجبروته [٢٩]. كما أن نتائج هذه المعركة قد أنــهت وللأبــد، الطموحات الخيالية لمبارك الصباح في اسقاط إمارة حائل.

كما أوضحت نتائج المعركة، لقيادة المنتفق، مدى قوة إمارة حائل، وضعــف التكتلات المناهضة لها، لذلك سعى الطرفان إلى المهادنة بينهما وبما لا يؤثــر فــي حقائق القوة التي يمتلكها كلاهما، كل في إقليمه ومنطقة نفوذه[٣٠].

لقد كانت السياسة العثمانية تجاه عموم العشائر، تقوم على مبدأ إيجاد ونشــر الانقسامات، إذ كانت تشجع النزاعات داخل البيت الحاكم لشيخ المشايخ، وتحــرض مقدمي العشائر المكونة للاتحادات القبلية ضد رئيس الاتحاد، وواحدهم ضد الآخــر، وعشيرة ضد أخرى، مستندين في سعيهم في تنفيذ هذه السياسة إلى ســلاح الأرض. ولذلك فإن أحداث تلك السنين، جعلــت المنتفــق، تعيــش حالــة الانشــقاق بيــن تيارين،أحدهما "متعثمن" يقوده (فالح بن ناصر الأشقر) والآخر، يتمســك بالمبــادئ العشائرية القديمة ويدافع عنها، ويقوده (سعدون بن منصور). وكانت النتيجة التــي أدى إليها فعل هذه السياسة وما رافقها، أن تفتتت بقايا حلف المنتفــق إلــى أقســام، بعضها رفع السلاح بوجه أبناء هذا الحلف وبشكل لا يرحم[٣١].

---

(٢٨) لوريمر – مصدر سابق – ص٢٢٢١.

(٢٩) علي الشرقي – العرب ...... مصدر سابق – ص٢٨.

(٣٠) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٤٦.

(٣١) حنا بطاطو – مصدر سابق – ص١٠١.

في خضم ذلك الانقسام، استمر سعدون في مصادماته مع من يقف بوجهه، وقاد أعمال الغزو ضد العشائر الموالية للشيخ فالح. لذلك ما أن حل خريف عام ١٩٠٣م، حتى عبر من بادية الشامية، باتجاه منطقة الغراف، للإشراف على بعض أملاكه، إلا أن عشائر –عبودة– وبالذات –السناجر–* التي يقودها (خيون العبيد) قد عارضته واعتدت على بعض أتباعه، مدفوعة بذلك من – عبد الله الفالح – وبغير رغبة والده – فالح باشا–، في حين كانا – البوشمخي والجاسم– * من عشائر عبودة موالية لسعدون(٣٢).

تأزم الوضع وتدخل الوسطاء من وجوه الشطرة لترضية سعدون، فاستجاب لهم، لغرض تطمين الناس، وهم بالعودة إلى مقره في بداية الشامية، دون الاستمرار في وجهته السابقة، إلا أن –السناجر وخيون العبيد– أفهمت (القول أغاسي: محمد لزام أفندي) الذي كان يشغل وكيل الطابور العسكري في الشطرة، بإمكانية القضاء على سعدون، فساروا معا باتجاهه، وهو مخيم في مكان يقال له (غسال)** وأرادوا مفاجأته، إلا أنه سحق هذه القوة وأبادها، بحيث لم ينج منها سوى خمسة أشخاص فقط(٣٣)، وقد أرسلت الدولة الفريق (محمد فاضل باشا الداغستاني) لتعقبه، إلا أنه وجده قد عبر إلى بر الشامية، فلم يتعقبه وعاد بجنوده إلى الشطرة(٣٤). واعتبر البعض نتائج هذه المعركة، بداية المصائب التي أدت إلى إذلال العثمانيين وتقلص نفوذهم في منطقة المنتفق(٣٥).

---

* السناجر: أحد الأفخاذ المكونة لعشيرة عبودة والقاطنة في الشطرة.

* البوشمخي والجاسم: فخدان من عشيرة عبودة القاطنة في الشطرة.

(٣٢) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) اوراق يعقوب سركيس.

** غسال: موضع يبعد عن غرب الشطرة بحوالي (١٠)كم.

(٣٣) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٤٨.

(٣٤) لوريمر – مصدر سابق – ص٢٢٢١.

(٣٥) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص٣٦٤.

هذه الأحداث اعتبرتها الدولة، تحدياً لها، وانتقاصاً من هيبتها، لذلك فقد كان راس سعدون باشا، مطلوباً لها باعتباره خارجاً على القانون[٣٦]، الأمر الذي دفعه أن يبحث عن قاعدة آمنة له ولأسرته وأعوانه، فوجدها بالمحل المسمى "إفنيطيس" جنوب بلدة الكويت، من خلال التنسيق مع الشيخ مبارك الصباح[٣٧].

هذا الأمر فرّغه لشن الغارات على عموم ولاية البصرة، ممرغاً في الوحل سمعة الدولة وهيبتها، بعد أن عجزت عن إيقاف غاراته[٣٨]، رغم أنها أرسلت للمرة الثانية قوة عسكرية بقيادة الفريق الداغستاني لتعقبه، وأردفتها بقوات من أبناء المنتفق المؤيدين للشيخين فالح باشا ومزعل باشا، إلا أن تلك الجهود فشلت بعد أن اتضح لديهم سمة الحركة المستمرة لقوات سعدون باشا في البراري اللامحدودة[٣٩].

ظل سعدون ثائراً ومجاهداً دائمياً، مستقطباً الأضواء والإعجاب به، حتى من قبل خصومه، أزاء سطوته وهيبته التي أخافت الجميع، وجبروته وشجاعته اللتان بقيتا يضرب بهما المثل[٤٠]. هذه الأحوال دفعته في عام ١٩٠٤م، أن يضغط على الأمير (عبد العزيز المتعب) أمير حائل، لغرض إتمام الصلح بينه وبين الدولة العثمانية[٤١]. وقد سعى ابن الرشيد في استحصال العفو له ولأعوانه من سلطات أستنبول، تقديراً منه لشجاعته وجرأة سعدون، ومن أجل استقطابه في صفه، أزاء العداء المستحكم بينه وبين الأمير "عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود" أمير

---

(٣٦) لوريمر – مصدر سابق – ص٢٢٢٢.

(٣٧) حسن خلف – ج٢ – مصدر سابق – ص٢٢٥.

(٣٨) المصدر أعلاه – ص٢٢٦.

(٣٩) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٤٩.

(٤٠) لوريمر – مصدر سابق – ص٢٢٢٢.

(٤١) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٥٠.

الرياض. وقد أجرت الدولة لسعدون راتباً شهرياً[٤٢]، منهيةً بذلك تمرداً عجزت عن إيقافه أو الحد منه، وضامنةً إلى حد ما، نوعاً من الهدوء في منطقة المنتفق.

وابتداءً من ذلك التاريخ، فقد شكل سعدون باشا وعبد العزيز المتعب، تحالفاً، كان اشد المتضررين منه شيخ الكويت، الذي برع في اللعب عليهما من خلال تأجيج أشكال الخلاف بينهم، أو بينهم وبين الأمير عبد العزيز آل سعود، وكانت ضغوط هذا التحالف، والتي وظفتها الدولة العثمانية لصالحها، هي التي أجبرت – مبارك الصباح –، أن يعلن عن وجود معاهدة تحالف تربطه مع الإنجليز[٤٣]. مضافاً لذلك، أن شيخ الكويت، قد راقب بذعر وحذر انفتاح طرق العراق بوجه الشمريين، مما أغاظه وأخافه، في تحول هذا التحالف إلى اداة ضغط قد تجهز عليه بعد اغتيال أخويه عام ١٨٩٦م.

هذه الضغوط دفعت –مبارك الصباح– إلى تحريك أحد أجنحة عشيرة (الضفير) التي يقودها (ابن صويحي) والمتحالفة معه إلى الإعتداء على إحدى قوافل شمر، التي تمتار من الخميسية، والتي دخلت المنطقة بعلم وبموافقة سعدون باشا وبحمايته[٤٤]، القوة التي جهزها –ابن ضويحي– سلبت القافلة موجوداتها، وقد أخبره من صحب القافلة من أبناء المنتفق أنها تحت حماية سعدون، إلا أنه تجاهل هذا الأمر، إعتماداً على حليفه مبارك[٤٥]. بعد أن علم سعدون باشا بالأمر، جهز قوة قادها بنفسه، وأدرك قوة –ابن ضويحي– في منطقة (الركي والردايف)* فبدد شملهم وأسر قائدهم، وغنم ما يملكوه، وأعاد للشمريين ما سلب منهم، وأمر ولده –

---

(٤٢) لوريمر – مصدر سابق – ص٢٢٢٢.

(٤٣) مصطفى أحمد أبو حاكمة – مصدر سابق – ص٣٢١.

(٤٤) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٥١.

(٤٥) المصدر السابق – ص٤٥٢.

* الركي والردايف: مكان يقع إلى الجنوب من مدينة سفوان بحدود (٢٠)كم.

حمد- مع قوة منه لمرافقة القافلة الشمرية وإيصالها إلى ديارهـــا[٤٦]. ومنـــذ تلـــك الحادثة وما سبقها من إزالة سوء الفهم بين حائل والمنتفـــق، وعلاقـــات -مبـــارك الصباح- مع المنتفق تسير نحو الانحدار والتأزم والقطيعة.

وفي السنوات الواقعة بين ١٩٠٥ - ١٩١٠م، ظلت النزاعات الداخلية بيـــن أبناء المنتفق مستعرة، تديم زخمها الحكومة العثمانية من جهة، والعشائر المتنفذة فـــي أراضي آل السعدون من جهة أخرى. ففي عام ١٩٠٧م، عينت الحكومـــة لضعفـــها وانحلال أمرها سعدون باشا "مأمور تحصيلات" واطلقـــت عليـــه لقـــب (مصلـــح الغراف) وأعانته بقوة عسكرية من طابورين بقيادة مظهر باشا الجركسي[٤٧]، فدخـــل مع العشائر الموالية لفالح باشا، في معركة، انتصر فيها ودخل مدينة الشطرة، بعـــد فرار خصومه، وقد استقبله الأهالي من (البوشمخي والجاسم) بالترحـــاب، وأطلقـــوا الهوسة، التي اشتهرت فيما بعد (ياسهيل الدنيا شـــهل الغيبـــة)*. وقـــد اســـتحصل الضرائب المقررة على العشائر بالقوة، فارضا بذلك سطوته وهيبته علـــى عشـــائر الشطرة التي هي في خلاف دائم معه[٤٨].

وفي تلك الفترة توفى - فالح باشا - عام ١٩٠٨م، وهو رجل تقـــي، ورع، لا يحب العنف، وكثيراً ما تطلع إلى التسويات في حلوله ومواقفـــه مـــن النزاعـــات العشائرية، هذا غير أنه لم يكن يحب أن يحرق كل جســـوره مـــع ســـعدون باشـــا، ولا يرغب في تصعيد الموقف معه إلـــى القطيعـــة[٤٩]، بحيـــث كـــانت لمعاويـــة

---

(٤٦) حسين خلف - ج٢ - مصدر سابق - ص٢٢٧.

(٤٧) م. ص. مخ - رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

* سُهَيْل: اسم شعبي لنجم يظهر فجراً في كبد السماء، وظهوره إعلان يوم جديد، ومعناها لماذا تأخر مجيئك إلينا حتى هذا الوقت.

(٤٨) عبد الجليل الطاهر - مصدر سابق - ص٧٨.

(٤٩) مقال الإستاذ الشواف في القبس الدولي - مصدر سابق.

شعرة، رغم أن الضغط عليها كان ثقيلاً. وقد تولى من بعده ابنه -عبد الله- زمـــام الأمور، والذي كان نقيض والده، فدخل الصراع بين الاثنين مرحلةً أشد بدفعٍ مـن - خيون العبيد- رئيس عشيرة عبودة.

وقد جرت عملية استقطاب لعشائر المنتفق بين الخصمين، تمهيداً للمنازلـــة التي جرت في تموز عام ١٩٠٨م في مدينة الشطرة[٥٠]، والتي شـــهدت طرقاتـــها وأزقتها معارك لمدة ثمانية أيام، انتهت بإخراج سعدون مـن المدينـة نحـو قلعـة شامان[٥١]، بعد أن تخلت عنه القوات العثمانية المساندة لـــه والتـي كـان يقودهـا متصرف المنتفق، مظهر باشا، بعد أن احتمت داخل الثكنة العسكرية -القشـلة-[٥٢]. ثم جرت معركة أخرى متممة بين الطرفين، إنتهت بأرجحية لصالح معسكر عبد الله الفالح[٥٣]، بعدها رحل سعدون من موقعه فـي -الجريعـة- متجـهاً نحـو باديـة الشامية[٥٤].

وقد أرسلت الدولة عام ١٩٠٩م جيشاً تحت قيادة أمير اللـــواء -مصطفـى باشا- غايته استئصال الفتن في منطقة المنتفق وإصلاح أحوالها، وقد دخلـت هـذه القوة في اختبار قوة مع عشائر (الأزيرج) الموالية لسعدون باشا، انتـهى بهزيمـة الجيش وعودته إلى ثكناته العسكرية في داخل مدينة الناصرية[٥٥]. ثم أرسلت الدولـة تعزيزات عسكرية أخرى بقيادة الفريق - يوسف باشا الشركسي- الذي كان يميـل إلى المهادنة والإقناع، ولا يود استعمال القوة ضد العشائر[٥٦]، لكنه مع ذلك دخـل

---

(٥٠) م. ص. مخ - رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.
(٥١) عبد الجليل الطاهر - مصدر سابق - ص٣٦٦.
(٥٢) د. خالد السعدون - مصدر سابق - ص١٦٩.
(٥٣) عبد الجليل الطاهر - مصدر سابق - ص٣٦٦.
(٥٤) م. ص. مخ - رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.
(٥٥) عبد الجليل الطاهر - مصدر سابق - ص٣٦٧.
(٥٦) د. خالد السعدون - مصدر سابق - ص١٧٦.

في معركة ضد معسكر العشائر الذي يقوده – عبد الله الفالح –(٥٧) انتهى بهزيمة الجيش، ودخوله مدينة الشطرة، التي تعرضت للسلب والنهب من قبل الجميع(٥٨).

على الجانب الآخر من قوى المنتفق، فقد كان سعدون باشا، قد جهز ابنه – ثامر – بجيش لغزو قبائل (الرّولة) في الشام عام ١٩٠٨م، لكي يحمي أعالي الفرات من غزواتهم، لكن تلك الغزوة كانت فاشلة، بعد أن هزم أمام أعراب الشام، لذلك جمع سعدون الجموع وسار يقودها بنفسه عام ١٩٠٩م، لكي يحقق ما عجز عنه ابنه العام الماضي، فمر في طريقه بعشائر عنزة، التي يقودها الشيخ (فهد الهذال) الذي رحب به وطمأنه على خط سيره في غزوته تلك(٥٩)، لكن حينما بارحه سعدون، تغير موقفه وموقف عشائره، لأنهم وجدوا أن تغاضيهم وسكوتهم عن مروره لحرب الرولة، يحط من قدرهم بين القبائل، ويعد مساعدة له على أبناء عمومتهم، لذا قرروا مهاجمته من الخلف(٦٠).

أما سعدون باشا ومقاتلوه فقد احتلوا مضارب الرولة، وهزموا من تصادم معهم، بحيث ظلت مساكن (آل شعلان) تحت رحمته، لكنه تصرف معهم بطريقة الفرسان(٦١). وقد أشار عليه قادة جيشه بضرورة العودة والاكتفاء بهذا النصر، إلا أنه أصر على البقاء لمدة ثلاثة ايام في مضاربهم، لكي تعلم بذلك جميع القبائل(٦٢). في هذه الفترة القصيرة إستطاع (نوري آل شعلان) تجميع أغلب عشائره، وسار بهم نحو سعدون المقيم في مضاربهم، وصادف في حمى القتال الدائر، أن تصل

---

(٥٧) م . ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(٥٨) المصدر السابق.

(٥٩) النبهاتي – مصدر سابق – ص٤٥٣.

(٦٠) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

(٦١) علي الشرقي – الالواح ...... مصدر سابق – ص٨٧ – ٨٨.

(٦٢) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠) أوراق يعقوب سركيس.

عشائر عنزة بقيادة (ابن هذال) لتشارك في قتال المنتفق[٦٣]، فدارت الدائـــرة علـــى سعدون ومقاتليه، وعكفوا بقوة وباس ويأسٍ أن يخلصوا أنفسهم من هـــذه الموقعـــة، واستطاعوا ذلك بعد أن خسروا الكثير من الرجال الشجعان، وجميع مـــا يملكونـــه، وما غنموه سابقاً[٦٤] عاد سعدون باشا، منهزماً ومكسوراً إلى دياره، ليجد موفد شـيخ الكويت (مطلق أبو حديدة) منذراً ومهدداً له، بأن -مبارك الصباح- سـيطىء أرض المنتفق بجيش كبير[٦٥]، لمن بلغه من هزيمته أمام عشـــائر الرولـــة. ولأن -ابـــن الصباح- وجد ان الفرصة مواتية لهزيمة المنتفق فـــي هـــذا الوقـــت، وفـــي ظـــل أوضاعها السيئة، فقد حشد جيشاً بلغ تعداده (٨,٠٠٠) آلاف مقاتل، أسند قيادته لابنه -جابر- كما شارك الأمير - عبد العزيز بن عبد الرحمن آل ســـعود - فـــي هـــذه الحملة، بقواته النجدية، مناصراً لابن الصباح على قتال المنتفق[٦٦].

ولأن سعدون باشا، يتصف برباطة الجأش وقوة العزيمة عند الشدائد، وهمـــا من الصفات الإيجابية التي تحسب له، فقد لملم بقايا جيشـــه العـــائد مـــن هزيمتـــه الأخيرة، وبادر في الحال بالمسير لملاقاة الكويتيين ومن معهم، قبل أن يطئوا دياره، ناقلاً المعركة القادمة إلى ساحة خصمه، وهي معالجة عسكرية سليمة، أزاء تنـــاظر القوى للطرفين، علماً أنه توجه للمعركة التي جرت في منطقة يقال لها (جريبيعـــات الطوال) في العاشر من حزيران عام ١٩١٠م، بجيـــشٍ مجموعـــة (٥٠٢) مقـــاتل فقط[٦٧]!!!

---

(٦٣) Glubb – op. Cit – p: 115.

(٦٤) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٥٤.

(٦٥) حسين خلف – ج ٢ – مصدر سابق – ص ٢٢٩.

(٦٦) المصدر أعلاه – ص٢٣٠.

(٦٧) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٥٧.

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة

يرى غمرات الموت ثم يزورها

وانتهت المعركة التي سميّت (هدية) بانتصار كبير ومدو للمنتفق، وغنائم لا تحصى من جيشٍ أرعبته فروسية وشجاعة المنتفقيين[٦٨]، بحيث تفاخر مهوالهم بحجم الانتصار ومداه، إذ قال: [لملمها وأهداها مبارك]*.

ويصف الضابط البريطاني (لجمن)** المعركة. بعد أن شاهد نتائجها النهائية (لقد كانت أرض المعركة مفروشة بجثث القتلى التي أتت الذئاب والعقبان على الكثير منها، في حين كان المنتفقيون وزعيمهم العظيم، يتحدثون ببساطة وبدون بهرجة وتصنع عن انتصارهم الأخير)[٦٩]، خصوصاً أن سعدون باشا، قد قام بعد انتهاء المعركة بجمع الأسرى والجرحى الكويتيين، وأرسلهم إلى الكويت بعد أن أكرمهم وأعاد إليهم أموالهم ماعدا الأسلحة[٧٠].

وقد كان هذا الإنتصار الذي تحقق في معركة (هدية) كبيراً ومدوياً، بحيث أجبر – مبارك الصباح– على الإنكفاء بشكل نهائي عن مسرح الأحداث وتوجيهها عسكرياً. وهكذا هي المنتفق، حتى في أحلك أيامها، فإن فعلها حاسمٌ في مجرى الأحداث.

---

(٦٨) فاسيلييف مصدر سابق – ص٢٦٦.

* من كثرة ما حصل عليه المنتفقيون من غنائم، فقد وصفوا ما حدث، بأنه اشبه بالهدية من خصمهم مبارك الصباح.

** لجمن: كولونيل في الجيش البريطاني، من أشهر رجال الاستخبارات البريطانية في العراق والجزيرة العربية، قتله الشيخ – ضاري الحمود – في خان ابي منيصير عام ١٩٢٠.

(٦٩) الرائد ن – براي – مغامرات لجمن في العراق والجزيرة العربية – ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي – دار واسط للدراسات – بغداد ١٩٩٠ – ص٦٧.

(٧٠) حسين خلف – ج٢ – مصدر سابق – ص٢٣٢.

هذا الإنتصار الذي تحقق في (هدية) جرى تطويقه بشكل غير مباشر من قبل مبارك الصباح، حيث استطاع أن يشق عشيرة – الضفير – والموالية لسعدون، إلى قسمين، مال أحدهما له [٧١]، رغم أن الدولة العثمانية وأهل الخير، قد استطاعوا إتمام الصلح بين مبارك وسعدون في كانون الثاني ١٩١١م[٧٢]، إلا أن الأحقاد كانت كامنة كالجمر الذي تغطيه طبقة من الرماد، تنتظر الوقود لتشكل لهيبا ونارا محرقة.

إنشقاق الضفير، كان المستفيد منه شيخ الكويت الذي آوى الجناح المنشق وامده بأسباب القوة[٧٣]، لكن حين أحس (ابن سويط) شيخ الضفير أن ما حدث سيشكل أكبر الأخطار عليه، وبدون فائدة، طلب توسط الأمير –سعود بن عبد العزيز المتعب – أمير حائل بإتمام الصلح مع سعدون باشا، الذي وافق على ذلك إكراما لوساطة ابن الرشيد، إلا ان تلك المودة والمحبة التي أرساها الصلح، انقلبت عداء وقتالا بين سعدون والضفير بعد أيام قليلة، وبالتحديد في ٢٤ آذار ١٩١١م في المنطقة المسماة "الحسينية" بالقرب من شقراء[٧٤]، وسميت هذه المعركة عند المنتفقيين بـ (غدر الضفير).

ترافق مع هذه الأحداث أن عشيرة (البدور) المنتفقية، قد اختلفت مع سعدون بخصوص قلعة (المايعة) والأراضي المحيطة بها، وهي ديرة البدور الواقعة على نهر الفرات شمال مدينة الناصرية[٧٥]، وقد حاصروها وطلبوا مغادرة من بها، إلا أن الحصار الذي ضربوه على القلعة، رفع بعد معركة قادها – عجمي بن سعدون–

---

(٧١) Glubb – op. Cit – P: 72.

(٧٢) عبد العزيز الرشيد – تاريخ الكويت – بيروت – ١٩٧١ – ص١٨٦ – ١٨٨.

(٧٣) المصدر السابق – ص١٨٩.

(٧٤) حسين خلف –ج٢ – مصدر سابق – ص٢٤١.

(٧٥) عبد الله الغياض – مشكلة ...... مصدر سابق – ص٥١.

هذه المحاولة ولدت جرحا آخر في جسم المنتفق، ودفعت عشيرة –البدور– إلى التفكير بالتخلص من –عجمي– على طريقة الاغتيال، إلا أنه عرف بالمحاولة قبل تنفيذها، من خلال عيونه، لذلك فقد كان متحسبا حينما زاره شيوخ البدور وهم على نية التنفيذ، فاعتقلهم، وكان من رأيه أن يسجنوا، إلا أن والده سعدون باشا، هدده وشتمه في رسائله المرسلة إليه، طالبا منه قتلهم صبرا!!! وهكذا فعل عجمي ما كان يراه آخر الأمور التي يفعلها خشية وخوفا من والده[٧٦].

وبلا شك أن ما حدث يشكل سقطه من أسوء السقطات وأبشعها في تاريخ قيادة المنتفق[٧٧]، لأن ممارسة العنف والقسوة مع الأعداء أمر مشروع، أما انتقاله لأهل البيت الواحد، فهو بلا شك كارثة ومصيبة لا تقف نتائجها عند لحظتها، وهذا ما حدث، حينما تسامعت عشائر المنتفق بجريمة الإعدام، دون أن تعرف أسبابها، فخلعت يد الطاعة والولاء لسعدون، وحاصرته في مدينة الناصرية لمدة ثلاثة أيام، جرى فيها قتال شديد ذهب ضحيته الكثيرون، وبعد جهد وتوسط، وافق سعدون على مغادرة الناصرية في نهاية حزيران ١٩١١م[٧٨]، بعد أن اتضح لديه مدى النفور الذي يلاقيه من قبل أغلب عشائره، والذي كان يعتقد أن سببه الاساسي هو عشيرة الضفير.

وقد أرسلت الدولة، ما سمي بـ (الهيئة التحقيقية والإجرائية) لإصلاح الأحوال في متصرفية المنتفق[٧٩]، إلا أن اقتراحاتها التي رفعتها للجهات العليا والخاصة بأوضاع الأرض، لم يؤخذ بها، ولم يحل هذا الإشكال الخاص بالأرض، إلا قانون الإصلاح الزراعي بعد ثورة تموز ١٩٥٨.

---

(٧٦) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٦٤.

(٧٧) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(٧٨) وزارة الإعلام – المجلد الأول ...... مصدر سابق– ص٧٩.

(٧٩) المصدر أعلاه – ص٨٠.

بعد خروج سعدون باشا، من الناصرية، بالطريقة التي تمت، فقد آل على نفسه، أن ينزل بالضفير أشد العقاب حتى ولو بذل فيها دمه، لأنها -بتقديره- سبب كل هذه الأحداث. فأتى مدينة الزبير مراقبا وراصدا للأحداث، فسمع هناك بعودة صديقه – طالب النقيب – نائب البصرة في مجلس المبعوثان من استنبول، فأحب مواجهته، ليتعرف منه على آخر أخبار العاصمة وتقديراتها السياسية، فكتب له رسالة بهذا المعنى، فرحب به وأعلمه أن لا مانع من دخوله البصرة(٨٠).

إلا أن طالب النقيب، رغم كل ألقابه ومناصبه عاد للعب دوره الأول – قاطع طريق– وهو الدور الذي دفعه قدما في سلم الثروة والسلطة والجاه. لذلك فقد تأمر مع والي البصرة لإلقاء القبض على سعدون باشا، وهو في ضيافته(٨١)، معبرا في ذلك عن قرصنة واضحة(٨٢)، وكان تصرفه وتواطئه الواضح في العملية، قد بان جليا للجميع(٨٣)، من أجل خدمة مصالحه ومصالح مبارك الصباح(٨٤)، وليجعل من ذاته، البديل المعادل لسعدون والمنتفق في المنطقة. ويشير تقرير القنصل الأمريكي في بغداد إلى مسؤولية النقيب في القبض على سعدون، فهو قد خدعه وجعله يأتي إلى البصرة مطمئنا، ليقع في الكمين المعد له(٨٥).

---

(٨٠) المصدر السابق – ص١١٩.

(٨١) سليمان فيضي – في غمرة النضال – بغداد ١٩٥٢ – ص١٠٥.

(٨٢) حنا بطاطو – مصدر سابق ص١٠٩.

(٨٣) أرنلدتي ويلسون – بلاد ما بين النهرين بين ولائين – ج١ – ترجمة وتعليق فؤاد جميل – دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٩٢ – ص٦٠.

(٨٤) ستيفن همسلي لونكريك – العراق الحديث ١٩٠٠ – ١٩٥٠ – ج١ – ترجمة سليم طه التكريتي – الفجر للنشر والتوزيع – بغداد ١٩٨٨ – ص٢٢١.

(٨٥) N. A. R. S, R G 84, No M – 467 Am Cons at Bag to Am. Amb at const, Dec 7 1912.

بعد دخوله البصرة، فقد خدع سعدون باشا من خلال طالب النقيب، بضرورة مقابلة الوالي الذي كان ينتظره على المركب (مسعودي)(٨٦). وما كادت أقدام سعدون تلج المركب، حتى طوق وأشعر أنه معتقل، وجرى تسفيره في نفس اليوم إلى بغداد، خوفا من شعور المنتفق بالأحداث. فوصلها في ٢٧ تموز ١٩١١م، وأنزل في قلعة المدفعية، ثم جرى في ٢٠ آب تسفيره إلى حلب لغرض محاكمته(٨٧)، إلا أنه لم يحاكم حتى وفاته في أوائل كانون الأول ١٩١١م(٨٨)، وتشير كل الدلائل إلى أنه مات مسموما من قبل الأتراك(٨٩)، وقد دفن في حلب، ويعرف قبره بقبر الباشا البغدادي.

بموت سعدون باشا بطريقة الغدر التي تمت، فقدت المنتفق علما عاليا من أعلامها وسارية لم تنتكس رغم كل الظروف السيئة المحيطة بها، وخلت الساحة بموته من رجل أعطى للشجاعة قيمة ومعنى(٩٠)، بل أنه في نظر الأستاذ علي الشرقي "أبو الوقائع العراقية". وإذا كانت من كلمة تقال عن الرجل، فهو منذ تصدره لقيادة المنتفق وجد نفسه في مشكلة، لم يستطع أن يجد لها حلا حتى نهايته، هذه المشكلة تتمثل في عزوف عشائر المنتفق "الزراعية" من الإلتحاق به، أو المساهمة في إنجاح جهده، وخصوصا عشائر ثلث -الأجود- المتوطنة في أكثر الأراضي الزراعية خصوبة على نهر الغراف والمناطق المحيطة بمدينة الناصرية، واقتصار ذلك الجهد على عشائر المنتفق "البدوية" وتخصيصا على عشائر الضفير والبدور، ذراعاه الضاربتان وأكثر الناس محبة وولاء له، واتحاد عشائر المجرة، هذا الإحباط أو التقاعس ساهم في إعلاء جدار من الكراهية والحقد بين ابناء

---

(٨٦) Dickson – The Arab of the Desert – London 1959 – P: 557.

(٨٧) وزارة الأعلام – المجلد الأول – مصدر سابق – ص١٢٠.

(٨٨) المصدر السابق – ص٢٧٦.

(٨٩) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص٨٠.

(٩٠) Glubb – op. Cit – P: 72.

"الديرة" وهو ما كان يبحث عنه العثمانيون، وقد حدثني أكثر من واحد، ممن عاصروا سعدون باشا وأحداثه، أن الرجل لم يكن يبحث عن أملاك أو مال أو عقار، بل كان كل همه منصب على إعادة مجد المنتفق وإحياء إمارتها. بحيث لم يضع لحالة الملكية الزراعية أو المالية، أهمية في سلم أولوياته، لكنه بعد أن وجد الصدود والنفور اللذين مارستهما عشائر المنتفق الزراعية ضده، وضد مشروعه، لم يتردد في ضربها وهزيمتها لأكثر من مرة، لكنه في كل انتصاراته عليها، لم يتكئ على لافتة (الطابو) بل أهملها وترك مستغلي الأرض من المنتفقيين، يمارسون نشاطهم الزراعي بحمايته وبتشجيع منه، وكان أبرز تلك الحالات في منطقة الشطرة وضواحي الناصرية. ويروى عنه في هذا الصدد، أنه دخل في معركة ضد – الأجود– وكان من ضمن جيشه، بعض الأعراب من خارج عشائر المنتفق، لكنه في حمى المعركة، كان يحث منافسيه من الأجود بنخوة "منشه"* للإجهاز على جنوده!!!!

فالرجل في مشروعه لإعادة نهوض الإمارة، كان بحاجة للموارد والرجال، ففيما يخص الموارد، فقد أهمل سعدون باشا، كل متعلقات الطابو والملكية، لإدراكه بأنها المسبب الرئيسي لسقوط الإمارة، ودبر موارده من غزواته وإشرافه على أكبر مساحة من البادية وأطراف الأنهار. وكان الرجال مشكلته، خاصةً مع ثلث الأجود، لأنها رفعت السلاح بوجهه واعتبرت مشروعه لإحياء مجد الإمارة، يتقاطع ومصالحها، لأنها استغلت والتزمت أغلب أراضي آل السعدون، دون علمهم أو موافقتهم، بعد أن انتصرت عليهم الدولة في معركة –الريس– عام ١٨٨١م، كما أنها استقوت بوقوف أبناء – فالح باشا – بوجه سعدون، ومعاداته، فساهمت هذه العشائر – بقصد أو بدونه – بتفويت فرصة على المنتفق، في تشكيلات مرحلة ما بعد الرجل المريض.

---

* منشه: النخوة التي ينتخي بها أبناء المنتفق جميعاً.

لذلك كانت ممارسات سعدون، اتجاههم تحت حكم المضطر، بعد أن خبر كسلهم وفتورهم ونقدهم لمشروعه، بحيث كانت بعض ممارساته، تحمل الشيء الكثير من قلة الصبر. لقد أراد الرجل بمحاولته بعث الإمارة، إكساء العظام لحما طريا، وسدى ذلك حماسه المتدفق، ولحمته شجاعته الكبيرة، فقد كان رجلا لا ترهبه الشدائد او تنقصه القدرة على الكفاح. لذلك، فإني أرى ظاهرة سعدون باشا، غريبة، وسط زوبعة الأحداث، ولم يكن أن تلحظ بتفكير واسع من أبناء "ديرة" المنتفق – كانت هذه الظاهرة تتعايش مع جزر تاريخي لأبناء المنطقة، لذلك فهي ومضة سرعان ما انطفت.

إن غياب سعدون باشا عن الأحداث، بالطريقة التي تمت، وطريقة موته في حلب، أثارت مشاعر جميع أبناء المنتفق، حتى أولئك الذين إختلفوا مع سعدون(٩١)، إلا أن -عجمي بن سعدون- الذي تصدى لملء مكان أبيه، والذي استطاع التسلل من طوق الحصار الحكومي الذي فرضته الدولة على قلعة "المايعة"(٩٢)، بعد اعتقال والده وتغير موقف الدولة منه ومن دعاويه، حيث اعتبرته خارجا على القانون(٩٣)، لم يستثمر هذا التيار لوحدة المنتفق، وفتح صفحة جديدة مع الجميع، بما يتوافق وتاريخ المنتفق في المنطقة، إنما ظل أسير المشهد الأخير من حياة والده.

بعد تسلل -عجمي- من طوق الحصار، ذهب باتجاه حائل في بداية عام ١٩١٢م، طالبا العون والمساعدة. ورغم إكرامه من أميرها ورجالها بالهدايا والتحف، ومن سلاح وخيل، إلا أنه أبى أن يأخذ شيئا، واختصر طلباته بالقول (أنه يريد منهم طراد يوم، بل طراد ساعة واحدة)(٩٤)، أي أنه يريد معونتهم عسكريا

---

(٩١) لونكريك – العراق .... – مصدر سابق – ج١ – ص٥٦.

(٩٢) د. خالد السعدون – مصدر سابق – ص٢١٩.

(٩٣) Dickjson – op. Cit – P: 557.

(٩٤) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٦٥.

وليس مادياً. وهذا التصرف أكبره في أعين الجميع. لذلك بادر الأمير – سعود بن عبد العزيز – إلى حشد الجنود لمساعدة عجمي، وخرجا من حائل كل يقود قسماً من الجموع، غايتهم عشائر –الضفير– فجرت موقعة بين الطرفين في نيسان ١٩١٢م، وانتهت هذه المعركة العنيفة بهزيمة الضفير ومن والاهم(٩٥)، وهي بلا شك هزيمة للمنتفق وإن انتصر فيها مقدمهم.

وظل –عجمي بك– والمنتفقيون الموالين له طيلة أعوام ١٩١٢ – ١٩١٤م، في خضم صراعات محلية متعددة، بحيث أشغلتهم هذه الصراعات عن ما مطلوب منهم أن يقوموا به لوحدة المنتفق وإعلاء شأنها. وقد توسط الأمير ابن الرشيد في بداية عام ١٩١٢م عند سلطات أستنبول، التي أصدرت عفواً حكومياً عن عجمي(٩٦).

وقد سيطرت على مشاعر عجمي بك، وجميع المنتفقيين، موضوعة الثأر لسعدون باشا، من طالب النقيب تحديداً، لدوره الاساسي في الموضوع. لذلك بادر عجمي، ومعه رجاله إلى السير نحو البصرة، حيث توجه نحوها لمرتين، الأولى، في تشرين الثاني ١٩١٢م، الأمر الذي دفع طالب النقيب إلى الاستعانة بفلاحي أبي الخصيب للدفاع عنه، بحيث كان هناك حارسٌ على كل نافذة وممر في بيته(٩٧). وقد أعيد المنتفقيون إلى مواقعهم بعد تدخل السلطات العثمانية، حينما كثفت الرسل باتجاه، عجمي، والالتماس منه العودة، خوفاً من إستغلال الأحداث من قبل

---

(٩٥) وزارة الإعلام – المجلد الأول – مصدر سابق – ص٤٩٣.

(٩٦) وزارة الإعلام – لغة العرب – المجلد الثاني – ص٧٤.

(٩٧) N. A R. S, RG 84, No. 47L28 Am Cons Agent at Basra to Am cons at Bag Dec 9 1912.

الإنكليز[98]. والمرة الثانية كانت في مارس ١٩١٣م، حيث خيم عجمي في الشعيبة. ومن جديد احتمى النقيب، بوالي البصرة وفلاحي ابي الخصيب[99].

وقد استعمل والي بغداد، أساليب ودية في تهدئة عجمي والمنتفقيين، ونزع فتيل الإنفجار، نظرا لضعف إمكاناته العسكرية، وعدم قدرته على مجابهة المقابل[100]، ولم تستطع او ترغب الدولة في أن تجمع الخصمين، وتنهي المشكلة، نظرا لاستفادتها مما يحدث، إلا أن عجمي وطالبا، استجابا لمسعى الوساطة الذي قام به – عبد الكريم الفهد السعدون- ذلك المسعى الذي تمخض عنه اتفاق الخصمين على إنهاء خلافاتهما في تموز ١٩١٣م، ترافق معها، إرسال عجمي، برقية إلى الصدارة العظمى، يوضح فيها موقفه وحركاته، ويبريء فيها طالب النقيب، مما نسب له من اتهامات وتحركات تضر بصالح المجهود العام للدولة العلية[101].

وبتقديري أن ما حدث، كان انتصارا لطالب، رغم ضعف موقفه، لكنه تلاعب ببراعة بأوراقه السياسية، أمام خصومه، ونجح في ذلك. وقد منح عجمي، لقب "باشا" أزاء انضباطه وحسن تصرفه أزاء تلك الأحداث[102].

أما الصراعات المحلية التي كانت تعيشها المنتفق، خلال السنوات الثلاث التي سبقت الحرب العالمية الأولى، فقد كانت كثيرة، ومثل كثرتها، كانت مؤلمة ومؤذية ومضرة لجدار المنتفق وقوته[103].

---

(٩٨) N. A. R. S, RG 84, No. M – 467 Am Cons at Bag to Am Amb at const Dec 7 1912.

(٩٩) Young Gavin – Iraq : Land of Two Rivers – London 1980 – P: 147.

(١٠٠) د. خالد السعدون – مصدر سابق – ص٢٦٣.

(١٠١) جريدة صدى بابل – السنة الرابعة – العدد (١٩٦) ١٥ شعبان ١٣٣١هـ الموافق ٢٠ تموز ١٩١٣ – ص٢.

(١٠٢) عباس العزاوي – تاريخ .... – ج٨ – ص٢٧٩.

في تلك السنين، وفي بدايات عصر التقدم والعلم، بدايات القرن العشـــرين، حيث الصراع الاستعماري على البحار على أشده، والتنافس الشديد بيـــن كثـيرين حول الأسواق، والهمة والجدية لا تنقطع في تأمين طـرق المواصـلات، وشـواهد البترول تلوح من بعيد، يترافق مع ذلك تحلحل الإمبراطورية العثمانية فـــي معظـم أنشطتها. كان الإنكليز ينشطون في أحواض أنهار الرافدين وعند بوابات الصحـراء، وظهر رجال من أمثال (لجمن ، كوكس، لورنس، هوغارث) ونسـاء مثـل (بيـل، لوساجب، آن بلنت) مضافاً لذلك أن "المحيط الخارجي" أو المداخل للإقليم العراقـــي قد هندست أوضاعها.

مع اطمئنان بريطانيا لمصالحها في العراق، أزاء الحماية العثمانية لها، أمـلم تلك الحالات وامتناع البريطانيين وشجبهم عن تأييد أي مشروع يفهم منه الاسـتقلال عن الدولة العثمانية من قبل أية مجموعة عراقية[١٠٤]، وبشكل خـــاص مـن قبـل المنتفق[١٠٥]، بحيث بدت بريطانيا والغرب من ورائها في حالـــة توافـق تـام مـع العثمانيين، لأن بريطانيا كانت ترى في العراق، أو نصفه الجنوبي، بأنه جزء مـــن "مجال الإهتمام" الخاص بها والمرتبط بخطوطها في الخليج العربي، والتي أنشـــأت فيه الدبلوماسية البريطانية طيلة قرنين من الزمان، محطات مهمة في شكل النفـــوذ البريطاني القادم في أحداث الشرق الأوسط[١٠٦].

في ظل تلك الأجواء اندلعت الحرب العالمية الأولى في آب ١٩١٤م، بحيث بدى السلام الظاهر على شواطئ ملتقى النهرين، وهماً، والأمن وحركـــة التجـارة

---

(١٠٣) يراجع في ذلك تلخيصات: لغة العرب – المجلد الثاني، وأعداد من جريدة صدى بابل للفترة من تموز ١٩١٣ حتى أيلول ١٩١٤.

(١٠٤) Cohen S. British Policy in Mesopotamia 1907 – 1914- London 1976 – P: 265.

(١٠٥) 0 - Young Gavin – op. Cit – P: 180.

(١٠٦) لونكريك – العراق ...... مصدر سابق – ص٢١.

المتزاحم عليهما. سرايا، والنشاط البادئ داخل تقاطع النفوذيــــن للمنتفــق وللدولــة العثمانية وعلى أطرافهما، قلقا وخوفا اكثر منه طمأنينة وأملا في حالة سلام دائم.

بعد حادثة سراييفو*، ودخول ألمانيا الحرب، فقد دخلتها الدولـــة العثمانيـــة، تحت ضغط الألمان، وغرور قادة الاتحاد والترقي وبشكل خاص – أنـــور باشـــا – وهذا ما كانت تبحث عنه بريطانيا التي أتمت قواتها المحتشدة في البحريـــن والتـــي يقودها الجنرال (ديلامين) استعداداتها النهائية لغزو الأراضي العراقية، على ضـــوء قرار حكومة الهند البريطاني(١٠٧)، وهذا مـــا تحقــق حينمـــا زحفــت هــذه القــوة نحو الشمال واحتلت مدينة الفاو عند مصب نهر شط العرب في السادس من تشــرين الثاني عام ١٩١٤م(١٠٨)، وكان هذا الإنزال المثابة التـــي ابتــدأت منــها القــوات البريطانية قتالها وزحفها المتواصل نحو الشمال، حتى إعلان الهدنة فـــي الحـــادي عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٨م.

لقد كان الاتجاه السائد في القيادة العامة المسلحة العثمانية، إن ساحة العــراق تحتل مرتبة ثانوية بالقياس إلى أهمية الجبهة الروسية –التركية، ولهذا فإنها أهملــت تعزيز الساحة العراقية بالجيش المدرب الكفوء، مؤكدة بذلك عن – قصـــر نظـــر– واضح، حيث اعتبرت مسؤولية الحفاظ على الساحة العراقية، مناطة بقوات الـــدرك وحرس الحدود مع من ينضم لهم من القبائل(١٠٩).

ولأن ما حدث –بغض النظر عن سلوك الأتراك مع العرب – اعتبر اعتـداء على حوزة الإسلام، الأمر الذي يستوجب الجهاد بالنفس والمال، فقد أصدر علمـــاء

---

* حادثة إغتيال ولي عهد النمسا الأرشيدوق (فرانز فرديناند) والتي نفذها الصرب في حزيران ١٩١٤، حيث أعتبرت عود الثقاب للحرب العالمية الأولى.

(١٠٧) IOR , L/ Pts / 10 / 463 Tel From Viceroy to I . o , oct 28 1914.

(١٠٨) عبد الرحمن البزاز – مصدر سابق – ص٦٧.

(١٠٩) د. خالد السعدون – مصدر سابق – ص٣٦١.

ومجتهدو الإسلام في العراق، الفتاوى الدينية التي تدعو للجهاد والدفاع عن أرض الإسلام، مما خلق جوا من الحماسة الدينية، كانت الدولة الثمانية بحاجة إليه في ذلك الوقت.

بعد نزول الإنكليز في الفاو، فقد واصلوا زحفهم نحو البصرة، التي أخلتها القوات العثمانية، إزاء عدم تكافؤ القوى. ومن جديد، تكون المنتفق حاضرة، وكأنها خلقت للتصدي للأزمات، في تلك اللحظات، حضرت قوات المنتفق بقيادة – عجمي باشا السعدون–، الذي حمى البصرة من الفوضى والغوغاء، كما أنه حمى القوات التركية المنهزمة وضباطها، من القتل المتعمد من جمهور غاضب على ما يحدث، حيث أوصلهم بأمان إلى القوات العثمانية في الناصرية، هذا غير أن وجوده شكل مصدر قلق للإنكليز[110]، الذين قدروا، أن ميل عجمي، لهم، سيعني القضاء على حركة الجهاد التي بدأت تتسع، لذلك الحوا في الكتابة إليه، فأخذ السير (برسي كوكس) في الثلاثين من كانون الثاني ١٩١٥م، المبادأة، وطلب عقد اجتماع معه في الشعيبة، إلا أنه رفض ذلك المقترح[111]، وكرر الطلب بأنهم على استعداد للقائه في أي مكان يختاره[112]، إلا أن، عجمي باشا، طلب بدلا من تلك اللقاءات، تعهد الإنكليز باستقلال العراق، على أن يتم إعلان ذلك علنا.[113] لكن المفاوضات فشلت، بعد أن عرض الإنكليز بدلا عن ذلك مكافآت شخصية وامتيازات تخص الأرض الزراعية وغيرها[114]، إلا أنه إحتقر تلك العروض وأهملها، لذلك (لم يذره بعد ميله إلى الأتراك الولاء لهم، .... إن أمثاله من الرجال لا تعوزهم العزة،

---

(١١٠) المس بيل – فصول من تاريخ العراق القريب – ترجمة جعفر الخياط – بيروت ١٩٧١ – ص٦-٨.

(١١١) إرلند تي ويلسون – مصدر سابق – ص٦٢ – ٦٣.

(١١٢) المس بيل – مصدر سابق – ص١٢.

(١١٣) د. علي الورد – لمحات .... – ج٤ – ص١٧٥.

(١١٤) المصدر السابق – ص١٧٦.

فيما خلا داخل بلادهم، لقد صدر عنه العفو العام سنة ١٩٢٠ لكنه أبى ذلك بأنفه..)[١١٥].

بعد إصدار فتاوى الجهاد، سار المجاهدون صوب الشعيبة، المكان الذي قررت القيادة العسكرية التركية، ان يكون أرض المواجهة الحاسمة، بعد أن أسندت قيادة القوات إلى العقيد سليمان بك عسكري[١١٦].

وقد اختلف في عدد المجاهدين الذين اشتركوا في معركة الشعيبة التي ابتدأت في الثاني عشر من نيسان ١٩١٥م، وإن كان الرقم (١٨/٠٠٠) ألف مقاتل، هو الأقرب إلى المعقولية والدقة، ينتمي نصفهم إلى قوات المنتفق[١١٧]، والتي قاد قواتها الشيخان عجمي باشا وعبد الله الفالح[١١٨]. وقد لعب عجمي دوراً كبيراً في تعبئة المجاهدين وتعزيز معنوياتهم[١١٩]، بحيث (غدا اسمه مضرب الأمثال في الشجاعة والشهامة، وحيكت حول أعماله أساطير كثيرة، لا تزال تتناقل جيلاً بعد جيل، فقد كان يهاجم المفارز البريطانية ولاسيما الخيالة منها، فينقض عليها على رأس فرسانه المنتفكين المنتشرين بمسافات متباعدة، لتجنب تأثير نار المدافع البريطانية، وكان هؤلاء الفرسان يتجمعون في لحظة الهجوم بإشارة من عجمي، فيهجمون بسرعة البرق الخاطف فيوقعون بالبريطانيين خسائر فادحة ثم يقودهم عجمي، بسرعة مذهلة إلى حيث تبتلعهم الصحراء.....)[١٢٠]. وقد تلقى الجناح

---

(١١٥) إرنلد تي ويلسون – مصدر سابق – ص٦٣.

(١١٦) د. علي الوردي – لمحات ...... – ج٤ – ص١٤٥.

(١١٧) مكي شبيكة – العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى – ج١ – بيروت – ١٩٧٠ – ص١٢٣.

(١١٨) المس بيل – مصدر سابق – ص١١.

(١١٩) د. علي الوردي – لمحات ...... ج٤ – ص١٤٥.

(١٢٠) العميد الركن شكري محمود نديم – حرب العراق ١٩١٤ – ١٩١٨ – ط٦ – دار التضامن – بغداد – ١٩٦٧ – ص٣١.

الأيمن من القوات العثمانية التي يقودها، عجمي باشا، أقوى وأشد الهجمات الإنكليزية، إلا أن صموده ومعه مقاتليه مع شجاعتهم الصلبة، لم تمكن الإنكليز من فعل شيء، مما دفعهم إلى توجيه هجومهم نحو القوات التركية، التي إنهزمت فهزمت معها الجميع[١٢١].

بعد قتال استمر (٧٢) ساعة، بدأت صلابة الجيش التركي تضعف، فبدأت فلوله بالتقهقر، فتبعته قوات المجاهدين، فحصلت الهزيمة التي دفع -سليمان بك عسكري- ثمنها، رأسه، حينما أقدم على الانتحار، حيث دفن في أدغال البرجسية[١٢٢]، ومع ذلك فقد كانت معركة الشعيبة، معركة ضارية استبسل فيها الجانبان، وكان النصر فيها للجانب الأقوى بعدته لا بعدده، لم يبخل فيها المجاهدون بالتضحيات والمال والشجاعة الفائقة، بحيث وصفهم الجنرال "مليس" القائد الإنكليزي لمعركة الشعيبة، بأن فعلهم وما قاموا به، كان معركة حقيقية[١٢٣].

بعد انتصار الإنكليز في الشعيبة، قررت قيادتهم، ضرورة احتلال كامل أراضي ولاية البصرة، ولذلك وجه الجنرال (نيكسون) قائد الحملة البريطانية قواته نحو الناصرية في حزيران ١٩١٥م مدركا أن احتلاله لها سيمكنه من السيطرة على عشائر المنتفق[١٢٤].

ومن جديد، دخلت المنتفق لوحدها – دون بقية قوات المجاهدين – في معركة دفاعية عن المدينة، استمرت طويلا، قبل أن يعرف – فرهود المغشغش –

---

(١٢١) عبد العزيز القصاب – من ذكرياتي – منشورات عويدات – ط١ – بيروت ١٩٦٢ – ص١١٨.

(١٢٢) شكري محمود نديم – مصدر سابق – ص٣٣.

(١٢٣) رسل برادون – حصار الكوت – ج١ – دار إحياء التراث العربي – ترجمة سليم طه التكريتي – بغداد (بدون تاريخ) – ص٣٧.

(١٢٤) إرنلد تي ويلسون – مصدر سابق – ص١٢٠.

الإنكليز بطرق الإلتفاف حول القوة المدافعة(١٢٥)، وقبل أن ينهزم الضباط الأتـــراك إلى الجانب الإنكليزي مستسلمين(١٢٦). وقد لحقت بالقوة المهاجمة خســـائر كبـيرة، لكن ذلك لم يمنع الجيش الغازي من دخول الناصرية. ولم يتمكـــن الإنكلـيز، مــع انتصارهم، أن يبددوا كابوس الرعب الذي يخلقه لهم، عجمي باشا، وأتباعــه الآلاف من العرب العشائريين(١٢٧)، لأن وجوده في البادية، هدف ترنوا إليه الأبصـــار(١٢٨)، قد أبقى شعلة الرفض للوجود البريطاني قوية لم تنطفئ. عززها بالصلـــة الدائمـة والمستمرة مع الحوزة العلمية في النجف الأشرف، التي أمدتـــه بـالقوة المعنويـة والتشجيع الدائم في جهاده، وفي صور الرسائل مـــن قبلـه إلـى حجـة الإسـلام الشهرستاني (والموجودة بعض صورها في الملحق) توضح بعض أنشطة الحـــوزة العلمية وعجمي باشا، في استمرار الجهاد ضد المحتل الإنكليزي.

بعد احتلال الناصرية، فقد دخلت قوات المنتفق في معركة مع الإنكليز حول (مجينينه) التي لم تسقط إلا بالتفاف قامت به السفن البريطانية عبر الهور(١٢٩). بعـد هذه المعركة انسحب عجمي، إلى -الخميسية- حيث أوكلت لقواته مهمة الســيطرة على الطرق الصحراوية(١٣٠). وقد لجأ الإنكليز نتيجة رفض عجمي وعموم المنتفـق لهم، إلى تسليح بعض العشائر المنتفقية، مثل البدور والضفير والحسينات والغـزي، للوقوف بوجهه، أزاء معرفتهم بصورة الأحداث التي جـــرت فـي المنتفـق قبـل الحرب(١٣١).

---

(١٢٥) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٧٥.

(١٢٦) علي جودت الأيوبي – ذكريات – بيروت ١٩٦٧ – ص٣٥.

(١٢٧) إرنلد تي ويلسون – مصدر سابق – ص١٢١.

(١٢٨) المس بيل – مصدر سابق – ص٧٧.

(١٢٩) إرنلد تي ويلسون – مصدر سابق – ص١٣٣.

(١٣٠) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٧٦.

(١٣١) Cohen – Op. Cit – P. 269.

إذا كان موقف عموم عشائر المنتفق نحو العثمانيين، قد شابه قدر من عدم الولاء، فإن موقفها من الإنكليز كان عدائيا صريحا لا لبس فيه. فحينما حاول الإنكليز إرسال قوات نجدة من الناصرية عبر نهر الغراف لقوات الجنرال – طاوزند- المحاصرة في مدينة الكوت، تصدت لها عشائر "خفاجة والأزيرج" واشتبكت معها في قتال بلغ من عنفه وشراسته أن استخدم فيه السلاح الابيض(١٣٢)، واشتهر هذا النصر، حتى قال مهوال المنتفق متفاخرا [شرناها وعيت باهيزه]*.

رغم احتلال الناصرية، فقد ظلت حركة المقاومة مشتعلة الأوار، يقود لواءها عجمي باشا، الذي أنشأ معسكره الجديد في منطقة "الرملية" وهي نقطة تتوسط بين السماوة والخضر(١٣٣)، حيث واصل محاولاته لاستقطاب القبائل وحشدها للوقوف بوجه الإنكليز، وقد انضم له قسم من قبيلة العجمان(١٣٤)، وقد هزم القوات الإنكليزية الزاحفة عن طريق البر والمتجهة للسماوة في ١٥ تموز ١٩١٦م، قرب منطقة "عين صيد" والمسنودة بعشائر الضفير والبدور المنتفقية(١٣٥)، وكذلك هزمت قوات الإنكليز المحمولة في السفن، في نفس الفترة من قبل القوات التي يقودها شقيق عجمي، -سعود بك- الأمر الذي اضطر البريطانيين لاستخدام الطائرات في ضرب عجمي، وقواته في الرملية، لكن ذلك لم يؤثر فيهم أو في معنوياتهم(١٣٦).

---

(١٣٢) د. خالد السعدون – مصدر سابق – ص٤٠٤.

* باهيزه: منطقة جرت فيها أحداث المعركة، تقع شمال مدينة الناصرية، ومعناها، أخذنا رأي المنطقة في عبور الإنكليز، فرفضت ذلك الرأي.

(١٣٣) النبهاني – مصدر سابق – ص ٤٧٦.

(١٣٤) IOR . R / 15 / 5 /25 , No C – 3 of 1916 P. A Kuwait to P. R in the P. G Feb 2 1916.

(١٣٥) عبد العزيز القصاب – مصدر سابق – ص١٤٠.

(١٣٦) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٤٧.

لقد ظل، عجمي باشا، في موقعه على أطراف الصحـــراء، أشـبه بنقطـة وسطيه مع إمارة حائل، والقوات العثمانية المتراجعة، يتعاون معـــهما فـي توفـير التموين الغذائي لهما، رغم الحصار الاقتصادي الذي فرضه الإنكليز، ضامنا سـلامة الطريق بوجوده. وقد ردت السلطات الإنكليزية على نشاطاته تلك بمصادرة أراضيه وأراضي أقاربه ومؤيديه(١٣٧)، لكن ذلك التصرف، لم يثن الجميـع عـن مواصلـة الكفاح.

بعد سقوط بغداد في آذار ١٩١٧م، وتحرج موقف العثمـانيين، فقـد نقـل عجمي باشا، مقره قريبا من أطراف النجف(١٣٨)، دون أن يدخر وسعا فـي تـأليب القبائل ضد الإنكليز(١٣٩)، مؤكدا أن خصومته مع الإنكليز، متطاولة، وتصفه المـس بيل- بأنه (لم يترك لنا شكا حول الطريق الذي عاهد نفسه أن يسير فيـه، (وكـان) كالرمح الطليق محافظا على هيبته وجلال قدره ......)(١٤٠).

وفي بداية عام ١٩١٦، إزداد تعاون عجمي باشا مع الشيخ "عطية أبو كلـل" أشد المقاتلين صراحة ورفضا للاحتلال الإنكليزي، والذي اسـتطاع لمـدة تقـارب السنتين من أن يقيم حكومة داخلية في مدينة النجف، بعيدة عن كل التدخلات. وقـد كان لتعاون عجمي باشا معه، ما هيأ لهذه الحكومة إمكانية الإسـتقرار والديمومـة، من خلال سيطرته على بادية الشامية، وخوف القبائل الطامعة من سطوته. كما أنـه -عجمي- وفر الأمان التام لطرق التجارة من وإلى النجف، مما أبعـد عـن هـذه المدينة وما يحيطها شبح المجاعة الذي خيم على أقسام كبيرة من العراق خلال تلـك

---

(١٣٧) J. B. Philby – Arabian Days – London 1948 – P: 115.

(١٣٨) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٧٨.

(١٣٩) ارنلدتي ويلسون – مصدر سابق – ص١٤١.

(١٤٠) المس بيل – مصدر سابق – ص٨٤.

الفترة[١٤١]. وبعد ذلك حين تحرجت الظروف أمام -أبو كلل- وأولاده في بداية عـلم ١٩١٨م، لم يجدوا مأوى أكثر أمانا من معسكر عجمي باشا[١٤٢].

بعد تردي الأوضاع العسكرية العثمانية في جـهات القتـال المتعـددة فـي النصف الثاني من عام ١٩١٨م، فقد اجتاز عجمي باشا بما تبقى لـه مـن قـوات أراضي عشائر عنزة، قاصدا الإلتحاق بالجيش العثماني، في أعالي دجلة، خصوصـا وأن المواصلات بينهما كانت مقطوعة، وعداءه للإنكليز وعـداء الإنكليز لـه، معروفان، إلا أن الشيخ (فهد بن عبد المحسن الهذال) أغاظه هذا الأمر، فكتب إلـى -لجمن- يخبره بأوضاع عجمي، ومعسكره، فتوجه إليه مع قواته ودخلوا معه، فـي معركة، انتصر فيها عجمي باشا انتصارا واضحا[١٤٣]. إلا أن الإنكليز لم ييئسـوا، حينما حاولوا اغتيال عجمي، بعد أن عجـزوا أن يـهزموه، ومـن جديـد تفشـل محاولاتهم التي جرت بالتنسيق بين الشيخ (محروث الهذال) ولجمـن[١٤٤]. بـل أن الإنكليز ومع كل تنسيقهم مع جميع قبائل الحدود التي كـانوا يدفعـون لـها المنـح والهبات، لم ينجحوا مطلقا في إزاحة عجمي عن الميدان برغم تناقص أتباعـه فـي بعض الأحايين[١٤٥].

يعد وصول عجمي باشا، لديار شمر، والتحاقه بالجيش العثماني، فقد كـان يرافقه الكثير من أبناء المنتفق، وبشكل خاص من عشائر "اتحاد المجـرة" أغلبـهم عاد لدياره بعد الهدنة، والقليل منهم استمر مع عجمي في هجرته نحو الأناضول.

---

(١٤١) لونكريك – العراق ...... – مصدر سابق – ص١٦١.

(١٤٢) المس بيل – مصدر سابق – ص١٢٢.

(١٤٣) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٨٠.

(١٤٤) الرائد – ن . براي – مصدر سابق – ص١٧٩.

(١٤٥) المس بيل – مصدر سابق – ص٨٦.

لقد أبى الرجل أن يسالم الإنكليز أو يتعاون معهم، مثلما فعل معظم شيوخ العشائر في العراق، فلقد ظل متمسكاً بولائه بدافع الحمية الوطنية والدينية، وخصلة الوفاء والابتعاد عن الغدر(١٤٦)، بل إن الإنكليز، وقد نشروا العديد من الكتب عن حربهم في العراق، أجهدوا أنفسهم كثيراً في اختيار أسوء الألفاظ وأقبحها، حينما يمر ذكر قائد المجاهدين، عجمي باشا السعدون الذي لم يكن مجيداً في لعبة نقل الولاءات طبقاً لما يستلمه من مكافآت مالية من هذا وذاك، بقدر ما كان مجيداً وحاسماً في اختياراته، وكل مجاهديه المخلصين، حينما صودرت أراضيهم وممتلكاتهم، وحوربوا حتى في رزقهم. بل أن الإنكليز وقد دنت لهم السيطرة على البلاد، لم يقفوا موقفاً حتى -محايداً- تجاه آل السعدون وقضاياهم نظراً لمواقفهم الواضحة والمتلخصة بالرفض للوجود الإنجليزي(١٤٧).

كما ان المنتفق، وحتى بعد الأحداث التي مرت، لم تلق السلاح بوجه المحتل الجديد، ولم تخضع له حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. لقد استنكر أمراء المنتفق وشيوخهم ومعظم مقاتليهم ما جرى من قبل البعض، من تودد وتسهيل أمر للمحتل الإنكليزي، ولذلك كان رأي الأغلبية، رفض الإذعان للسلطة الجديدة وعدم التعاون معها(١٤٨)، ولعل في موقف الشيخ "بدر الرميض"* الذي رفض بشكل

---

(١٤٦) لونكريك – العراق ...... مصدر سابق – ص١٠٢.

(١٤٧) جريدة القبس الدولي – العدد (١٦٧٤) – مقال الأستاذ عبد اللطيف الشواف.

(١٤٨) إرنلد تي ويلسون – مصدر سابق – ص١٤١.

* هو بدر بن عجيل بن رميض بن سليمان بن ثنيان المالكي، ترأس البو صالح لأكثر من ثمانين عاما. من أشجع رجال المنتفق وأكرمهم، ومن مجاهدي الشعبية البارزين. ومن المجيدين في نظم الشعر الشعبي.

قاطع، أن يهادن أو يصالح أو يطيع أي قائد إنكليزي حتى وفاته عام ١٩٤٢م، خير دليل على عمق تمسك المنتفق بأصالتهم ورأيهم بالإنكليز[١٤٩].

ولابد من الإشارة في ختام هذا الفصل، أن عجمي باشا، لم يقطع علاقته مع أحداث العراق، فقد كان التنسيق قائما بينه وبين الشيخ – عطية أبو كلل – فيما يخص ثورة النجف، وخططهما المترتبة مع جمعية (النهضة الإسلامية) في الإعداد للثورة عام ١٩١٨م لأنهما قدرا أن النجف ستكون الشرارة، وبعدها ستلتهب كل مناطق الفرات في ثورة عارمة[١٥٠]. كما انه لم ييئس رغم إجهاض ثورة العشرين، حيث بذل جهدا واسعا، مع مجموعة من المناضلين العراقيين، مع الجهات التركية، من أجل تزويدهم بالأسلحة والمعنويات لغرض القيام بما يشعر الإنكليز بالرفض العراقي لوجودهم أو القبول به[١٥١].

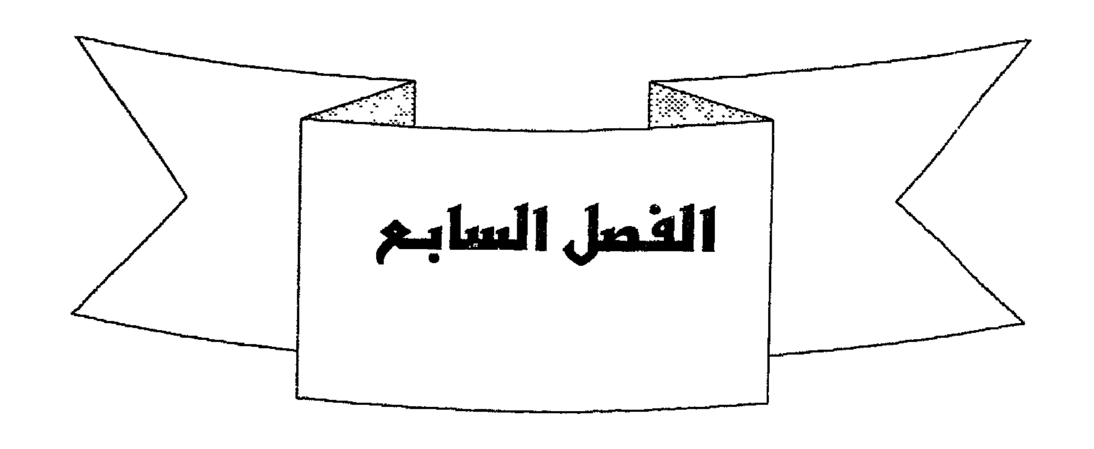
وتظل مساهمة الجهاد التي ختمت بها إمارة المنتفق حياتها، ضد الوجود الإنكليزي آخر مساهمات هذه الإمارة في الكفاح والشجاعة والتطلع للحرية، لأنها صارعت – مع معرفتها بفارق الإمكانات– وحشا كبيرا، أرعب الدول الكبرى، فكيف بأهل القبائل، إلا أنها لم تتردد أو تتكفئ أو تمارس التحالفات من تحت الستار،،، قالت كلمتها الرافضة للوجود الإنكليزي في العراق، وتحملت بشجاعة وصبر نتائج قرارها.

---

(١٤٩) مذكرات برترام توماس في العراق ١٩١٨ – ١٩٢٠ – ترجمة عبد الهادي فنجان – منشورات دار الثقافة – بغداد ١٩٨٦ – ص٤-٦.

(١٥٠) عبد الله فهد النفيسي – دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث – دار النهار للنشر – بيروت ١٩٧٢ – ص٦٦ – ٦٧.

(١٥١) عبد الجبار العمر – مصرع الكولونيل لجمن – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٧ – ص١٣٩.



الحياة الداخلية

ابتداءاً، لابد من التنويه، أن الحياة الداخلية لإمارة المنتفق*، والتي سنتناولها في هذا الفصل، لم تكن متطابقة أو قريبة من هذا الوصف، مع أعمالها وحياتها الخارجية، سواءً مع ما يحيط بها من قوى محلية، او مع السلطات الحكومية العثمانية، تحديداً. فقد كانت حياتها الداخلية، مزيجاً من العرف والتقاليد البدوية والعشائرية، والتي تتوافق ونمط الحياة الذي عاشوه طيلة وجود إمارتهم، ذلك النمط الذي يتوافق والطبيعة التي ألفوها من البساطة وعدم البهرجة، المبنيان على الحقائق المادية والمعنوية والأدبية للجميع دون استثناء، بحيث لم يكن هناك من تعقيد في الإجراءات أو الممارسات التي تعطل الجهد الفردي المبني على تحقيق النفع العام. وهذا ما أفاد الإمارة في تصليب إرادتها والتي مكنتها دوماً من استيعاب اقسى الإجراءات التي كانت تواجهها من قبل السلطات العثمانية.

والحياة الداخلية للإمارة، كانت بنفس الوقت انعكاساً حقيقياً لمشاعر ولطموح ورغبة السكان، بحيث يمكن الحديث من خلال مفردات هذه الحياة عن الحقائق الإجتماعية التي عاشت معهم، والتي هي بالنتيجة، نتاج عام لمفردات المجتمع العراقي عموماً في تلك الفترة، مع وجود مفردات اجتماعية خاصة بهذه الإمارة، سنتعرض لها في هذا الفصل، لكن هذه المفردة الخاصة، لم تبق استثناءً خاصاً، بقدر ما استطاعت حياة سكان هذه الإمارة، إن تنقلها إلى المجتمع الأوسع، بعد أن اتضح أن انتشار استعمالها لا يتقاطع مع العرف والتقاليد الإجتماعية المألوفة.

---

* هذا الفصل يعتمد في أغلبه على المتناقل من الروايات التي دققنا كثيراً في مضامينها وحقائقها، والسبب في ذلك أن جميع ما كتب عن المنتفق لم يتناول حياتها الداخلية، بمثل ما تناول دورها واثرها السياسي، محلياً وإقليمياً، وكانت إشارات البعض عن الحياة الداخلية، قليلة ومقتضبة، إن لم تكن نادرة.

لذلك فالحياة الداخلية، هي خلاصة لنجاحات واخفاقات الإمارة، ضمن حدود "ديرتها" أو ضمن المجال الحيوي لنشاطها، وهذا بلا شك يقدم لنا نموذجاً عن حقائق المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقطعاً إن تلك الحقائق هي نضج لحركة المجتمع العراقي عموماً، وهذا ما يوضح لنا التكون العقلي للإنسان العراقي طيلة تقادم سنين وجود هذه الإمارة، والتي بقى شخصها (على مستوى الفرد) يتعامل مع مفردات الحياة بتبسيط شديد، مما جنبه الكثير من الضغط النفسي والعقلي، لذلك كانت حياة المنتفق الداخلية، متسعة عموماً مع حقائق فعلها الحقيقي.

الأمير والمجلس الأعلى للإمارة:

لقد كان تبوء الأمير لموقعه على رأس الاتحاد القبائلي، من المناسبات المهمة والخطيرة في حياة المنتفق، والتي درجت منذ ظهورها عام ١٥٤٦م، وإناطة موقع الرئاسة بعائلة "آل شبيب" ان تجعل مقدمها من ذوي الإمكانات التي تؤهله لقيادة هذا الاتحاد، كما أن المنتفق، لم تلزم نفسها، بتوريث الإمارة من الأب إلى الابن، إلا في حالات قليلة كان فيها الابن جديراً بما أنيط به من مهام، هذا جانب، والجانب الآخر، إن المنتفق في كثير من الحالات، كانت تعين أميرها، بنفسها، حتى وإن كان ذلك الاختيار يوقعها في مواجهات عسكرية مع السلطة العثمانية، وحدث هذا مراراً، وهذا ما أشرنا إليه في متن هذا الكتاب، إلا أن هذا التفرد في الاختيار قد صودر من المنتفق وأصبح مناطاً بوزير بغداد إبتداء من فترة حكم المماليك، الذين كانوا أجدر ممن سبقهم في اختيار أمراء وشيوخ الاتحادات القبائلية المهمة، لأن اختيارهم لأمير المنتفق يستوجب عليهم حتماً، أن يكون متوافقاً والإجماع العلم، ويحظى بقبول من نسبة كبيرة من أبناء المنتفق، إلا أنهم أحياناً، خالفوا هذه القاعدة وفرضوا شيوخاً على المنتفق، مثل ناصر الصقر عام ١٧٠٨م ونجم العبد الله عام ١٨١٣م وعجيل بن محمد الثامر عام ١٨٢٦م وفارس الزيد العلي عام ١٨٣٦م. وقد جوبه ذلك الفرض في كل مرة، بالرفض من أهل المنتفق، حينما يتعارض أمر

ذلك التعيين مع مصالحهم الحيوية، مثل التنازل عن بعض مقاطعات "ديرة" المنتفق، أو زيادة الخراج أو الضريبة أو ما شابه، مما أضطرهم كثيراً ان يدخلوا في مواجهات عسكرية مع من فرض عليهم والمسنود بقوات الحكومة، ومع كل ذلك الفرض والاجبار، فقد كانت الأرجحية في أغلب المواجهات التي دخلتها المنتفق من هذا النوع لصالحها، مما أكد أن إفشال مراسيم وزير بغداد، ليس متأتٍ من قوة المنتفق التسليحية لوحدها، مقارنةً مع إمكانات الدولة التسليحية الكبيرة، بقدر ما كان لإرادة أصحاب "الديرة" السبب المباشر للوصول إلى هذه النتيجة.

وبهذا الجانب، فقد كانت المنتفق بمختلف عشائرها، قد نقلت تنظيماتها السياسية معها أثناء تآلفها مع بعضها، أو أثناء تحولها من البداوة إلى الزراعة. فقد كان موقع الأمير من أهم تلك التنظيمات، لأن اختياره كان يجري وفق أسس وتقاليد عريقة، جرت المنتفق على التمسك بها، ومثل هذه التقاليد على بدائيتها، تعبر عن روحٍ ديمقراطية فرضتها الظروف الموضوعية المحيطة بهم بشكل عام، وهذا جرى قبل ان تتمكن الدولة العثمانية من التدخل في شؤون الإمارة، وتتمكن من تقسيم حتى أبناء القبيلة الواحدة. وبهذا الجانب فقد كانت سلطة المنتفق أحد أسس النظام الإنتاجي الزراعي القبلي، وإطاره السياسي القبلي أيضاً والمتسم بالطابع الديني، والذي اقتسم السلطة بين مركز الخلافة في أستنبول وممثليها المحليين في مناطق متعددة، أبرزها المنتفق[١]، ولذلك كانت القبائل جميعاً، تخشى الأمير السعدوني، أكثر من خشيتهم سلطة الدولة العثمانية[٢].

وأمير المنتفق، أو (شيخ مشايخها) كان صاحب القرار النهائي في كل ما يتعلق بشؤون الإمارة (باستثناء الشرع) وهو في النهاية يتحمل تبعة تلك القرارات ويدافع عنها إذا أقرت، بحيث يدفع أحياناً رقبته مهراً لقرارات المنتفق، مثلما حدث

---

(١) مقال الأستاذ عبد اللطيف الشواف – القبس الدولي – مصدر سابق.

(٢) عبد الله الفياض – مشكلة .... مصدر سابق – ص٥٢.

مع محمد الوسيط وشبيب الثاني وسعدون الكبير وثامر بن سعدون وتويني العبد الله وحمود الثامر وسعدون المنصور. وهذا التحمل في اتخاذ القرار وحصره في يد الأمير، أراه إثقالا زائدا على ما يستلزم إنجازه في ديمومة وتقوية الإمارة وحل مشاكلها دون مرورها عليه، لكن ذلك كان غير ممكنا دون رأيه، وفي هذا تضييع لوقت ثمين يمكن استثمار الجهد فيه لصالح النفع العام، لكن تلك الطريقة هي نموذج للطابع الشرقي للقيادة.

ومنذ ظهور الدولة بشكلها الحديث، فإن هذا المفهوم لم يكن معروفا في المجتمعات القبلية، بحيث كان مفهوم الدولة لديهم لا يتعدى في سيادة القبيلة كحكومة، وفي الأمير ومجلس شورى الإمارة او القبيلة كسلطة، رغم ان السلطات النهائية كانت بيد الأمير، الذي يعتبره رعاياه حاكما مطلقا يسير القبيلة كما يشاء، على اعتباره رائدها الذي يجد مصلحتها فيما يعتقده وينفذه [٣]. ورغم السلطات شبه المطلقة للامير، الا انه كان للامارة، مجلس اعلى للاتحاد، او ما يمكن ان نسميه الجهاز القيادي لها، يتمثل بروؤس العماير الثلاث (بني مالك، الأجود، بني سعيد) ويقوده الأمير السعدوني. ورغم استقلال الشيوخ بشؤونهم الداخلية، فيما يخص عشائرهم، فأنه لم يحدث في تاريخ المنتفق، أن خرجت هذه العشائر على صفة الاتحاد، وخالفت ما استقرت عليه الكلمة في المجلس الاعلى [٤]. ويضاف لهذا المجلس في أحيان كثيرة، أبناء او أخوة الأمير، او بعضهم، وهذا الجهاز ثابت كمؤسسة مبنية على العرف والتقاليد [٥]، وتكون قراراته في بعض الاحيان ملزمة مثل حالات إعلان الحرب أو الغزوات البعيدة المدى، لكن هذا الجهاز على اهميته، يعطل أحيانا دوره، وهذا تابع لشخصية الأمير وقوته ونفوذه، فمثلا – ناصر باشا

---

(٣) د. عبد الفتاح حسن ابو عيلة – مصدر سابق – ص١١.

(٤) د. عماد عبد السلام رؤوف – الأسر....... مصدر سابق – ص٤٢٠.

(٥) سليمان فائق – تاريخ ..... مصدر سابق – ص١٧.

الأشقر – رغم كل مواهبه الإيجابية الكثيرة، فقد عطل عمل مثل هـذه المؤسسة، لكننا نجد أن حمود الثامر وتويني العبد الله وثامر السعدون، رغم نفوذهم وشخصياتهم العظيمة، كانوا يحرصون على ديمومة هذه المؤسسة.

وتعطيل مثل هذا الجهاز القيادي قد فعل فعله في حصول التآكل من جرف الإمارة ولصالح الجوانب السلبية فيها، والتي لم يدركها الأمراء الأواخر في الإمارة، في حين كان ينبغي التمسك بمثل هذه التقاليد وهذه المؤسسات، لأنها هي وحدها التي كفلت لهم الزعامة لفترة طويلة. ولم تشهد المنتفق طيلة وجودها إن قام الاتحاد القبائلي بعزل أميره، أنما يتم العزل بتدخل عسكري حكومي فعال يستقطب من حوله الأكثرية، ويطرح بديلا مقبولا.

وقد كان جهاز القيادة للإمارة (الأمير ورؤوساء الأثلاث) يعيشون مع افراد قبائلهم بشكل مشترك، وكانت معرفة القادة والمقودين لبعضهم البعض، تسمح بنوع كبير من الديموقراطية (إذا استعملنا المصطلحات الحديثة) تصل في أحيان الممارسة فيها الى شكل خشن، لا يتصرف أزاءها الجهاز القيادي للامارة بفظاظه او تشنج مع قائلها او منفذيها، والسبب في ذلك، إن حياة البداوة التي الفتها قبائل المنتفق، بما فيها من بساطة كبيرة في أمور الحياة، مع تمسكهم بالتقاليد العربية الجيدة التي تجعل من "المضيف" برلمانا للديمقراطية، لا يجدون في ذلك التصرف تقليلا لقيمتهم الاجتماعية، أو أنه يشكل إساءة مقصودة، بقدر ما هو تعبير حقيقي عن شكل تصريف الامور بالشكل الذي يفهمه قائله أو منفذه – فيوم تواجد العثمانيون عسكريا لأول مرة في سوق الشيوخ عام ١٨٥٧م، قال أحد أبناء المنتفق (الله بلانه بلوتين... ما بين افندم ومحفوظ) لم يستأ أمير المنتفق في حينه – منصور باشا – من هذا القول، رغم معرفته لقائله.

ومن الدلالات البارزة في حياة المنتفق الداخلية، والمتوافقة مع النهج "الديمقراطي" الذي اعتادوه مع بعضهم، انهم كانوا يرون "مضيف" القبيلة، المكان

الوحيد الذي يقولون فيه، ما يروه مناسبا لاتحادهم والحريصين على ديمومته وتقويته، من خلال الافعال المتخذة فيه، لانه في تقديرهم يشكل المركز السياسي والاجتماعي لاتحادهم القبائلي، حيث كان مشايخ القبيلة ومتنفذوها، يعقدون مجلسهم فيه ويستقبلون مبعوثي العشائر الاخرى والحكومة ويفاوضونهم فيه.

ومضيف "شيخ المشايخ" بمثابة المقر العام لجميع ابناء "الديرة" لا يمنع عنه أحد سواء رغب في الاكل او النوم، لأنه يشعر ان هذا المضيف بيته الكبير، وقد جرت المنتفق على تقليد جميل، فيما يخص الضيافة، خصوصا لضيوفها من ذوي المكانة الكبيرة، حيث تنصب لهم خيم مفردة ومتميزة خاصة بهم، طيلة فترة إقامتهم في المنتفق، زيادة في اكرام ضيفها واحتراما لهم، وقد اخذت بعض عماير العراق فيما بعد، هذا التقليد من المنتفق، وضيف المنتفق لا يسأل عن وجوده او حاجته إلا بعد ثلاثة أيام.

وفي مضيف المنتفق العام، هناك "مسند" خاص يتكىء عليه – شيخ المشايخ– حينما يجلس في المضيف محاطا برؤساء الاثلاث وكبار رجال القبيلة، ويسميه اهل المنتفق "إشداد" ويوضع عند العمود الاخير في طرف المضيف، ويقابله عند الطرف المقابل في الطرف الأقصى "القهوجي". وهذا المسند لا يجوز تقليدا وعرفا، ان يستعمله الاخرون حتى وإن كانوا أبناء الأمير أو أخوته. والمضيف يكون واسعا لأكبر عدد ممكن من رواده حيث يكون مفروشا بـ "البسط" * و"السجاد" * والمضيف الشائع عند المنتفق هو (المخومس) وترفعه خمسة أعمدة، أو (المثولث) المرفوع بثلاثة أعمدة.

وقد تفردت المنتفق عن بقية عماير العراق الأخرى في هذه الجوانب، فمن تقاليد المضيف:

---

* البسط والسجاد: نوع من الطنافس الذي يفرش على الارض.

- إن جلوس شيخ المشايخ يكون عند العمود الأخير المقابل لدلال القهوة عند العمود المقابل.
- إن لا أحدا يتكلم إلا حين يبدؤه الشيخ بالكلام، عدا وجهاء القبيلة الذين يحق لهم مخاطبة الشيخ.
- لا ضحك ولا مزاح، ولا أحد يمد رجله او يتكأ على كوعه، بل الجميع في جلسة نظامية، تقل فيها الحركة أو الالتفات.
- تراعى قاعدة السن في تسلسل القرب مجلسا من الامير، ولا يجلس أحد الى جانبه إلا بطلب منه.
- تقدم القهوة أول ما تقدم للشيخ نفسه ثم لمن يليه في الجلوس المرتب حسب المكانة والسن، وأحيانا كثيرة تقدم القهوة من قبل اثنين.
- ينهض كل من في المجلس عند قيام شيخ المشايخ ويجلسون بجلوسه.
- تقدم القهوة مرتان يوميا في المضيف في الصباح المبكر، ثم عصرا، و (تجدد) القهوة اكراما لضيف متميز حتى وان كانت قد صنعت قبل لحظات.
- يتولى الأشراف على تقديم الخدمات في المضيف للضيوف (سفرجي) يحاسبه الشيخ حسابا عسيرا عن أي تقصير... أما طريقة تقديم الطعام، فأنه بعد نصب مائدة الطعام التي ينظمها (السفرجي) يعلم شيخ المشايخ بالأمر، حيث يقوم بدعوة ضيوفه على المائدة، ومن آداب أو تقاليد المنتفق حين تقديم الطعلم، أن لا يقوم أحد منفردا عن الطعام، ويحق للضيف المكرم ان يقوم أولا، وغالبا ما يقوم أمير المنتفق بوضع طرف عباءة الضيف المكرم تحت رجله، لمنعه من القيام بسرعة والشيخ آخر من يقوم عن الطعام، باعتباره المضيف، وأحيانا يكون جلوسه لغرض اشعار الجميع بوجوده معهم ومشاركته إياهم، كما يحرص أثناء تقديم الطعام أن يكون باردا، لكي يأكل الضيف والمدعون بشكل مريح.

ولخدمة ضيف المضيف، فهناك قدور نحاسية كبيرة خاصة بالمناسبات، بعضها يستوعب بعيرا، والاخر يسمونه (أبو عشر عراوي) وتستعمل هذه في الولائم الكبرى، التي تقام في المناسبات الخاصة والأعياد الدينية، وحين يكون ضيوف المضيف أكثر مما هو معتاد، يقومون بوضع الأكل على (البواري) *.

ولنادي أو مضيف المنتفق، أدب ومزايا جليلة، ما زالت نوادي عمائر المنتفق مطبوعة بطابعها، ذلك الطابع الذي جعلها تمتاز عن سائر نوادي الريف العراقي [٦].

ولامير المنتفق في مخاطباته الرسمية والعشائرية ختم خاص، يضعه في يده اليسرى، مكون من الاحجار الكريمة وعليه اسمه الكامل [٧] ، وهو بمثابة (الختم) الذي يستعمل في وقتنا الحاضر. وتنقش عليه أحيانا عبارات أضافية، فختم – ناصر باشا – مكتوب عليه (عبد الله ناصر السعدون) وله كذلك (السيد ناصر السعدون).

وقد كان أمراء المنتفق وعشائرهم أول الأمر، غير مستقرين في مكان واحد، بل ينتقلون على عادة البدو من مكان إلى أخر، وكذلك كان يفعل التجار الذين ينقلون بضائعهم في سوق متحرك مع تحرك القبائل، واستمر ذلك طويلا، حتى قرر التجار الإقامة في مكان ثابت عام ١٧٦١م، واختاروا موضعا على ضفة نهر الفرات اليمنى، يسمى "سوق النواشي" الذي ابدل اسمه فيما بعد إلى (سوق الشيوخ)[٨]. لكن فيما بعد، ظل أمراء آل السعدون بدواً رحلاً.

---

* البواري: مفردها "بارية" وهي تصنع من القصب بعد جفافه، وتستعمل في الريف كإحدى مواد البناء في البيوت الريفية، أو تفرش على الأرض للجلوس عليها.

(٦) علي الشرقي – الالواح .... مصدر سابق، ص٨٧.

(٧) الرحالة جاكسون – مصدر سابق – ص٤٧.

(٨) وزارة الاعلام – المجلد الثاني – مصدر سابق – ص٢٤٦.

ولم يتخلوا عن الطابع المميز لهم [٩]، في حين استقرت قبائلهم، مما أوجد هوة بينهم وبين محكوميهم في اللهجة واللبس والتعامل وكل شيء.

والبعض يصف امراء المنتفق انهم من المحاربين الرحل، الذين لم تربطهم مع عشائرهم – رابطة الدم – وهي أبرز بدايات الانشقاق الاجتماعي داخل اتحاد المنتفق [١٠] .

ولذلك شاع المثل الشعبي القائل (ما يخش جوه سكف منتفجي) لان آل السعدون يسكنون بيوت الشعر، واي سقف ثابت يحد من حريتهم ويؤثر في مزاجهم البدوي، حيث يؤثرون الانطلاق والتفسح في الارض [١١].

وشهدت إمارة المنتفق ثلاثة مواقع لما يمكن ان نسميه بالعاصمة، كان الاول (العرجا) والذي شهد أطول فترة كمكان لعاصمة الإمارة، أما الموقع الثاني فقد كان مدينة (سوق الشيوخ) حيث استمر فيها موقع الإمارة المركزي، حتى تأسيس مدينة (الناصرية) عام ١٨٦٩م. وبعد سقوط الإمارة، وظهور سعدون باشا، كمركز قيادي بديل عن الإمارة ابتداء منذ عام ١٨٩٢م فقد اتخذ لفترة من (الخميسية) مقرا رئيسيا لمشيخته، تلك المدينة التي أسسها (عبدالله بن خميس) بعد غرق مدينة سوق الشيوخ، أثر فيضان نهر الفرات وهجرة ساكنيها لاماكن متعددة[١٢].

وهنا لا بد من التنويه إلى أن تماسك المنتفق واستمرار إمارتهم لفترة طويلة بالقياس الى غيرها من الإمارات، قد ولد تجربة غنية مليئة بالتراكم الكمي والنوعي

---

(٩) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص٦٨.

(١٠) حنا بطاطو – مصدر سابق – ص٩٧.

(١١) عبد الرحمن التكريتي – جمهرة الامثال البغدادية – ج٥ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٦ – ص٤٧.

(١٢) وزارة الاعلام – المجلد الاول – مصدر سابق – ص٤٣٠

على مستوى الأداء أو على مستوى البدائل، وبشكل خاص في جانب الابتعاد كليا عن التبعية المطلقة لأي كان. هذا الأمر جعل من موقع – الأمير – شكلا قياديا بارزا، ولذلك فقد أصبح الاعتراف بزعامة "ال شبيب" على قبائل المنتفق هو الأساس في ديمومة هذا الاتحاد القبائلي والقاسم المشترك لجميع المنضوين تحت لوائه (١٣).

الجيش

وفيم يخص ما يمكن ان نسميه بالمؤسسات، فأهم هذه المؤسسات، هو، الجيش. وكان جيش المنتفق من الجيوش المهابة التي يتجنب الجميع الاصطدام به، بما فيها الدولة العثمانية، وقد مرت بنا العديد من المواجهات التي تمكنت فيها المنتفق من اجبار الدولة "العلية" على تجرع المرارة فيها. بل ان جيش المنتفق في فترات عديدة، كان المعادل لجيوش بعض الدول، وهذا الجيش دخل في العديد من المعارك مع دول كانت تحسب في حينه من ذوات المكانة الأولى في العالم مثل جيوش (العثمانيين، الفرس، الإنكليز)، ربح في أغلب مواجهاته معها، وخسر الاخرى، لكنه حتى في خساراته، كان يتهيأ لفعل قادم كبير.

وكان جيش المنتفق – قبل أن تدخله الأسلحة الحديثة – ينقسم الى قسمين: الأول: سلاح الخيالة او ما يسمونه بـ "الفرسان" والثاني: رجال المشاة. وقد اشتهرت المنتفق بسلاح الخيالة الذي حسم العديد من المعارك لصالحهم، أو الذي حماهم، حينما تنزل الهزيمة بهم، وكانت عادة أمراء المنتفق الاحتفاظ بعدد من الخيول مسرجة على الدوام، ومهيأة لأي خطر يحدث، كما كانت المنتفق تعنى عناية خاصة بالخيول، التي تكون في العادة جميلة في شكلها، خفيفة في وزنها وحركتها، جريئة في عدوها، قوية في قفزها، تتدلى ذيولها حتى قدميها الخلفيتين،

---

(١٣) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص٣٧.

لتضيف لجمالها جمالا، وكانوا يتجنبون ركوب الخيول غير الأصيلة، وأشهر قادة الخيالة لدى المنتفق (حمود الثامر، محمد العبد العزيز، علي الثامر، عجيل المحمد، فهد العلي، ناصر الأشقر، ثجيل بن خليف المالكي، عبد الهادي النصار، عجمي المنصور....) ولا بد من الإضافة هنا، إن المنتفق قد اقتنت أجود الخيول وأكثرها أصالة لأيام حروبهم، وبهذا حافظوا على بعض أصائل الخيول التي كادت تنقرض، ومن أشهر خيول المنتفق والتي حافظوا على سلالتها (كحيلة) و (كروش) و (النجمة) و (الصويتية) و (الحمدانية) و (الدهماء).

اما سلاح المشاة، فقد كان يكون أغلبية جيش المنتفق، وكان يتحمل ثقل المواجهة مع الأعداء، مهيئا اللحظة المناسبة لسلاح الخيالة في الانقضاض. وكان يوضع في مقدمة رجال المشاة، أشجع شجعان المنتفق، آخذين بنظر الاعتبار ان صدمة الجيش المقابل تكون في البداية شديدة، وذات وقع كبير. ومن قادة المشاة المشهورين في المنتفق (مغامس المانع، سعدون الكبير، تركي الاجودي، سعدون المنصور، ابنيه الروضان، الدويش بن وطبان، ابن عرمة، ثامر بن سعدون، حطحوط التلعة،........). وقد اضيفت قوات أخرى لجيش المنتفق، ابتداء منذ أيام إمارة – حمود الثامر – تسمى بقوات "المنجية" وهي ما يطلق عليها حاليا بالقوات الخاصة. وكانت تعطى إليها، أجود الأسلحة وأحسن الخيول، بحيث تتوافق ومهمتهم الخاصة بملاحقة القوات الهاربة أمامهم، أو البقاء في أخر الرتل للمدافعة عن الجيش أثناء انسحابه، وكان يختار لهذه القوات رجال أغلبهم من الشباب الذين يبحثون عن مغامرات الحرب، وأشهر قادة قوات – المنجية – في المنتفق (صالح الثامر، مشاري العبد الله، ذياب بن شحم، طعمة الروضان....).

اما سلاح المنتفق، فقد تطور تبعا لتقادم السنين، فقد كانت القبائل تضع سلاحها بنفسها، او بواسطة الصناع ممن يجيدون التعامل مع الحديد ومكوناته، لذلك كانت الأسلحة المستعملة أولا، هي (السيف، الرمح، الشلفة، عمود الحديد، ....الخ).

وبعد دخول "البنادق" الحديثة كعنصر أساسي في المعارك، فقد دأبت المنتفق الى حماية نفسها من خلال امتلاكها لهذه الأسلحة، ومعلوم فأن الدولة العثمانية كانت تحرم على غير الموظفين الحكوميين، امتلاك مثل هذه الأسلحة، الا أنها كانت غير قادرة على تنفيذ هذا القانون واحترامه من قبل أفراد القبائل.

وكانت أساليب امتلاك هذه الأسلحة، تأتي من مصدرين، أولهما: الغنائم التي تحصل عليها أثناء المعارك فيما بينها، أو فيما بينها وبين الدولة العثمانية، وثانيهما: تهريب السلاح اليها عن طريق الخليج العربي، وبشكل خاص من مسقط(١٤). وقد كانت إمارة المنتفق من أول الاتحادات القبائلية التي ادركت اهمية هذا السلاح، فبادرت الى اقتنائه وتملكه، خصوصا وأن طريق الخليج العربي، لم يكن بعيدا عنها. وقد كان فرسان المنتفق يأنفون في البداية من استخدام الأسلحة النارية ويعتبرونها دليل عجز، حتى قال (غالب العمر المشاري):

فخر النشامى بالجنا * والسيف مصقول الحديد

الماطلي ** ما به فخر حتى أمي ترمي من بعيد (١٥)

ولم تستعمل المنتفق المدافع في حروبها (عدا الحملات المشتركة مع الجيش العثماني، وهي قليلة جدا) لأنها تجهل تشغيلها، هذا غير وزنها الثقيل الذي يستوجب سحبها لمسافات طويلة، باستثناء المدافع التي حصل عليها، عجمي باشا،

---

(١٤) عباس العزاوي – تاريخ ..... ج ٨ – ص١٩٩.

* الجنا: تحريف لكمة "القنا" أي الرماح وقد استعملت "الجنا" على عادتهم في قلب القاف جيما في بعض مواضع الكلام.

** الماطلي: اسم كان يطلقونه على البندقية، وأظنه مأخوذا من اسم اول نوع من البنادق الحديثة التي دخلت عليهم وهو (مارتيني هنري)، فحرفوا (مارتيني) الى (ماطلي).

(١٥) يعقوب سركيس – ق٢- مصدر سابق – ص٣١١.

بعد معركة الشعيبة والتي تركها الجيش التركي بعد هزيمته، حيث تم سحبها حتى – الخميسية – وسلمت للقوات العثمانية [١٦].

اما خطط المعارك الحربية، فقد كان موقع المعركة هو الذي يفرض على المقاتلين خططهم، حيث بقي التقسيم القديم للجيش قائما من خلال أقسامه الموزعة على (الميمنة، الميسرة، القلب، المؤخرة). الا أن ذلك لا يعني إن التخطيط كان غائبا عن المنتفق، وكان أشهر من يضع خطط المعارك عندهم (مانع السخاء، ثامر بن سعدون الكبير، تويني العبد الله، حمود الثامر، ..... الخ).

وكانت أغلب خطط معاركهم وليدة التجربة والخبرة، وليست وليدة الدراسة، كما انهم في هذا الجانب، لم يستعينوا بالأجنبي، أو بمن هو خارج مجال "ديرتهم" وهذا ما يحسب لهم إيجابا، بحيث أنهم أوقعوا الهزائم بأعدائهم من ذوي النياشين والاوسمة وخريجي أرقى المعاهد العسكرية. أما إذا هزموا بشكل كبير أمام الدولة العثمانية، فقد كانت منطقة (حفر الباطن) المأوى الامين لهم، لحين ترتيب اوضاعهم مع السلطة [١٧] وحينما تجهز المنتفق جيشها لعدوها، فلم يكن أحد من القادرين على حمل السلاح يمتنع عن الالتحاق بالجيش، إلا لعذر مشروع ومقبول، خشية في ان يكون سبة على أهله لعدم التحاقه لأن الأغلبية العظمى من اهل "الديرة" هم مقاتلون. لذلك كان للبسالة العسكرية داخل المنتفق قيمة كبرى [١٨]، وكان المقاتلون البارزون يحتلون مرتبة متميزة، كذلك فقد كانت الزعامة السياسية لهذا الاتحاد، تميل إلى أن

---

(١٦) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٧٤.

(١٧) مخطوطة الاستاذ الدكتور كاظم السعيدي – عشائر المنتفك والأسرة السعدونية – والذي تكرم باطلاعنا عليها في داره في ١٩٩٤/١٢/١٥ ص٩ علما أنها كتبت عام ١٩٤١، كأحد مستلزمات التخرج من معهد المعلمين العالي.

(١٨) حنا بطاطو – مصدر سابق – ص٩٤.

تنتقل إلى شرعية امتلكت القدرة على ممارسة الحرب [١٩]. مضافا لهذا إن الإمارة لم تشهد تكنات عسكرية دائمة، بسبب إن "الديرة" كلها تؤلف تكنة تضم الرجال جميعا. [٢٠].

كما نجحت المنتفق في مرات عديدة في تحقيق التحشد وبقوات مضافة من القبائل والعشائر غير المنضوية تحت زعامتها، وهذا النجاح متأت من مشروعية السبب الذي بموجبه طلبت المنتفق من الاخرين مساندتها، لأن الأمر لا يخصها لوحدها، بقدر ما له علاقة بالوضع العام. وحدث ذلك أيام (مغامس المانع، وسعدون الكبير وعجمي المنصور). وهذا بلا شك نجاح مضاف لرسالة المنتفق في توضيح الخاص والعام في التحشدات الكبيرة التي تستلزمها الظروف التي استوجبتها.

وقد كانت وسائط النقل التي تنقل الجيش، إضافة الى الخيول، هي (الجمال). وفي هذا الجانب، اقتنت المنتفق أحسن وأجود الجمال، والتي يضرب بها المثل من قبل الاخرين مثل (العمانية) و (اليودية) ولان سكن المنتفق مطل على بادية الشامية، فقد كانت الجمال تلائم طريقة حياتهم لانها تتحمل مشاق وصعوبة الصحراء ووعورة الأرض والفيافي البعيدة، وحتى بعد تأسيس المراكز الثابتة للإمارة، فلم يقطع أهل المنتفق اهتمامهم بالجمال، وهذا بلا شك اتصال حرصوا عليه من الموروث من بداوتهم التي لم يفارقوها. وفي هذا الجانب فقد كان للمنتفق "وسمها" الخاص الذي توسم بها جمالها، وهو الوسم المعروف بـ (الشبيبية) وهو عبارة عن دائرة كاملة، يتقاطع في داخلها خطان على شكل علامة الضرب (×) المعروفة في علم الحساب. وجميع جمال المنتفق كانت توسم بهذه العلامة تمييزا عن بقية القبائل.

---

(١٩) عبد الكريم محمود غرايبة – مصدر سابق – ص١٦٣.

(٢٠) فاسيلييف – مصدر سابق – ص٣٧١.

وكان من المستلزمات الأخرى التي لها علاقة بالجيش، هو علـــم او رايـــة المنتفق، ففي بداية ترؤس "ال شبيب" على المنتفق، كانت راية (بنـــي مـــالك) هـــي المستعملة، لكن فيما بعد، جرى تطريز علم خاص بالمنتفق عموما، وهو المعـــروف بـــ (وارد). وهذه الراية عبارة عن قاعدة حمراء طولها (٣×٢متر) يتوسطها هـــلال وثلاثة (أنجم)، فالهلال يعني ال شبيب والانجم الثلاثة تعني العماير الثلاثـــة (بنـــي مالك، الأجود، بني سعيد). وقد أضاف سعدون باشا المنصور، بعد مشـــيخته علـــى راية المنتفق عبارة "منصور الله وارد" وكان مكان العبارة فـــوق الـــهلال والانجـــم الثلاثة. وكان لا يسمح لأحد غير منتفقي ان يحمل (وارد) إلا (ابراهيم أخو بدهـــة) الذي كان يرفعه طيلة أيام سعدون باشا وعجمي باشا، وإبراهيـــم، هـــذا، مطـــيري، عاش وتزوج ومات في المنتفق وكان من أشجع الناس. ولم تفقـــد المنتفـــق طيلـــة حروبها، رايتها، وما زال (وارد) موجودا لدى أحفاد سعدون باشا الموجودين فـــي البصرة.

اما تموين الجيش غذائيا، فقد كان من مهمة الأمير، الـــذي كـــان عليـــه ان يهيء مستلزمات أدوات الطبخ أثناء حملاتهم البعيدة، مع الأشخاص المعنيين بـــهذا الجانب، حيث يكون أحد "ازلامه" القريبين منه، مشرفا ومسؤولا عن هذا الأمر. كما ان غنائمهم تشكل مصدرا غذائيا أثناء حروبهم أو غزواتهم البعيدة.

أما التموين التسليحي، فقد كان أيضا من مسؤوليات الأمير، الذي يحـــرص اشد الحرص على أن يقتني جيشه أحدث الأسلحة وأمضاها، ولذلك كـــانت غنـــائم الأسلحة أثناء المعارك من الغنائم التي لا تقسم، إنما تبقى محفوظـــة عنـــد الأمـــير، وتستعمل في معاركهم أو حروبهم ضد الأعداء. وبعد شيوع استعمال "البندقية" فقـــد نشطت المنتفق أسواق الكويت ومسقط، لحاجتها لهذا الســـلاح الـــذي توفـــره هـــذه المنافذ.

ظواهر اجتماعية

إن ظاهرة الترحال وعدم الاستقرار، ظلت إحدى سمات قيادة هذه الإمـــارة، وان كانت أشكال التحضر التي اقتبست من الأتراك، قد خففت هذه الحالة، وان لـــم تقض عليها، وبتقديري ان هذه الظاهرة شكلت أحد ابرز الوجوه السلبية في طبيعـــة القيادة المطلوبة لهذه الإمارة، مع مجتمع عشائري بدأ يستقر وينتج ويتعـــامل مـــن خلال استقراره، في حين ظلت أغلب قياداته، رحالة، تجد في جو الصحراء نفســها، بعيدا عن ما يحيط بها من أشكال قد لا تتوافق ومزاجهم وذوقهم، مما ينعكس حتمـــا على طريقة تصريفهم للأمور، على ضوء عقليتين بدأت خطوطهما تتقاطع، إحداهما ذات شكل استقراري ثابت ينطبق عليـــه وصـــف المجتمـــع الزراعـــي – القبلـــي، والأخرى، عقلية جوالة تجد نفسها في الصحارى والبراري اللامحدودة.

وعليه فان البداوة ظلت لصيقة بقيادات الإمارة بشكل واضح، بحيـــث كـــان حب الصحراء لهذه القيادات، أشبه بالغريزة الإنسانية التي لا تقوى على مغالبته، بـل ان ظهور أمراء المنتفق في الوديان النهرية بشكل دائم، لم يكن يلاحظ قبل الحـــرب العالمية الاولى، لكونهم اتخذوا من الصحراء سكنا لهم مع إبلهم [٢١]. في حين بـدأت عشائرهم تنهل من المجتمع شبه الحضري الذي بدأت تستقر فيه، وبانت آثار التـــأثر على هذه العشائر واضحة، أكثر مما اثرت هي في تلك المجتمعات التي جاءت إليـــها وافدة من المجتمع الصحراوي.

ومن الظواهر ذات الشكل الاجتماعي المميز، والتـــي تلاحـــظ لحـــد الآن، ظاهرة اللهجة المختلفة بين أبناء آل السعدون وبين أبناء المنتفق، ففي الوقت الـــذي ظلت المرادفات والتوصيفات والتسميات البدوية، أحـــد ابـــرز ممـــيزات لهجـــة آل السعدون، فقد ابتعدت لهجة أبناء المنتفق عن هذا الجو، رغم كونها كـــانت تعيـــش

(٢١) حنا بطاطو – مصدر سابق – ص٩٢.

فيه، والسبب في ذلك متأت من حاجات ومفردات المجتمع الزراعي المستقر، عنها في المجتمع البدوي، زائدا ان الانفتاح والتعايش مع بيئات وأشكال اجتماعية أخرى، قد مارسته عشائر المنتفق جميعا مع ما يحيط بها، وتأثرت به وأثرت فيه، في حين ظل آل السعدون، بعيدين عن الاختلاط أو التأثر بالأنماط الاجتماعية الجديدة، حيث كانوا يبحثون دوما عن مكان صحراوي لسكناهم، بما يبعدهم عن السلطة الحكومية أو البيئات الاجتماعية التي تتقاطع وشكل حياتهم البدوية أو التي لا تتلائم ومزاجهم البدوي الذي ظل طابعا مميزا لهم.

كما شكل عدم الاختلاط الذي مارسه آل السعدون في القرن الأخير من حياة امارتهم مع عشائرهم جميعا، فيما يخص موضوع الزواج، من أبرز سمات التفكك الذي طبع وضع الإمارة في مراحل حياتها الأخيرة. وبنفس الوقت، فان عشائر المنتفق لم تشجع الزواج المختلط بين البيت الحاكم وعشائره، ولم اقف على السبب في ذلك الامر، ويخيل الي، إن افاق العقليتين التي تحدثنا عنها آنفا، كانتا حاضره في وضع الفرامل امام تقوية النسيج الداخلي للإمارة من خلال ظاهرة الزواج المختلط.

القضاء والعرف والتعددية

فيما يخص القضاء، فقد كانت مسؤولياته مناطة برجال دين ورعين ومعروفين بالعلم والنصيحة والرأي الجيد، وكانت أحكام الشرع المبنية على القرآن الكريم والسنة النبوية قطعية، وليس هناك من شخص أيا كان أن يتدخل فيها أو يعطلها. وكانت لرجال الدين منزلة محترمة وتقدير عال، كما إن امراء المنتفق كانوا يخصصون بعض الأراضي الزراعية لرجال الدين البارزين، تكون وارداتها خالصة لهم، لكي يجنبوهم الزلل في أحكام التسرع، تحت تأثير الحاجة.

وقد جاءت أول إشارة لمنصب القاضي في إمارة المنتفق أيـام – مغـامس المانع – حينما تولى القاضي (سلمان) تصديق اتفاق المنتفق مع الهولنديين، وبـراءة الحماية التي اعطيت للاباء الكرمليين في البصرة. وفيما بعد، فقد كان أغلب رجـال الدين الذين يتولون احكام "الشرع" من أراضي نجد او من منطقة الاحسـاء، حيـث درس الشيخ (عبد اللطيف بن محمد بن علي بن سلوم في سوق الشيوخ بعد ان طلبه امير المنتفق في حينه – عجيل أخو سعدى – عام ١٨٢٧م، والمذكور مـن قـرى منطقة السدير [٢٢]. وبعد تأسيس الناصرية عام ١٨٦٩م، واستقرار أجـهزة الدولـة الرسمية فيها، جرى تعيين السيد (عبد الباقي الآلوسي) نائبا لدائرة الشرع في اللـواء [٢٣]. ويوم اتخذت – الخميسية– مقرا للمشيخة بعد سقوط الإمارة، جـرى تأسـيس مدرسة تدرس فيها العلوم الدينية، كان يديرها الشيخ (علي بن عرفج) وبعد وفاتـه تولاها الشيخ العلامة (إبراهيم بن جاسر) قـاضي القصيـم وبريـده سـابقا، كمـا جرى بناء مسجد كبير للمدينة، وكل ذلك تم بجهود ودعم – فالح باشا بـن نـاصر الأشقر [٢٤] – الذي اناط لفترة طويلة مسـؤولية القضـاء للشـيخ (عبـد العزيـز المبارك). كما انه استقدم أثناء أدائه لفريضة الحج عام ١٨٧٩م عائلة السيد (احمـد المغربي) المالكية المذهب لإدارة الشرع في ديرة المنتفق، وقد ظلت هذه العائلة فـي الناصرية وتكاثرت ومن بقاياها اولئك الذين يحملون لقبي (المغربي والعـاني) [٢٥]. إضافة لهذا فقد أجمل ناصر الأشقر، الترحيب، بعائلة السيد (مرزاعلي) التي نزحـت نحو المنتفق من منطقة الكاظمية بعد مقتل أبيه، وطلبا للعيش الامن ومتأثرة بكـرم ال السعدون ورعايتهم للعلماء وتمسكهم بتلابيب الدين حيث اقطعـه مسـاحة مـن الأرض وبستان عامر، وهيأ له ظروفا معاشية جيدة وقربه كثيرا منه، ومـا زالـت

---

(٢٢) د. عبد الفتاح ابو علية – مصدر سابق – ص٣٠١ في الهامش.

(٢٣) عباس العزاوي – تاريخ .... ج٧ – ص٢٣٩.

(٢٤) وزارة الاعلام – المجلد الاول – مصدر سابق – ص٤٣٤.

(٢٥) مقابلة مع د. كاظم السعيدي في داره في ١٩٩٤/١٢/١٥.

المنطقة التي سكنتها هذه العائلة تسمى اليوم بمنطقة (الموامنة) وتكاثرت واختلطت هذه الأسرة مع أبناء المنتفق(٢٦).

ولا يفوتنا أن نشير في هذا الجانب، ان تطبيق الشرع، كان في أحيان كثيرة يصطدم بالعرف والتقاليد العشائرية والبدوية، ويمكننا أزاء ذلك أن نفترض ان تلك المجادلة، لم تحل لاحدهما، وتعطيه الأرجحية، بقدر ما ظلا متوازيين، أحيانا يشكلان عبأ وفي الأخرى قوة، بحيث كان للقضاء تنظيم إداري خاص ينطوي على جوانب قضائية وانتاجية اقتصادية، ينسجم مع ظرف كل عشيرة وتطورها الاجتماعي، وجغرافية واقتصاديات المنطقة التي تستقر فيها أو تتنقل بين أرجائها (٢٧).

أما النزاعات العشائرية داخل الاتحاد القبائلي، فأنها تحل من قبل شيخ المشايخ وبالتشاور مع رؤساء الأثلاث و (العوارف) من ذوي الخبرة والمعرفة من أبناء المنتفق، والذين يطلب رأيهم في بعض الأمور ذات الإشكالية الحادة، والتي يراعى فيها الجانبان، الديني والقبلي، وأحكام (العوارف) واجبة التنفيذ، لانها جرت بعلم الأمير ومجلس الاتحاد أو شخوصه الرئيسية. وأحيانا تستوجب هذه الاحكام، عقوبات مادية او جسدية، تنفذ على من تقع عليه.

ومن الأمور ذات الدلالات المهمة في حياة الإمارة، والتي تعمدنا أن نناقشها في هذا الباب، والتي نجحت فيها المنتفق بشكل جلي وواضح، ظاهرة التعدد المذهبي، التي تعايش معها أبناء المنتفق طيلة قرون، دون أن يشكل ذلك التعدد، أداة كبح لنمو تطلعات الإمارة، او ان يكون متكئا للانشقاق الداخلي والتمزق الذي قد يستعمله منافسوه ومعارضو الإمارة، وبلا شك ان وجود هذا التعدد المذهبي، وفي مجتمع قبلي، يؤثر التفاعل الإيجابي لأبناء الاتحاد مع أهدافهم العليا، دون الوقوف

---

(٢٦) عبد الجليل الطاهر – مصدر سابق – ص١٤٣.

(٢٧) جريدة القبس الدولي – مقال الاستاذ عبد اللطيف الشواف – مصدر سابق.

على الجزئيات المفرقة للوحدة. وقطعا إن نجاح مثل هذا الأمر، يؤكد صحة منـــاخ العقل البشري الذي تعايش مع مثل هذه الأسور وتفاعل معها بإيجابية، سواء كـــانوا قادة أم مقودين

وقد ظل إمراء المنتفق وقبائل الاتحاد البدوية على مذهب الجماعة، في حين بدأت عشائرهم المستقرة، تعتنق المذهب الجعفري، ولحد بدايات هذا القـــرن كـــانت الموازنة بين المذهبين متساوية [٢٨].

ونواجه بسؤال جدير بالملاحظة والتسجيل، لماذا لم يعتنق أمـــراء المنتفـــق المذهب الجعفري كحال عشائرهم، علما انهم بـــداؤا يســـتقرون وتكـــاد ان تصبـــح مساكنهم ثابتة؟ تقديري ان السبب في ذلك عائد لأمريـــن: الأول: إن آل الســـعدون، وبعد سقوط الإمارة، وجدوا ان قبول هـــذا الامـــر يقلـــل مـــن قيمـــهم المعنويـــة والاعتبارية، أمام عشائرهم، لإنهم في هذا الحالة أصبحوا تابعين وليس متبوعيـــن، في حين أن القول الشائع (ان الناس على دين ملوكها) مضافا إليه، ان البقاء على مـــا هو عليه، يشكل في ذهنهم اخر تراث من حالة الإمارة التي سقطت، وعليـــه فمـــن الوفاء لذلك التراث ان يبقى قادتها على حالهم، دون الحاجـــة لمتغـــيرات جديـــدة. والأمر الثاني: إن الطريقة الشائعة انذاك في طبيعة التحول للمذهب الجعفـــري قـــد رافقها حملة عدوانية، تصدرها رجال غير عرب، للنيل من بعض صحابة الرســـول (ص) مما يتقاطع وعقلية آل السعدون البدوية المتمسكة بـــالثوابت والتـــي الفوهـــا وعاشوا معها قرونا طويلة.

التعليم

وفيما يخص التعليم، فقد كان العام يطغي على الخاص، حيث كانت حصيلـــة المنتفق من التعليم، كحال مناطق العراق الأخرى والتي عاشت في دياجير الجـــهل

---

(٢٨) وزارة الاعلام – المجلد الاول ÷ مصدر سابق – ص٤٣٧.

فترة طويلة. وكانت هناك "مدارس" مناط أمر إدارتها والتعليم فيها ب "الملالي" نصف الأميين، والذي لا يخرج تعليمهم لطلبتهم عن حدود حفظ بعض سور القرآن الكريم، وحفظ الحروف العربية على طريقة السجع. ومن النادر أن ينهي المتعلم في هذه المدارس دراسته وهو قادر على الكتابة، وبلا شك ان ذلك ما هو إلا انعكاس للوضع العام.

وقد بدأ الاهتمام بالتعليم في العشر سنوات الأخيرة من حياة الامارة، حيث كان لجهود ناصر باشا الأشقر، بعد تأسيسه لمدينة الناصرية، القدح المعلى في هذا الجانب، حيث حرص على تأسيس مدرسه لتعليم الصغار، كما سهل لبعض أبناء شيوخ الامارة من أبناء الأثلاث، سفرهم لمراكز العلم في أستنبول وبغداد والنجف[29]. بعضهم استقر في أماكنه الجديدة والقليل منهم من عاد للمنتفق. كما مارست الدولة العثمانية سياسة الترغيب والترهيب أزاء أمراء المنتفق، حينما حبذت لهم إرسال ابنائهم للدراسة في أستنبول بعد أن أسست ما سمي في حينه (مكتب العشيرة) والخاص بقبول أبناء العشائر العربية فيه، ويقع تحت إشراف السلطان ومتابعته [30]، غرضها المعلن في ذلك رعاية مواطنيها، في حين كانت حقيقة هذه السياسة، جعل هؤلاء الابناء "رهائن" لديها، تحسبا من ثورات المنتفق بوجههم.

وقد جرى الاكثار من إرسال الأبناء للدراسة بعد سقوط الإمارة عام ١٨٨١م، خصوصا بعد ظهور – سعدون باشا المنصور – كثائر بوجه السلطة العثمانية، وكل من يعرقل مسعاه بإعادة مجد الإمارة، حيث جرت تسهيلات كثيرة من قبل سلطات أستنبول، غرضها من ذلك، الاكثار من وجود "الرهائن" تحت نفوذ سلطتها ومع كل العثرات المعطلة للتقدم في هذا الجانب، فقد ساهم أمراء المنتفق في ترويج العلم والثقافة والوعي العام للناس، من خلال تكريم رجال العلم والشعراء

---

(٢٩) لقاء مع د. كاظم السعيدي –بغداد ١٥/١٢/١٩٩٤.

(٣٠) جريدة الزوراء – السنة (٢٤) العدد (١٥١٦) في (٢ذي الحجة ١٣٠٩هـ).

ومعلمي طلبة العلم [٣١]. ولم تحظ نساء المنتفق بأي جهد في مجال التعليم، لأسباب اجتماعية معروفة في حينها، وكان عدد من جرى تدريسهن واحفاظهن القرآن، على يد بعض (الملايات) قليلا جدا، وتحديدا كان هذا التعليم مقصورا على بعض العوائل. ولم يشيع او يسمح له بالانتشار، وبعض أسبابه اقتصادي، حيث تشارك المرأة، زوجها وأهلها في العمل في الحقل او في البستان او المرعى، هذا غير واجباتها البيتية التي تقف في مقدمتها، رعاية صغارها وحفظهم، لان زوجها – في اغلب الأحيان – مشارك في غزوات المنتفق، أو إنه مشغول في التهيؤ والاستعداد من غارات الأعداء.

كما اهتمت المنتفق بالادب عموما، وبالشعر خصوصا، بحيث كان كثيرون في ديرة المنتفق ينظمون الشعر، مما رفع من مكانة اللغة وحببها للسامع، حيث تشتهر بادية المنتفق بأن لها لغة ممتازة في الريف العراقي، وأسلوبها يقتدى به غاية في الأدب الريفي العراقي [٣٢]. ويذكر في هذا الجانب مدى تعلق أمراء المنتفق وذويهم بالشعر، ان ناصر باشا الأشقر، استعرض يوما في ديوانه، عن مواطنيه ومن لا ينظم الشعر منهم، فقيل له عن شخصين عازفين عن قول الشعر او غنائه، فأستدعاهم وخيرهم بين الرحيل، او البقاء في المنتفق ان قالوا الشعر او رددوه، ومن يومها ظهر طور (الصبي) المعروف في الغناء الريفي والذي ينسب الى (رومي الشعلان) [٣٣].

---

(٣١) د. علي الوردي – لمحات .... ج١ – ص٣١٢.

(٣٢) علي الشرفي – الالواح..... ق ١– مصدر سابق – ص١١٧.

(٣٣) رسالة للمؤلف من الاساتذة (جاسم الياسري وثامر العامري) معدي ومقدمي برنامج (الوان من الريف) التلفزيوني – بغداد ايلول ١٩٩٥.

الحرف والصناعات اليدوية

أما الحرف والصناعات اليدوية، فقد كـــانت محصـــورة، بحاجـــة البـــدوي واهتماماته، وأشهر ما في هذا الجانب، إن مدينة سوق الشيوخ متميزة فـــي حياكـــة الاعبئة المخططة المعروفة عند البدو بالاعبئة الشيخلية [٣٤]. كما إن أهل "الديـــــرة" معروفون بحياكة ونسج "البسط" و "السجاد" المستعملة في الدواوين والبيوت – ولـــم تشهد الإمارة طيلة أيام وجودها، وحتى بعد تأسيس المراكز الثابتة، معامل إنتاجيـــة أو مكائن خدمية، وحتى طحن الحبوب، فأنه يجري بـــ "الرحا" التـــي تـــدار بـــاليد، وهذا كما نرى متأت من حركة التطور العام التي كان عليها العراق انذاك.

ولم يكن للإمارة، بريد منتظم، كما هو الحال في وقتنا الحاضر، وكان بريـــد الإمارة، الأشخاص، ولكل المستويات، ابتداء من السلطان نزولا لادنى الدرجـــات، وكان بريدهم الشخصي مثلما يحمل رسالة للمعني بها، فهو لديه تصور كامل عمـــا أرسل بموجبه، حيث يحاول أن يشرح مهمته ويعلق على طلباته، ويقـــترح ويلغـــي وينظم، أي ان الرسالة المكتوبة ليست هي كل شيء، إنما حاملها هو الأســـاس فـــي التوضيح والاضافة وقطعا إن المرسل يجب أن يمتلك الكثير من المواصفات التـــي تجعله قادرا على إفهام ومخاطبة أعلى المستويات او أدناها، والحصول على ما يفيـد ويدعم مرسله، وانجاح مسعاه الذي جاء من أجله، وفيما بعد، دخلـــت المخترعـــات الجديدة لأرض العراق، فجرت المفاوضة لمد السلك البرقي بين البصـــرة وبغـــداد، حيث جرى نصبه في ١٨٦٥/١/٢٨ أثناء امارة فهد باشا العلي [٣٥]. وهـــذا الســـلك كثيرا ما تعرض للقطع الدائم لانه في تقدير أبناء المنتفق كان "عينا" عليـــهم، يخـــبر السلطات بتحركهم بأسرع مما أعتادوه، مما يوقعهم في الإرباك نتيجة تحرك السلطة السريع نحوهم.

(٣٤) وزارة الاعلام – المجلد الثاني – مصدر سابق – ص٢٥٠.

(٣٥) م. ص. مخ – رقم الملف (٦٦٧٠).

النواحي الاجتماعية والصحية والاقتصادية:

هذا الجانب فيه الكثير من النشاطات التي كانت تتحرك فيها ومن خلالها المكونات الاجتماعية والحياتية للإمارة، بحيث يمكننا القول، ان ما تكلمنا عنه في هذا الباب، لا يغطي كامل النشاط الذي يحيط بأوجهه المتعددة.

ففيما يخص البناء والتشييد، فقد كانت – العرجا – المركز الأول للإمارة، حيث كان الجميع يبنون بيوتهم بأنفسهم، وبوسائل وإمكانات بدائية، لأن وجودهم مؤقت قياسا بتواجدهم الكثير في بادية الشامية، وبعد تحول المركز الى سوق الشيوخ، بدأت تظهر لأول مرة، البيوت المبنية من اللبن، عكس ما كان في – العرجا – من بيوت الطين والقصب وبيوت الشعر. وبعد بناء الناصرية، فقد اقيم سراي فخم للحكومة، وجرى تخطيط شوارعها وفق تخطيط معماري عصري وضعه المهندس البلجيكي – جولس تيلي – كما تبرع أمير المنتفق في حينه، ناصر الأشقر، لاكمال بناء المدينة بـ (٨٥٠) كيسا، أي ما يساوي (٤٢٥٠) ليرة ذهب، كما أنه تبرع بما يقارب الألف ليرة، لإنشاء جسر من القوارب يربط المدينة بالجانب الآخر من النهر [٣٦]. لذلك فالاهتمام الكبير بالبناء والتشييد، قد بدأ مع أيام الاشقر، خصوصا أن الإمارة تحولت الى متصرفية، وأمراؤها الى متصرفين، مما جعل الناصرية، مركزا للإمارة وللمتصرفية في آن واحد، وبسلطات قبلية ورسمية كذلك.

ولقد كان أغلب الناس في الإمارة يمتلكون قطعانا من المواشي والأغنام والجمال، يسوقونها صباحا نحو شاطيء النهر أو حواليه، لما يتوفر لديهم من مراعي قربها، والناس يمتعون انفسهم عادة بالاستحمام في النهر، اذ تتهيأ لهم هنا الفرصة للاستحمام ما بين خمس وست مرات يوميا، وتكون عودة قطعان الماشية

---

(٣٦) د. علي الوردي – لمحات.... ج٢ – ص٢٥٢.

والجمال الى القرى عند المغيب (٣٧). وينقل – جاكسون – مشاهداته عن طريقة صنع الخبز، من قبل المرأة العربية وحذقها في هذا الجانب. ويؤكد أن صنع الخبز هنا، يستهلك نصف الوقود الذي يتطلبه صنع الخبز في أوروبا، وقد لاحظ، سوق الشيوخ، مدينة واسعة ومأهولة بالسكان، وهي مقر إمارة المنتفق (٣٨).

أما الجانب الصحي، فرغم أن الأمراض المتعددة التي شاعت في العراق، والتي فتكت بالالاف من الناس، الا أن الصحراء والجو الجيد والظروف الصعبة، قد منحت اهل المنتفق قوة بدنية عالية، مكنتهم من تحمل المشاق اكثر من غيرهم(٣٩). وقد كان معالجو اهل المنتفق من مختلف الأمراض التي تمر بهم، مجموعة من "الصلبة" * الذين اجتهدوا في هذا الجانب من خلال الادوية التي يصنعوها من الأعشاب البرية، ولم تشهد "الديرة" مستشفيات او اطباء متخصصين، وكانت أغلب علاجاتهم تتم بطريقة "الكي".

وكانت أراضي المنتفق، تجمع بين التحضر والبداوة لذلك فقد كانت نشاطاتها التجارية، تستوجب الى حد ما، مراعاة ذوق وحاجات وطلبات الفئتين، وان أمكن موائمة الامزجه وتوظيفها خدمة للصالح العام. حيث كانت الغزوات العشائرية تؤلف المرحلة الأولى من التجارة في البلدات العشائرية، وقد لعبت سوق الشيوخ، دورا بارزا في الجمع بين التجارة والمغيرين، او في تحويل المغيرين الى تجار. وفي القرن التاسع عشر، لم يكن هناك في كل منطقة الفرات الادنى، تجار

---

(٣٧) الرحالة جاكسون – مصدر سابق – ص٢٣.

(٣٨) المصدر اعلاه – ص٤٥.

(٣٩) كارستن ينبور – مصدر سابق – ص٣٥.

* مجموعة من الناس، يرى البعض انهم من بقايا الحملات الصليبية، ويرى اخرون انهم من بقايا خيبر. أدل الناس للصحراء ولمواقع العشب والماء فيها. كثيرو الحركة بين بوادي نجد والعراق والشام، وليس لهم موقع ثابت.

أغنى من تجار سوق الشيوخ، وقد ساعد البلدة في هذا الجانب، موقعها كبوابة لوادي الفرات وللصحراء الجنوبية – الغربية، ومناعتها من دفع الضرائب نتيجة الوضع الاستقلالي للإمارة بشكل عام (٤٠).

كما كانت مدينة سوق الشيوخ، تشهد طيلة أيام السنة، نشاطا تجاريا واسعا، مستفيدة بذلك من اطلالتها على نهر الفرات ومرور السفن فيه للتبادل التجاري، حيث كانت المنتفق تصدر او يشترى من أسواقها الحبوب، كالأرز والشعير والذرة، وكذلك الملبوسات وأنواع الأقمشة، خصوصا من قبل قبائل البدو، وبنفس الوقت فهي مفتوحة لكل مصدر لها من قبل أسواق البصرة او بغداد.

وكانت سوق الشيوخ ومن بعدها الناصرية والخميسية، المراكز الاساسية لتموين ديار شمال نجد حيث كانت القبائل تترى عليها، لشراء ما تحتاجه وترغب باقتنائه، حتى في موضوع شراء السلاح (٤١). بحيث كانت "الديرة" المخزن الاساسي لقبائل شمال نجد وحائل، لان ما توفره أفضل وأرخص مما يبحث عنه النجديون في المدينة المنورة أو مدن نجد الاخرى (٤٢). واذا اقفلت المنتفق طرقها بوجه أحد فيما يخص التبادل التجاري مثلما فعل سعدون باشا المنصور، أثناء فترة خصامه مع أمير حائل عبد العزيز بن متعب الرشيد، يكون الأثر السلبي أكثر وضوحا عند الآخرين، أكثر مما هو واضح لدى أهل المنتفق (٤٣).

وقد زار السائح الانكليزي – بارسونز – مضارب امير المنتفق عام ١٧٧٤م، ووصف معسكره الكبير ومقاتليه العديدين، هذا غير توفر كل مواد

---

(٤٠) حنا بطاطو – مصدر سابق – ص٣٢٣.

(٤١) وزارة الاعلام – المجلد الاول – مصدر سابق – ص٤٣٧.

(٤٢) الليدي ان بلنت – رحلة الى بلاد نجد – ترجمة محمد انعم غالب – منشورات دار اليمامة – ط١ – الرياض ١٩٦٧ – ص٢٠٨.

(٤٣) النبهاني – مصدر سابق – ص٤٥١.

الامدادات والتموينات المطلوبة. كما أشار إلى امتلاك القبيلة أجمل الخيول الأصلية وكلاب الصيد والصقور، بل حتى بعض الحيوانات النادرة كزوج من النعام الداجن.[٤٤]

وقد استفادت المنتفق في موضوع تبادلها التجاري - أيام زهوها - من اطلالتها على انهر دجلة والفرات والغراف مما جنب ابناء المنتفق أن يشهدوا مجاعة واحدة من مجاعات العراق المتعددة خلال تلك الفترة. وكانت الأنشطة التجارية التي تتم بين المنتفق والآخرين، بعضها يتم عن طريق المقايضة، وبعضها يتم عن طريق التبادل النقدي، وبهذا الجانب، فقد كانت النقود العثمانية والفارسية، والهندية والإنكليزية في فتراتها المتأخرة، مستعملة في التبادل التجاري. في حين كانت الأوزان المستعملة في الامارة، متعددة وغير موحدة، حيث كان يستعمل وزن (الطغار) و (الوزنة) و (المن) و (الاوقية) [٤٥]، وكما أظن إن استعمالات غير موحدة تعني تفتتا اقتصاديا كامنا، غير قادر على التطور والانفتاح نحو الأحسن.

وقد شهدت حركة التبادل التجاري بين المنتفق والآخرين انتعاشا، بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م، وما رافق هذا الحدث من تحول اجتماعي كبير، بتحول امراء المنتفق الى (ملاك اراض) وتحول رؤساء عشائرها إلى (سراكيل)، و(وكلاء).

ولأن الأغلبية من أهل المنتفق يجوبون بادية الشامية أثناء فترة الشتاء والربيع، فقد كان المصدر المائي الذي يتوفر لهم في هذه البادية، يأتي من خلال حفر الأبار في مناطق (شقراء، غنما، أم عريش، دافنة، نبعة، أبو غار) بعضها يتدفق من الماء بعد حفر امتار قليلة، كما في منطقة "أبي غار" وبعضها يستوجب الحفر لاعماق كثيرة، كما في المناطق الاخرى، لكونها مناطق صخرية، حيث

---

(٤٤) Parsons – op. Cit., P. 112.

يستغرق حفر البئر مدة ليست بالقصيرة، والناظر للابار يجدها محاطـة بـالصخور منذ فتحة البداية حتى النقطة التي يتدفق منها الماء، وعلى شكل لولبـي، اما فـي الاوقات الأخرى، فان الأنهر الجارية في أراضي الإمارة، توفـر حاجتـها المائيـة بكافة اشكالها، وبهذا الجانب، فقد أوجز الرحالة – جاكسون – رأي سـكان مدينـة سوق الشيوخ، أثناء زيارته لهم، والذين يرون أنفسهم من نهر الفرات، بأن ماء هـذا النهر، الذماء في الدنيا [٤٦].

كما إن المنتفق، تطل على العديد من الأهوار التـي يسـتفاد مـن ثروتـها السمكية كغذاء، ومن نباتات البردي والقصب، والتي تستعمل بكثرة في بناء البيـوت وتسقيفها.

ولقد كانت أراضي المنتفق عموماً، مليئة بالنشاط الزراعي، خصوصاً أنـها لا تشكو من شحة مائية. وكانت أهم المحصولات التي يجري الاهتمـام بـها هـي (الحنطة، الشعير، الرز، الذرة) وبنفس الوقـت، فقـد أهملـت لحـد مـا زراعـة الخضروات في داخل "ديرة" المنتفق، لأن هذا النشاط كان في رأيهم من الأنشـطة المعيبة، إلا أنه فيما بعد، نزحت إليهم بعض العشائر من منطقة الإحسـاء، والتـي كانت مجيدة في هذا الجانب، فاجتهدت في زراعة هذه المحاصيل وطورت بعـض أنواعها، وجلبت معها بعض جديدها. ومن الأعشاب البريـة التـي يتناولـها أهـل المنتفق بشكل واسع (الطرطيع، الشفلح، الحندكوك، رشاد البر، الخبـاز، الأفطـر، الكمأة، ....).

كما تكثر في المنتفق بساتين النخيل، وفي هذا النشاط، فقد عمّر أمـراء آل السعدون، الكثير من الأراضي واستزرعوها، وطوروا أنواع الإنتاج، حيث جـرى زرع أنواع نادرة منها في العراق، وحوفظ على بقية الأصنـاف، مثـل (القنطـار،

---

(٤٦) الرحالة جاكسون – مصدرسابق – ص٤٩.

البرحي، البريم، الليلوي، الخضراوي، الحلاوي، الخستاوي، ...) كان بعض الإنتاج يذهب للتصدير، خصوصا إلى الهند وإيران. وكانت أشهر أماكن زراعة هذه الأصناف في مناطق (المعامر، الدواسر، المطوعة، الأزريجي، مزيرعة، جزيرة الصقر، ...الخ).

الأزياء

الزي الغالب في أراضي المنتفق، هو الزي العربي، ففيما يخص الرجال، فإن لباسهم هو الملابس العربية المكونة من ثوب "أبوردان" ثم ظهر "الزبون"[٤٧] ويرتدي فوقه "دميري" أو "الفروة" شتاءا ويرتدون عباءة خفيفة صيفا، تسمى لدى البعض "البشت" والمشهور عند المنتفق العباءة المسماة بـ (السعدونية) التي تكون مخططة بخطوط عريضة بيضاء وسوداءه وشعري.[٤٨]

أما شتاء، فاللباس يكون أثقل، وفوقه العباءة المصنوعة من غزل وبر الإبل. أما غطاء الرأس، فهو إما كوفية حمراء منقطة بالأبيض وإما كوفية بيضاء منقطة بالأسود، يعلوها عقال (أبو طيتين) أو (المقصب) ثم جاء في فترة لاحقة العقال الأسود بأنواعه وأشكاله المختلفة. وعادة أهل المنتفق، أن يميل عقالهم لجهة اليسار قليلا، تمييزا عن لباس القبائل الأخرى، ولذلك قال شاعرهم متفاخرا:

(درب إبغداد انكطع

كطعته الخياله

---

(٤٧) د. وليد الجادر – الأزياء الشعبية في العراق – دار الشؤون الثقافية – بغداد ١٩٨٩ – ص ٤٧.

(٤٨) المصدر السابق – ص ٦٢.

أهل الجفافي الحمر

والعكل مياله)[٤٩]

أما ملابس النساء، فالجميع يرتدن الملابس المحتشمة، فكبيرات السن يرتدن (الدشداشة) ذات الألوان الهادئة، ويغلب اللون الأزرق أو الأسود على ملابسهن، يعلوها ثوب (مسرح) أو (الهاشمي)، وهو عبارة عن ثوب من قماش رقيق جدا يكون واسع الأكمام والأطراف، حيث يزيد المرأة جلالا ويملؤها هيبة.[٥٠] أما فوق الرأس فهناك (الشيلة) أو (الوبرية) وباللون الأسود غالبا، أما ما يغطي الوجه للبعض أثناء خروجهن، فهناك (الخمار). وعلى المرأة أن تلبس (البشت) ذا الألوان المختلفة، ولم تعرف (العباءة) إلا فترات متأخرة جدا. وتلف المرأة العاملة في الحقل، ساقيها حتى الركبة بقطعة من القماش الأبيض تسمى (اللفاف) لكي يقيها من الأذى في الحقول. أما الشابات والمتزوجات حديثا، فيرتدن أجمل أنواع البدلات، وتكون على هيئة (دشداشة) وفوقها (الهاشمي) الملون، ويغطي الرأس بوشاح أبيض، وفوقه (الوبرية) الخفيفة والملونة والمصنوعة من الحرير الطبيعي. أما أدوات المكياج المستعملة فهي (الديرم، الكحل، الحرمل، المسج، الحنة، الطين خاوه، البخور، السعد، الزباد، .....الخ). وكانت نساء العوائل المتمكنة وكذلك الشابات يتقلدن العديد من مصوغات الذهب مثل (الكرديلة، التراجي، المحابس، الخزامة، الجنكال، الملاوي، الحجل، العران، ....الخ).

الزواج

أما مراسيم الخطبة والزواج المألوفة في ديار المنتفق، فهي مشابهة لما هو معتاد عليه في المجتمع العراقي في حينه، ولذلك كانت الكثير من الزيجات غير

---

(٤٩) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

(٥٠) د. وليد الجادر – مصدر سابق – ص ٣٢.

موفقة، لاعتماد الرأي في الخطبة والزواج على الأم والأخت. كما كانت ظاهرة تعدد الزوجات شائعة في المنتفق، وهذا يعني في بعض أوجهه رفاهها اقتصاديا. وكانت مراسيم الزواج، مناسبة فرح للجميع، عليهم الاشتراك فيها والمساهمة في تغطية نفقاتها، وهو بلا شك وجه من أوجه التكافل الاجتماعي السائد بين أبناء "الديرة". وكان مهر الزواج السائد عند المنتفقين، خصوصا مع أبناء العم قليلا، تأكيدا على فهم أهمية الزواج وتكوين الأسرة.

ولقد حرص جميع أمراء "آل شبيب" على الزواج من البيوتات العريقة، المشهورة بأصالة النسب والشجاعة والكرم والخلق العالي. وفي مثال – ثامر بن سعدون – دليلا على ذلك التصرف المقرون ببعد النظر. شيء آخر لا بد من إدراجه، إن الأمراء والمشايخ الأواخر في حياة الإمارة، أكثروا من الزواج، بحدود غير مقبولة في الوسط القبلي المستقر، حيث يشير بعض الرواة الثقات، أن – فالح باشا بن ناصر الأشقر – قد تزوج (١٥٠) امرأة بالتتابع!!! وفعل غيره ذلك، لكن بالتأكيد ليس بنفس الحجم، ولذلك أجد، أن كثرة هذه الزيجات كانت أحد أسباب سقوط الإمارة، لأن ما حدث في هذا الجانب، أشبهه بما حدث في حياة إمارات الطوائف في الأندلس، حينما أطلقوا العنان لشهواتهم وتركوا أعنة الخيل، فحدث ما حدث.

و"آل شبيب" يمانعون أشد الممانعة في تزويج بناتهم لأي طالب نسب، حتى وإن كان من أكبر أشراف العرب، هذا إذا كانت البنت "سعدونية" محضة، أما إذا كانت أمها من خارج العائلة فلا يتشددون في المنع، على شرط أن يكون طالب النسب معروفا بالحسب والنسب، والأمثلة في هذا الجانب كثيرة، بل أن بعضه عاصرناه، وسمعنا أحداثه من شهوده الرئيسيين ولقد كانت المنتفق، وما زالت، متمسكة بالتقاليد العربية الكريمة، فيما يخص الكرم والشجاعة والشهامة والتصرف السليم، مؤكدين أهمية الحفاظ على السجايا العربية الطيبة والمؤثرة،

والحرص على تقاليد العرب وحسن تصرفهم، بحيث كان نادي المنتفق في هيبته وكرمه وما يطرح فيه من نقاشات مثلا لكل العماير الأخرى،[٥١] ومن هذا النادي ودواوين المنتفق الأخرى، ظهر العديد من الرجال الذي طبعوا بصماتهم على تاريخ العراق الحديث والمعاصر، وأثروا فيه بشكل واضح.

الموالي

لقد كان لبعض رجال أمير المنتفق وتابعيه، وضعية خاصة، وأمر مطاع، حتى من بيت الإمارة، وهذا متأت من شخصية ذلك المرافق وطبيعة مهامه، ولعل في مثل (حسين المفتاح) أيام إمارة حمود الثامر وولديه ماجد وفيصل، أبرز الأمثلة، فهو قاتل أمير المنتفق، عجيل بن محمد، بأمر من ماجد بن حمود الثامر، وهو الذي يخاطبه (نجم العبد الله) بقصيدته المشهورة:

يحسين ديران الرفاكة مريفه

وإنه بديران الغرب جني عله نار

حينما أساء أمير زبير، جواره وخفر ذمامه، مما تطلب أن يذهب جيش المنتفق وأميره حمود الثامر، حتى ديار زبير، نجدة وحمية ل – نجم العبد الله ،[٥٢] وهو الذي يشكل موته نكسة في تاريخ الإمارة، حينما تم تحويل الأمراء الحاكمين من أولاد عمه – حمود – لأولاد – محمد الثامر –. وكذلك الأمر، مع أمثلة أخرى، مثل (عليج أبو حمرة) أيام إمارة فهد العلي، و(محمد العفراوي) أيام إمارة الأشقر وولده فالح. وقد لعب هؤلاء الرجال، وآخرون غيرهم، دورا مهما في تسيير شؤون الإمارة، أو في إدارة الصراعات الداخلية بين أفراد أسرة "آل شبيب" أو في الصراعات الخارجية مع الدولة العثمانية بالذات.

---

(٥١) علي الشرقي – الألواح ... ق ١ – ص ٨٨.

(٥٢) مخطوطة للمؤلف "حكايات عن المنتفق".

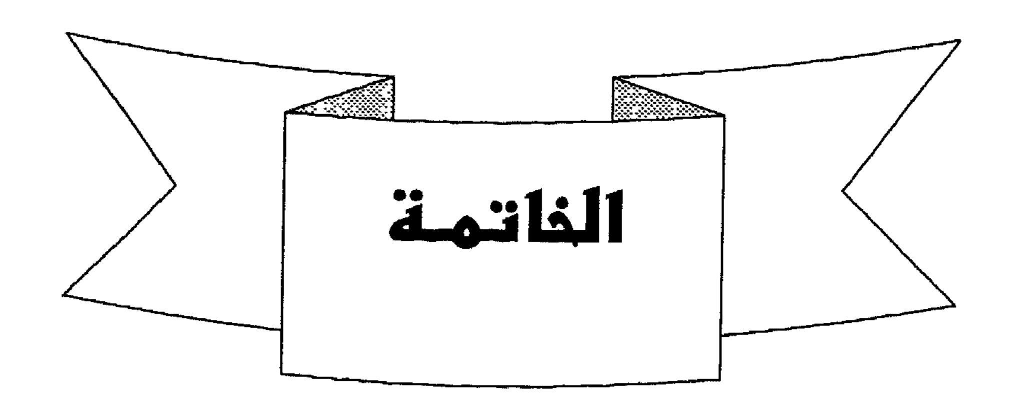
وفي هذا الجانب، لا بد من الإشارة إلى أن التنافس الداخلي بين أسرة آل شبيب، على الزعامة، قد اتخذ بعد مقتل الأمير – ثامر بن سعدون الكبير – شكلا حادا أو دمويا، سبب الكثير من المآسي والآلام بين أبناء العمومة الواحدة، تهدمت بسببه صروحا كثيرة من قوة الإمارة وصلابتها، بحيث سهل على الدولة العثمانية، أن تضربها من الداخل وفي مناطقها الرخوة. وكان هذا الصراع وهذه المطامع، أكثر الأسباب فعلا في سقوط الإمارة عسكريا في عام ١٨٨١م.

منشه

بعد قرار الدولة العثمانية، بضرورة تطبيق سياسة السيطرة المركزية على كافة إقليم الامبراطورية، فقد صارعت المنتفق الدولة لوحدها، زهاء نصف قرن، بعد أن اتضح لديها أن تطبيق هذه السياسة نهاية لها، وهذا ما حدث، فعندما كانت المنتفق قوية وموحدة، وتعيش أيام زهوها، فقد استقبلت بغداد، مجبرة منذ عام ١٨٤٢م حتى ولاية مدحت باشا، أحد عشر واليا، كانت التوصية الرئيسية لهم، ضرورة إسقاط المنتفق بأي شكل كان، هذا إذا علمنا أنه منذ ذلك التاريخ لم يكن على الساحة، غير إمارة المنتفق، التي أعيت رجال الامبراطورية وظلت قوية تصارع وتقاتل وتنتصر، فانظر كيف يفعل الاتحاد فعله، مهما بدت رياح الجهة المضادة قوية، لأن الاتحاد كان قويا ومتماسكا، ولأن قادته ومقوديه كانوا رأيا واحدا وتوجها واجدا. فقد كان أي واحد، حينما يسأل عن عشيرته لا يقول إلا أنه "منتفقي" وهذا دليل وفضل يحسب لهذا الاتحاد، الذي صهر العديد من العشائر في اتحاده الكبير، وكانت نخوة جميع أهل المنتفق (منشه). وبهذه ال (منشه) احتلت المنتفق صدارتها في مجرى الأحداث محليا وإقليميا، مؤكدة أنها جزء أساسي من تاريخ المنطقة التي امتد عليها نفوذها طيلة حوالي أربعة قرون.

وتظل الحياة الداخلية للمنتفق رصيدا مملوءا بالنشاطات المختلفة والمتعددة والمعاني ذات القيم الاعتبارية والمعنوية والتي اتخذتها الكثير من الدواوين العربية،

أمثلة في حالة التعبير عن الفعل الإيجابي المستقر والقادر على التعايش مع السنين مهما تقادمت. لذلك لا يسعنا إلا القول، أن الحياة الداخلية، ورغم ما تناولنا منها من شذرات متعددة، فإنها تبقى بيدرا كبيرا، لا يخلو من الدرر الكثيرة، التي يتفاخر بها الجميع، ويحلو لهم الحديث بها.


الخاتمة

(لم تظهر على مسرح الحوادث في تاريخ العراق الحديث أسرة نبيلة تولت الإمارة، وتحكمت في مقدرات العراق ومصائره دهرا طويلا من الزمن، مثل أسرة آل السعدون المعروفة. فقد بسطت نفوذها على القسم الأعظم من العراق الجنوبي مدة تناهز الأربع مئة سنة، وتولى مشيخة قبائل المنتفك وإمارتها ما يزيد على العشرين شيخا من أبنائها البارزين.

وقد كانت هذه الأسرة العربية الكريمة أول من بعث الفكرة العربية من مرقدها في العراق الحديث، وحمل راية النضال من أجلها بالدم والحديد في وجه الأتراك والإيرانيين، بعد أن دثرت وانطمست مآثرها على أيدي المغول الأثيمة. والحق أن تاريخ العثمانيين في العراق، خلال الحقبة الطويلة التي حكموا فيها، كان تأريخا حافلا بالغزوات والحملات التي كان يجردها الباشوات المتعاقبون في بغداد لتأديب الثائرين من آل السعدون في الجنوب والمتمردين من آل بابان في الشمال. وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على أن العنصرين الكبيرين اللذين يتألف منهما العراق في يومنا هذا كانا يقفان أبدا ودوما في وجه الحكم الأجنبي والتسلط الغريب. وقد كان العثمانيون يشعرون بثقل العبء الملقي على عاتقهم في هذا الشأن، ولذلك كان تصرفاتهم وخططهم التي رسمت خلال مدة حكمهم كلها، ولاسيما في عهودهم الأخيرة، تستهدف ضعضعة الأسرة السعدونية القوية والقضاء عليها بالحركات العسكرية والتدابير الإدارية، والعمل على انقسامها فيما بينها.)

جعفر الخياط

صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة

[لقد أورثت المنتفق لباشا بغداد ودولته، متاعب جمة، وفي الوقت الذي تريده ...]

كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

[ليس بخاف على من له اطلاع على تاريخ آل السعدون، ذوي الشرف الباذخ والعز الأثيل، أنهم جعلوا من (اتحاد) المنتفق قدوة للعشائر والقبائل، حاربوا به العثمانيين والفرس وأنزلوا بهم الهزائم ...].

يعقوب سركيس

مباحث عراقية – ق ٣

[لقد كان لأسرة السعدون أثر واضح في تاريخ العراق، وهم أول من فكر في تأسيس حكومة عربية تعيد مجد العرب ...]

القاضي أحمد نور الأنصاري

النصرة في أخبار البصرة

[فإن هؤلاء المنتفق، أكثر العرب مضرة، عجزت الولاة عن كسر شوكتهم وذلت الوزراء عن درء أذاهم ...]

عبد الرحمن السويدي

حديقة الزوراء في سيرة الوزراء

[إن اتحاد المنتفق، أقوى الاتحادات العراقية وأكثرها عددا .... وفي مقدوره أن يقدم إلى ساحة المعركة ما يقارب من (٥٠,٠٠٠) ألف مقاتل، بفضل اتحاد قبائله ورؤسائه من آل شبيب ... (إنه) اتحاد مخيف، بل مرعب لقوى الدولة وللقوى الأخرى، طالما جرع الكثيرين هزائم لا تنكر ....]

الكسندر أداموف

ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها

[كانت العشائر العربية والمدن العربية هي التي حفظت للعراق وجهه العربي خلال القرون الماضية، وقد وجد العثمانيون منذ أن استولوا على العراق، أنهم أمام مجموعات عشائرية قوية لها كيانها وسيطرتها، وخاصة في الجنوب، الذي كانت تغطيه عشائر المنتفق، ذات المسؤولية الكبيرة داخل العراق وخارجه، التي كونت إمارة عربية متمتعة باستقلال كبير .....]

د. عبد العزيز سليمان نوار

تاريخ العراق الحديث

[إن المنتفق ناضلوا نضالا باهرا طوال العهد العثماني، وهم ذوو الأنفس الأبية والشيم العربية، الكماة المشهورون والحماة المذكورون .... فكم وال خذلته ورجع بالخيبة وكانت تعقد عليه الآمال. وتاريخ المنتفق صفحة كاشفة لسياسة العشائر في العراق، تجلت بأظهر أوضاعها، شادوا مكارم الأخلاق، وبنوا للحرب أرفع رواق ...]

عباس العزاوي

عشائر العراق – ج ٤ –

[إن عربان المنتفق أصل الفتن والاضطرابات في بغداد والبصرة، فهم جمرة الحرب وأشجع العربان، ومنشأ القلاقل .... في رؤوسهم المغافر وعلى أبدانهم الدروع الذهبية، وإن خمسة عشر منهم يقابلون ألفا، اعتادوا الرمي بالقوس على ظهور الخيل، يلعبون برماحهم في الهيجاء بصورة لا مثيل لها ..... وعلى قلتهم لا يوازيهم أحد، فالفارس منهم يهاجم الصفوف دون مبالاة .....]

يوسف عزيز المولوي

قويم الفرج بعد الشدة

[لقد كان تحالف المنتفق يتمتع باستقلال فعلي عن السلطة التركية منذ أواخر القرن السادس عشر حتى عام ١٨٧١ .....]

حنا بطاطو

العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية – الكتاب الأول.

[وفي الواقع فإن تاريخ المنتفق الطويل يشهد على محاولاتها الدائبة للتملص من سيادة بغداد، كلما سنحت الفرصة. واستيلاؤهم على البصرة غير مرة، دليل واضح على نواياهم تلك، وفكرة تأسيس حكومة عربية في البصرة، تعيد مجد العرب أزاء تسلط الترك، لم تكن بعيدة عن أذهان قادتها، غير أن اضطراب الأوضاع السياسية في أواخر عهد المماليك وازدياد الضغط القبلي على المنتفق والمخاوف القائمة من أعمال الوهابيين العسكرية في جنوبي العراق، لم تكن تسمح بأية حال بتحرك عام تجاه مثل تلك الأهداف .....]

د. عماد عبد السلام رؤوف

الأسر الحاكمة

[في ظل الأسرة الحجازية الجبارة، أسرة السعدون والتي لعبت دوراً لا يستهان به في تاريخ المنطقة الحافل، كانت قبائل المنتفق تشكل دوماً مصدر إزعاج للسلطات البريطانية، خصوصاً وأنهم رأوا أمراءهم السابقين (السعدون) متمسكين بكبرياء نسبهم وتقاليدهم القتالية التي جعلتهم في معزل عن أي مساهمة أخرى في حكم البلاد، مما قوى دعاويهم، ولم يسهل أمرنا في أراضي المنتفق حتى عام ١٩١٩...]

المس بيل

فصول من تاريخ العراق القريب

هذه بعض ما قيل في المنتفق ودورها وأثرها على أصعدة منطقة النفوذ التي استطاعت تحقيقه على إقليمها، مع وجود قوى محلية وإقليمية ودولية تتنافس وتسعى لتحقيق دورها وفعلها المؤثر.

ولو أوجزنا حالة الإمارة، وقد أنهينا عرض أحوالها، بسلبها وإيجابها، بفعلها وسكونها، باندفاعها الهائل أو تراجعها غير المنظم، بكل ما يحيط بها، لقلنا أن هذه الإمارة، كانت الخط الصدامي الأول والمباشر ضد كل القوى الأجنبية التي تدخلت في أحوال العراق، منذ أن ظهرت كقوة فاعلة ومؤثرة. ففترات توائمها مع العثمانيين قليلة، قياسا إلى فترات صدامها المسلح معها، في حين كانت تقف ضد الغزاة الفرس، ولم تدخل معهم بأي شكل تهادني، ولم يختلف الأمر حينما غزا الإنكليز العراق، لأنها رأت في غزوهم احتلالا جديدا لا يختلف عن العثمانيين بشيء، إن لم يكن أكثر منه كفرا. أنها بأفعالها تلك نازلت قوى كانت تحسب في حينها من القوى الإقليمية أو الدولية الكبرى، والتي لها حساباتها في أشكال الصراعات في المنطقة، ... لكن المنتفق استطاعت أن تجعل من نفسها لاعبا أساسيا في منطقة الأحداث التي استطاعت تحقيق نفوذها فيه.

كانت سنوات إمارة المنتفق، سنوات حرب وقتال، سواء مع عدو خارجي أو متمرد أو ثائر، أو ضد أوضاع داخلية، فهي ثكنة عسكرية دائمة النفير، انتصرت في أغلب معاركها، وخسرت البعض منها، لكنها كانت فاعلة ومتألقة حتى في هزائمها، .... .

ويحسب للمنتفق أنها الإمارة الوحيدة التي نجحت في تحقيق التحشد العام من قبل الآخرين معها، أزاء أوضاع كان خطاب المنتفق في عرضها واضحا، بأنها ليست خاصة بالمنتفق، بقدر ما لها من أهمية عامة تخص المجموع العام، وهذا ما حدث في أيام مغامس المانع وفي ثورة سعدون الكبير والثورة العراقية ضد المماليك، أو في معركة الجهاد ضد الإنكليز.

كما أن المنتفق قد أفرزت لنفسها دون غيرها من الإمارات العراقية المستقلة، أو شبه المستقلة، مكانة متميزة، حينما استطاعت بإمكاناتها - دون أي مساعدة من الدولة العثمانية أو من القوى المحلية الأخرى - أن تحرر أرضا عراقية من غاز أجنبي، مسترخصة من أجل ذلك الهدف، أغلى التضحيات، ومؤكدة بنهجها هذا، أن الوطن أغلى من الجميع مهما كانوا، .... لقد كان تحرير البصرة من الاحتلال الفارسي عام ١٧٧٩م، يمثل قمة الإنجازات للمنتفق رجالا وإمارة، مع ما سبق هذا التحرير من معارك بين الطرفين، خلال ثلاث سنوات من الاحتلال البغيض، لم تتثن فيها المنتفق عن طريق التحرير، رغم كل مصاعبه وأخطاره ونفقاته. لكن أشد ما استغربه، أن البصرة لا تحتفل بيوم تحريرها، ولا تذكر محرريها بالعرفان، وكأن الأمر مطلوب له أن ينسى، وتقديري أن لا البصرة ولا المنتفق يستحقون ذلك التناسي، ..... مضافا لذلك أن على أرض البصرة كانت خاتمة أفعال الجهاد لهذه الإمارة ضد الغزاة الإنكليز أيام الحرب العالمية الأولى، حينما قادت المنتفق جموع المجاهدين، وخاضت بهم أولا، ولوحدها تاليا معارك متعددة ضدهم. ولم تهادن أو تسالم أو تلقي السلاح من يدها بوجه المحتل الجديد، وجعلت من موضوع صراعها معه، قضية دينية ووطنية وأخلاقية.

كما أن المنتفق دون غيرها من جميع الإمارات، استطاعت أن تفرض وجودها الحقيقي على من يحكم في بغداد، بحيث كانت كلمة المنتفق تحمل أوامر أو "فرمانات" سلطانية مطلوب تنفيذها. كما أن هذه الإمارة هي من نفذت قانونها الخاص، وأعدمت والي العراق وعينت غيره، لأنه تقاطع معها وأراد إيذائها والتسلط عليها، وهو فعل لم يسبق لآخرين أن فعلوه، ... وحينما بلغ الخبر استنبول بلعت الإهانة وسكتت.

ومثلما كانت المنتفق تتميز بكونها تكنة عسكرية دائمة النفير، فقد انتزعت لنفسها فضيلة أخرى، تحسب لها، حينما ابتعدت وحاربت كل أنواع التعسف

والإكراه التي تمارس ضد الآخرين في الاعتقاد أو التمذهب، مما جعلها أرضا مفتوحة للجميع – دون استثناء – بحيث كانت أرضها سريعة الإنبات والتوريق لكل فكرة تخدم الجميع، ولذلك كانت هذه الإمارة مرتعا خصبا لكل المسلمين أيا كان ما يعتقدوه. وهذا التوجه في تلك السنين، يحسب كسبق نظر استراتيجي. ولم تخذل الأحداث طيلة وجود الإمارة هذا التوجه، بقدر ما عمقت مفاهيمه وأعطت للرأي إشراقته وبهاءه.

كما كانت هذه الإمارة طيلة أيام وجودها، ملجأ لكل قاصد، حتى لأعدائها أو لمن حاربها وقتل شبابها ودمر شواخصها، بل إنها في أوقات غير ملائمة، قد عرضت نفوذها وسلطتها للضياع بسبب من لجأ إليها قاصدا الحماية أو العون، .... كان مقاتلو المنتفق يسترخصون النفس إذا شعروا أن قاصدهم تعرض للأذى أو للإهانة، ولا يستثنى من ذلك أي فرد، سواء كان قائدا أم أميرا أم مقاتلا عاديا، المهم أنه قصدهم وطلب عونهم وحمايتهم. ولذلك كانت المنتفق فنارا دائم الدائم الإشعاع، حتى لأعدائها، بل إنها القلعة التي يحتمي بها العرب من أعدائهم حينما تضيق بهم السبل. ولم تعتذر المنتفق يوما من أحدهم أو تخذله، حتى وإن كان ذلك الإجراء يسبب لها الإيذاء أو التهلكة.

لقد اندفع تحالف المنتفق نحو القمة، بفضل رؤسائه ومقاتليه، والمستند إلى سياسة التوسع الأرضي في حدود الإمارة، ومحاربة التدخل الأجنبي – أيا كان – في شؤونهم الداخلية، ولذلك كان هذا الاتحاد القبائلي تاريخيا من نتاج الحياة التي تميزت بالغزوات المتكررة، وبالتغيير السريع نسبيا، التي إتسمت بها سهول دجلة والفرات في القرن التاسع عشر وما قبله. في تلك الأيام كان وضع الوجود العشائري يشدد على الشجاعة والجرأة في اتخاذ القرار والحركة، وكانت هاتان الصفتان عميقتين عند المنتفقين، بسبب طبيعة الحياة التي كانوا يألفونها، وبسبب القيمة الاجتماعية الكبيرة التي تعطى لمن يتميز بهما عند عموم أبناء هذا الاتحاد،

وعليه فقد كانت قيمة المقاتل تقاس بما يعطيه ويبذله في المعارك، هذا أولا، وثانيا إن شكل التنافس المستمر قد أفرز ووهب المنتفق كثيرا من المحاربين المتميزين الذين أصبحوا أمثلة لجيلهم وللأجيال اللاحقة.

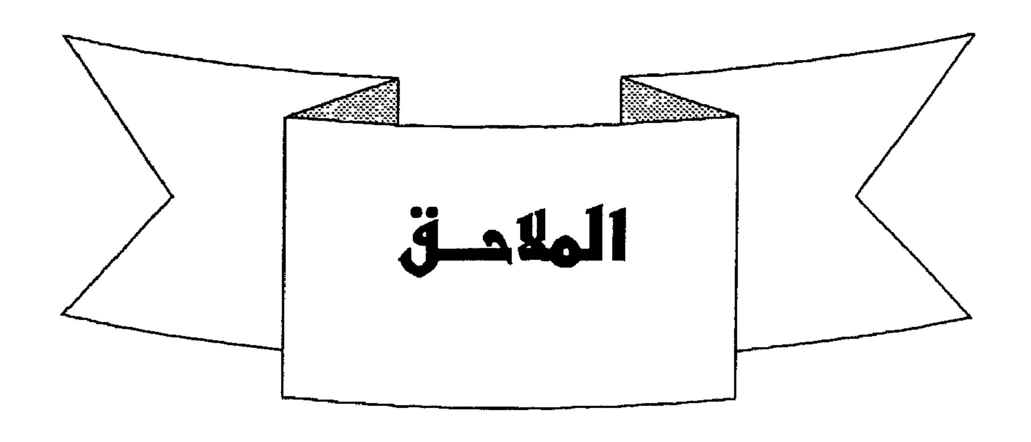
كما أن أمراء المنتفق، لم يكونوا من خارج "ديرتهم" بل إنهم نشأوا فيها صغارا، وتآمروا فيها كبارا. لم يكن الأمير المنتفقي تركيا أو فارسيا أو إنكليزيا، بل كان عربيا عراقيا، ومن وسط قبائله، يعرفوه ويعرفهم، ويقاتلون عنه ويقاتل عنهم، كان مثلهم في كل شيء، لم يتميز عنهم بشيء استثنائي. وكان معهم في كل شيء لا يتلائم ومزاجهم وحياتهم، وهذا أهم أسباب ديمومة هذه الإمارة لفترة طويلة، ...لكن، ... حينما بدأت الأرستقراطية التركية تنتقل تدريجيا لديوان الأمير المنتفقي، بدأت خطوط مواصلاته مع قبائله تطول، وحينما بدأ استعمال ألقاب الفخفخة الشرقية الموغلة في المبالغة، غدت مزاجية الأمير ومقاتليه متضادتين، فحينما كان الأمير مقاتلا، كان مقاتلوه يسبقونه للصولة، لكن حينما أصبح الأمير باشا، تخلفت خطوات مقاتليه وقصرت. ومع هذا وذاك، فإن "شيخ مشايخ" المنتفق، وليد مزاج ومناخ ومجتمع إمارته، ولم يأت جاهزا ومعلبا للحكم والتسلط.

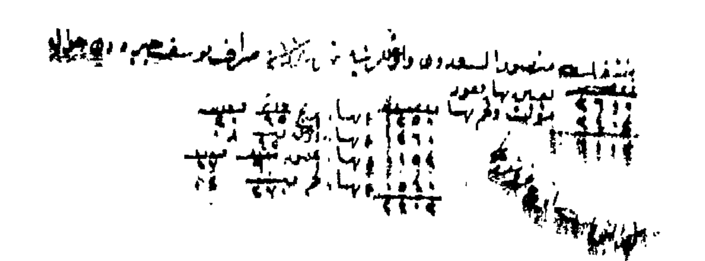
كما كانت في جسد الإمارة، مناطق رخوة، لكن موضوع الأرض كان أكثرها رخاوة، ومنها استطاع الحاكم التركي أن يجد مقتلها فيه، حينما شرقت وغربت طموحات ونيات وأهداف وتطلعات أهل الإمارة، بحيث غدا البحث عن موضوع مشترك لجميع أبناء "الديرة" إحدى الأمنيات الصعبة. كان تفويض الأرض الذي مارسته قيادة الإمارة بتشجيع من سلطات استنبول، المعبر الذي تمكنت من الاجهاز على آخر أنفاس إمارة المنتفق. بالتفويض وضع قادة الإمارة، سورا صينيا بينهم وبين أبناء "الديرة" فاندحرت النفوس قبل أن تتدمر وتنهزم الإمارة عسكريا.

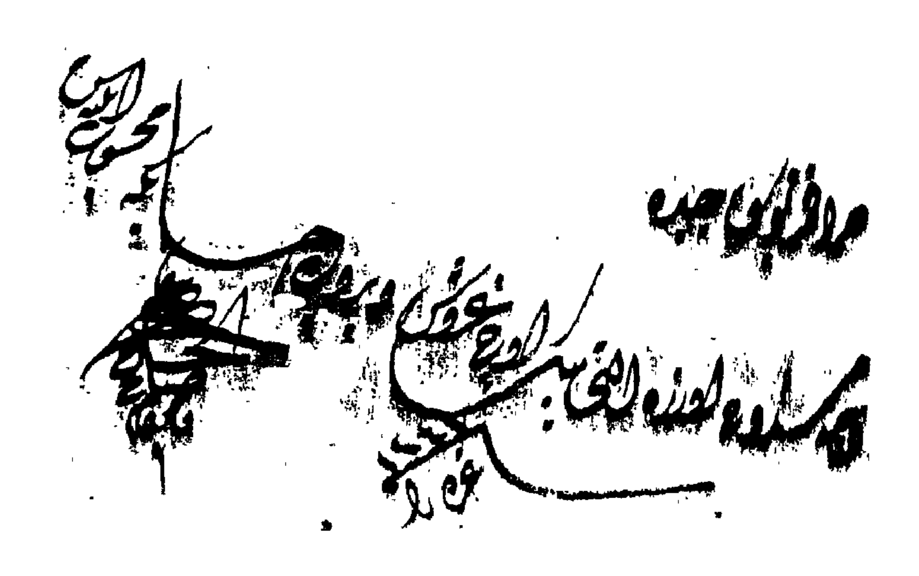
كما أن الإمارة كانت على معرفة بضرورة الإطلالة البحرية التي تمكنها من الانفتاح على العالم، لذلك كانت شواطئ الخليج العربي، أغلب الأوقات تحت

سيطرة المنتفق وبحمايتها، لكن الغريب أن هذه الإطلالة لم يجر توظيفها لخدمة أهداف وطموحات الإمارة بالاستمرار والديمومة وتشبيك المصالح مع الآخرين، بقدر ما ظلت تستعمل للدلالة على النفوذ الواسع دون تشكيل مفرداته لتجسير القوى الفاعلة مع بعضها وبما يخدم الهدف الاستراتيجي لها.

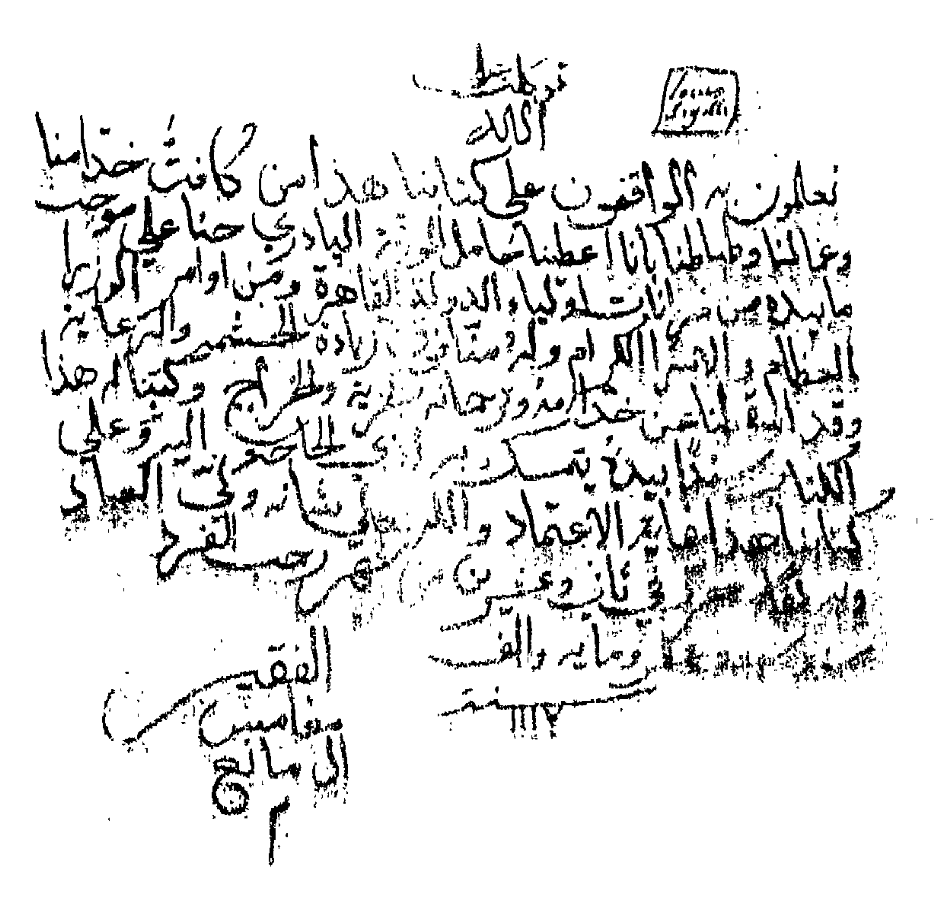
وقبل أن تطبق – قارئي الكريم – الورقة الأخيرة من هذا العمل الذي بذلنا من أجل إنجازه جهدا كبيرا، أريدك أن تفكر معي بالطريقة المثلى لإبراز وإيضاح المواقف الإيجابية الكثيرة التي قدمتها إمارة المنتفق للعراق وللمنطقة الإقليمية، وشكل التأثير الذي استطاعت أن تفعله فيما يحيط بها من قوى وبالشكل الذي استفادت من دروس المنتفق بوجهيها السلبي والإيجابي، والتي لم يكن في مقدور هذا الكتاب الإحاطة بها بشمولية واسعة، لأن مثل هذا الأمر خارج قدراته وإمكاناته. لكن قطعا إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وها نحن قد فعلناها، المطلوب أن نعززها بما يعطيها القوة والديمومة والاستمرارية، لا أن نبقى متفرجين نلوك بالحكايات والقصص التي قد يأتي وقت لن نجد من يسمعها منا، أو أن نستمع منه للإضافة أو التصحيح، ويقيني ان لا المنتفق ولا أهلها ولا تاريخ المنطقة يستحق منا ذلك الإهمال، الذي عالجنا بعض أوجه قصوره بهذا العمل الذي نطمح أن يكون سلسلة تغطي حقيقة المنتفق وفعلهم.


الملاحـق





مضمون الأمر الصادر من والي بغداد (نامق باشا الكبير) بالتزام الشيخ (منصـــــور باشا بن راشد السعدون) مشيخة المنتفق والتزامها المالي عام ١٢٦٧هـــــ الموافــق ١٨٥٢م.



نعلمون به الواقفون على كتابنا هذا من كافة خدامنا

الفقير
مغامس
آل مانع

كتاب مغامس المانع الى الأب حنا الكرملي
نقلا عن سجل الآباء الكرمليين

كتاب الأمير (مغامس المانع) إلى الأب – حنا الكرملي – المتضمن حمايته وأتباعه والصادر عام ١٧٠٥م في مدينة البصرة.

الرسائل المتبادلة بين والي العراق، عبد الله باشا التوتنجي، وأمير المنتفق الشيخ حمود الثامر عام ١٨١٢م.

[من الوزير عبد الله باشا إلى الشيخ حمود الثامر السعدون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وردت لنا الأخبار أن أسعد بك عندكم، وأن التجاءه عندكم خيانة وغدر، وقد قسم لي الإيمان أنه لا يغدر بي ولا يخونني، والآن نكب عهده وجاء عندكم.

وما يكفيك ضبط أراضي البصرة وأثمارها، ومنع إيراد الميري عليها ولمدة سنتين، ما قدمتم الذي عليكم، بل الذي يشردون من طرفنا تحميهم وتلفيهم عندك. فنحن نسمح لك عن كل ما فعلتموه من تعطيل إيراداتنا ونروم أن تسلمونا جاسم بك الشاوي وأسعد بك، والسلام على من اتبع الهدى]

فأجابه الشيخ حمود الثامر:

[إلى صاحب النجابة الحسيب الوزير عبد الله باشا المبجل

أما بعد. وصل مرسولك، وإن جميع ما حررته من جرى تعطيل ايراداتكم والمحصول الذي حصل فهو حقيقة ولا أنكره. ومن طرف البيكاوات الموجودين عندي، فما يمكن تسليمهم، لأن مثل هؤلاء ناس أجواد أشراف، جاءوا لي، فيقتضي علي أن ألفيهم، وإن سعيد بك ابن أفندينا القديم الذي نذكر حسن فضائله معنا، فعاد غير ممكن أن نسلمه، ولا نسلم أي واحد يقدم لحينا وديارنا، وأذكرك بالمعروف، وأنك يا مولاي عبد الله باشا، أنت أول مملوك لهم وعليك أن تذكر نعمة سليمان باشا عليك وعلى غيرك الموجودين في بغداد. وأني أتعهد بسعيد بك أن لا يضمر لك السوء أبدا، ولا يكاتب أمير المؤمنين بشأنه كما تتوقع، فكن على اطمئنان، والعاقبة للمتقين والسلام. *

حمود الثامر السعدون

---

* المصدر: عباس العزاوي – تاريخ العراق بين احتلالين – ج ٦.

خطاب الأمير حمود الثامر، أمام رؤساء وقادة المنتفق، قبل معركة – أغليوين – عام ١٨١٣م

"أيها الأمراء والرؤساء والمشايخ أخاطبكم اليوم لعلمي أنكم أنتم الممثلون للعرب، وأني أعلم أنه قد تجسدت فيكم الشهامة والغيرة الحميرية. وبما أنتم أمراء ورؤساء القبائل، أخاطبكم بخطاب يليق بكم، فليكن معلومكم، أيها الأجلاء العظام والسادة الكرام، أن دخيلنا سعيد بك لما علم أن حياته في خطر، التجأ إلينا كي يتمكن من المحافظة على حياته المهددة بالخطر، ووقع دخيلا عندنا، وها هو هذا تعرفونه وتعرفون أباه وتعرفون منزلة أبيه، وهو من ذوي البيوت لا من العتقاء والسوقة، وأني قد تعهدت وتكفلت بحمايته حماية مطلقة، وأن الدخيل عندي، ولم تظهر له أدنى مظاهرة تشغل الحكومة، بل ولا يتحرك بحركة مخالفة لرضاء الدولة، وكررت هذه الكيفية للولاية مرارا فلم تفد جميع مراجعاتي واسترحاماتي، ولذا لم يبق للحكومة حق، إن خالفتها وعصيتها لأني قد أخذت جواب السلب، وأمرتنا الولاية بهذا الأمر الذي قرأته عليكم بتسليم الدخيل، فإن لم نسلمه تأخذه الحكومة من عندنا قسرا بقوة السلاح وهذا تهديدهم كما سمعتموه.

وقد حاكمت نفسي مرارا بكيفية تسليم الدخيل فأبت نفسي وشيمتي العربية، تسليم الدخيل كتسليم الشاة إلى القصاب، وجزمت وعزمت على أن أقاوم وأدافع الحكومة بكل مجهودي وقوتي لآخر نفس، فإن عجزت عن المقاومة أكون مجبورا على ترك أولادي وعيالي، وآخذ دخيلي وأهرب به إلى الديار النجدية حفظا لناموسي وشرفي، فمن كان منكم يكره هذه الحالة، فليعتزل إلى جنب، واعتقدوا أني لا أجبر ولا أكره أحدا على أن يكون معي. فكل منكم مختار برأيه، حيث أن هذه المسألة هي خاصة بنفسي وعائده علي، ولا شك أن هذا ناموسي وشرفي، ولا أقبل

أن يدنس وأن يكون فيه عار. وتسليم الدخيل هو أكبر عار علينا، ولهذا لا بد لـــــي أن أحرق آخر قطرة من دمي للمحافظة على الناموس. واعلموا جميعا أن لا أكلــف أحدا منكم بتكليف لا يطيقه .... الخ]. *

* المصدر : سليمان فائق – تاريخ المنتفق.

صور لبعض رسائل (عجمي باشا السعدون) لحجة الإسلام العلامة (هبة الدين الشهرستاني) أثناء معارك الجهاد ضد الإنكليز للأعوام ١٩١٤ – ١٩١٨.

[illegible] حضرة [illegible] العالم العلامة والحبر الفهامة [illegible] الشهرستاني [illegible]

عن حرص وهدي وفور الاشتواق القلبية اليكم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام [illegible] وقت [illegible]

[illegible]

[illegible] الدين الاسلامي [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

"أمراء المنتفق"

١- محمد بن الشريف حسن، والملقب بالوسيط[(١)]

١٥٦٠ - ١٥٤٦

٢- شبيب بن الشريف حسن والملقب (شبيب الأول)[(٢)]

١٥٨٦ - ١٥٦٠

٣- مانع بن الشريف محمد الوسيط[(٣)]

١٦٠٥ - ١٥٨٦

٤- حسن بن مانع بن محمد الوسيط[(٤)]

١٦٣٠ - ١٦٠٥

٥- مانع بن الشريف شبيب الأول (مانع الثاني) [(٥)]

١٦٤٨ - ١٦٣٠

٦- شبيب بن مانع الثاني (شبيب الثاني) [(٦)]

١٦٥٠ - ١٦٤٨

---

(١) علي الشرقي - ذكرى السعدون - ص١٦، و علي الشرقي - العرب والعراق - ص ١٧٠.

(٢) عباس العزاوي - العراق بين احتلالين - ج٤ - ص ١٠٦.

(٣) عبد الله الناصر - تاريخ السعدون - ص ١٦.

(٤) عبد الله الناصر - ص ١٧ و: حسين خلف - تاريخ الكويت - ص ٢٢٤.

(٥) مرتضى أفندي نظمي زاده - كلشن خلفا - ص ٢٣٦.

(٦) علي الشرقي - ذكرى السعدون - ص ١٧، و: مرتضى أفندي - ص ٨٠.

٧- مغامس بن الشريف مانع الثاني[٧]

١٦٥٠ - ١٦٦١

٨- راشد بن مغامس بن مانع الثاني[٨]

١٦٦١ - ١٦٦٧

٩- عثمان بن مهنا بن راشد[٩]

١٦٦٧ - ١٦٨٢

١٠- مانع بن شبيب الثاني (مانع السخاء) [١٠]

١٦٨٢ - ١٧٠٥

١١- مغامس بن الشريف مانع (مغامس الثاني) [١١]

١٧٠٥ - ١٧١٨

١٢- محمد بن الشريف مانع بن شبيب الثاني[١٢]

١٧١٨ - ١٧٢٩

---

(٧) حسين خلف - تاريخ الكويت - ج١ - ص ٨٥.

(٨) عباس العزاوي - ج٥ - ص ٨٥.

(٩) لونكريك - أربعة قرون - ص ١٤٦.

(١٠) عباس العزاوي - ج٥ - ص ١٣٣ - ١٤٢، و : مرتضى أفندي - ص ١١٤ و ص ١١٥،و : تاريخ راشد - ج٢ - ص ١٤٢٠ ، و: لونكريك - في عدة أماكن.

(١١) عباس العزاوي - ج٥ - في الصفحات: ١٦٨ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٩ - ١٨٠، و: يعقوب سركيس - مباحث عراقية - ق ١ - ص ٢٠٤، و: لونكريك - أربعة قرون - ص ١٥٦، و: ابن الغملاس - ولاة البصرة - ص ٦٤، و: عبد الرحمن السويدي - حديقة الزوراء - ص ٥٤.

(١٢) يعقوب سركيس - مباحث عراقية - ق ٣ - ص ١٩٣ ، و: عباس العزاوي - ج٥ ص ٢١٦ و ص ٢٢٤.

١٣- منيخر بن ناصر بن صقر بن مانع الثاني[١٣]

١٧٢٩ - ١٧٣٨

١٤- سعدون بن محمد بن الشريف مانع، والملقب سعدون الكبير[١٤]

١٧٣٨ - ١٧٤٢

١٥- منيخر بن ناصر بن صقر[١٥] (للمرة الثانية)

١٧٤٢ - ١٧٤٨

١٦- بندر بن عبد العزيز بن مغامس[١٦]

١٧٤٨ - ١٧٥٧

١٧- عبد الله بن محمد بن الشريف مانع[١٧]

١٧٥٧ - ١٧٦٩

---

(١٣) لونكريك - أربعة قرون - ص ١٩٠.

(١٤) لونكريك - أربعة قرون - ص ١٩٠ ص ١٩١، و: عباس العزاوي - ج٥ - ص ٢٥٦ ص ١٥٧ ص ٢٥٨، و: لوريمر - ج٤ - ص ١٧٨٣، و: الكركوكلي - دوحة الوزراء - ص ٤٣ ص ٤٤، و: يعقوب سركيس - ق ٣ - ص ١٩٥ ص ١٩٦ ص ١٩٧ ص ١٩٨ ص ١٩٩، و: ياسين العمري - غاية المرام - ص ١٨٠، و: رحلة ينبور - ص ٦٠.

(١٥) يعقوب سركيس - ق ٣ - ص ١٩٣.

(١٦) عباس العزاوي - ج٥ - ص ٢٩٣ و: ج ٦ - ص ٢٣.

(١٧) لونكريك - أربعة قرون - ص ٢٠٥، و: الكركوكلي - دوحة الوزراء - ص ١٤١، و: لوريمر - ج٤ - ص ١٨٠٥، و: عباس العزاوي - ج ٦ - ص ٤٠.

١٨- ثامر بن سعدون الكبير بن الشريف محمد[١٨]

١٧٦٩ - ١٧٧٩

١٩- ثويني بن عبد الله بن الشريف محمد[١٩]

١٧٧٩ - ١٧٨٧

٢٠- حمود بن ثامر بن سعدون الكبير، (حمود الأعمى) [٢٠]

١٧٨٧ - ١٧٨٨

٢١- ثويني بن عبد الله (للمرة الثانية) [٢١]

١٧٨٨ - ١٧٨٩

٢٢- حمود بن ثامر بن سعدون الكبير (للمرة الثانية) [٢٢]

١٧٨٩ - ١٧٩٦

---

(١٨) الكركوكلي - ص ١٦٧، و: عباس العزاوي - ج ٦ - ص ٧٩ ص ٨٠ ص ٨١، و: عثمان بن سند - مطالع السعود - من ص ٨٧ - ٩٥ ، وص ١٤٠، و: جعفر الخياط: صور من تاريخ العراق - ص ١٩٢، و: لونكريك - ص ٢٢٨ إلى ص ٢٣٤، و: علاء كاظم نورس - حكم المماليك في العراق - ص ٤٢ - ٤٣ و ص ٢٠٨ إلى ص ٢١٤، و: لوريمر - ج ٤ - ص ١٨٦٥.

(١٩) ابن سند - مطالع السعود - ص ١٤١ - ١٤٢ و ص ٨٩ - ٩٤ وص ١٧٦ - ١٧٩ و ص ٢١٢ - ٢٢٠ - و ص ٢١٠

(٢٠) ابن سند - ص ٢٢١ - ٢٢٣ و ص ٢٢٧ - ٢٣١ و ص ٢٥٤ و ص.٢٥٧ وص ٢٧٢ و ص ٢٧٨ - ٢٨٥ و ٢٩٦ - ١٩٨.

(٢١) لونكريك - ص ٢٤٤ - ٢٤٦ و ص ٢٥٦ - ٢٥٨، و: عباس العزاوي - ج ٦ - ص ١٠٠ - ١٠٥ وص ١١٨ - ١١٩ و ص ١٢٢ - ١٢٤

(٢٢) لونكريك - ص ٢٤٥ - ٢٤٧ وص ٢٧٥ - ٢٧٧ و ص ٢٨٥ و ص ٢٩٨، و:الكركوكلي - ص ٢٠٥ و ص ٢٠٨ و ص ٢١٦ وص ٢٥٨ - ٢٥٩ و ص ٢٦٨ و ص ٢٧٤ و ص ٢٨٧، و: علي الشرقي - موسوعة الشيخ علي الشرقي النثرية - ص ١١٦، و: عباس العزاوي - ج ٦ - ص ١٢٥ - ١٣١ و ص ١٤٤ - ص ٢١٤ و ص ٢١٧.

٢٣- ثويني بن عبد الله (للمرة الثالثة) [٢٣]

١٧٩٦ – ١٧٩٧

٢٤- حمود بن ثامر بن سعدون الكبير (للمرة الثالثة) [٢٤]

١٧٩٧ – ١٨٢٦

٢٥- عجيل بن محمد بن ثامر بن سعدون الكبير، والملقب (أخو سعدى) [٢٥]

١٨٢٦ – ١٨٣٢

٢٦- ماجد بن حمود بن ثامر بن سعدون الكبير[٢٦]

١٨٣٢ – ١٨٣٣

٢٧- فيصل بن حمود بن ثامر بن سعدون الكبير[٢٧]

١٨٣٣ – ١٨٣٣ "ستة أشهر"

---

(٢٣) الكركوكلي – ص ١٨٦ – ١٩٠ وص ١٩٣ وص ٢٠٠ وص ٢٠٤، و: فاسيلييق – تاريخ العربية السعودية – ص ٩٣ وص ١٠٦ وص ١١٣ – ١١٤ ، و: علاء كاظم نورس – ص ٤٣ – ٤٨.

(٢٤) حسين خلف – ج ١ – ص ٧٦ – ٧٧، و: علاء كاظم نورس – ص ٨٠ إلى ص ٨٨ وص ٩٥ إلى ص ٩٨ ، و: سليمان فائق – تاريخ المنتفق ص ١٦ إلى ص ٢٦، و: سليمان فائق – تاريخ الكولة مند – ص ٤٢ إلى ص ٤٨ ، و: محمد خليفة النبهاني – التحفة النبهانية – ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣٢ ، و: عباس العزاوي – ج ٦ – ص ٢٣٣ إلى ص ٢٣٩.

(٢٥) سليمان فائق – تاريخ الكولومند – ص ٥٩، و: البنهاتي – ص ٣٣٣ و: ابن سند – مطالع السعود – ص ٣٦٨ إلى ص ٣٧٥، و: لونكركي ص ٢٩٩، و: عباس العزاوي – ج ٦ – ص ٢٩٢ إلى ص ٢٩٥، ص ٣٠٧.

(٢٦) عثمان بن بشر – تاريخ نجد – ج ٢ – ص ٨١ ، و: عبد العزيز نوار – داود باشا – ص ١١١.

(٢٧) عثمان بن بشر – ص ٨١، و: يعقوب سركيس – ص ١٨٧، و: عبد الله الناصر – ص ٤٠.

٢٨- عيسى بن محمد بن ثامر بن سعدون الكبير[٢٨]

١٨٤٢ - ١٨٣٣

٢٩- بندر بن محمد بن ثامر بن سعدون الكبير[٢٩]

١٨٤٧ - ١٨٤٢

٣٠- فهد بن محمد بن ثامر بن سعدون الكبير[٣٠]

١٨٤٩ - ١٨٤٧

٣١- فارس بن عجيل بن محمد بن ثامر[٣١]

١٨٥٢ - ١٨٤٩

٣٢- منصور بن راشد بن ثامر بن سعدون الكبير[٣٢]

١٨٥٥ - ١٨٥٢

---

(٢٨) عثمان بن بشر - ص ٩١، و: يعقوب سركيس - ق ٣ - ص ١٨٧، و: عبد العزيز نوار - تاريخ العراق الحديث - ص ١٦٣، و: حسين خلف - ج ١ - ص ١٠٢، و: أحمد نور الأنصاري - النصرة في أخبار البصرة - ص ٣٨.

(٢٩) عبد الله الناصر - ص ٤١، و: عثمان بن بشر - ص ٢٢٨، و: عبد العزيز نوار - تاريخ العراق - ص ١٧٦، و: حسين خلف - ج ١ - ص ١١٨، و: لوريمر - ص ١٩٩٩.

(٣٠) عبد العزيز نوار - تاريخ العراق - ص ١٧٦، و: حسين خلف - ج ٢ - ص ٢٢٤.

(٣١) عبد الله الناصر - ص ٤٨، و: لوريمر - ص ٢٠٠٩، و: عباس العزاوي - ج ٧ - ص ٩٣.

(٣٢) سليمان فائق - تاريخ المنتفق - ص ٣٢ إلى ص ٤٩، و: محمد رشيد السعدي. قرة العين - ص ١٢٥، و: يعقوب سركيس - ق ٣ - ص ١٨٠.

٣٣- صالح بن عيسى بن محمد بن ثامر(٣٣)

١٨٥٥ - ١٨٥٦

٣٤- منصور بن راشد بن محمد الثامر(٣٤) (للمرة الثانية)

١٨٥٦ - ١٨٦٠

٣٥- فارس بن عجيل بن محمد الثامر(٣٥) (للمرة الثانية)

١٨٦٠ - ١٨٦١

٣٦- بندر بن ناصر بن ثامر بن سعدون الكبير(٣٦)

١٨٦١ - ١٨٦٣

٣٧- فهد بن علي بن ثامر بن سعدون الكبير(٣٧)

١٨٦٣ - ١٨٦٦

---

(٣٣) عباس العزاوي - ص ج٧ - ص ٩٦ ، و: عبد العزيز نوار - تاريخ ... ص ١٧٧.

(٣٤) يعقوب سركيس - ق ٢ - ص ٤٠٣، و: عباس العزاوي - ج٧ - ص ١٣٠، و: عبد العزيز نوار - ص ١٧٩ - ١٨٢، و: حسين خلف - ج ٢ - ص ٢٢٥، و: علي الوردي - لمحات - ج ٢ - ص ٢٢٧.

(٣٥) حسين خلف - ج ٢- ص ٢٢٤، و: عثمان بن بشر - ص ٢٢٨.

(٣٦) عبد العزيز نوار - ص ١٨٠، و: عباس العزاوي - ج ٧ - ص ١٣٢، و: يعقوب سركيس ق٢ - ص ٢٥٦، و: لوريمر - ص ٢١٠٠.

(٣٧) لوريمر - ص ٢١٠٥، و: لونكريك - ص ٣٥٠، و: عبد العزيز نوار - ص ١٨٢، و: عبد الله الناصر - ص ٥٠، و: حسين خلف - ج ٢ - ص ٢٢٥ و: سليمان فائق - ص ٣٧ إلى ص ٥٠، و: عباس العزاوي - ج ٧ - ص ١٤٥ - ١٥٠.

٣٨- ناصر بن راشد بن ثامر بن سعدون الكبير،[٣٨] والملقب "الأشقر"

١٨٦٦ - ١٨٧٤

١٨٧٤ - ١٨٧٦ والٍ على البصرة

٣٩- فالح بن ناصر بن راشد بن ثامر[٣٩]

١٨٧٤ - ١٨٧٧

٤٠- فهد بن علي بن ثامر بن سعدون الكبير (للمرة الثانية) [٤٠]

١٨٧٧ - ١٨٧٩

٤١- فالح بن ناصر بن راشد (للمرة الثانية) [٤١]

١٨٧٩ - ١٨٨١

حيث سقطت الإمارة بعد هزيمتها في معركة "الريس" في آب ١٨٨١

---

(٣٨) سليمان فانق – ص ٥٠ إلى ص ٦٨ ، و: ابن الغملاس – ص ٤٢ لوريمر – ص ٢١٣٠ وص ٢١٦١، و: عباس العزاوي – ج ٧ – ص ١٥٦ ص ١٩٣ إلى ص ١٩٩، و: يعقوب سركيس – ق ٢ ص ٢٥٧ إلى ص ٢٦٤، و: النبهاني – ص ٤٣٢ – ص ٤٣٣.

(٣٩) عبد الله الناصر – ص ٥٨، و: البنهاتي – ص ٤٣٤ إلى ص ٤٣٩ و: فاسيلييق – ص ٢٣٥.

(٤٠) النبهاني – ص ٤٣٩، و: حسين خلف، ج٢ – ص ٢٢٥، و: يعقوب سركيس – ق ٢ – ص ٢٧٢، و: عبد الله الناصر – ص ٥٨، و: يوميات زفبودا – مركز المخطوطات.

(٤١) علي الوردي – ج ٣ – ص ٣٩، و: عباس العزاوي – ج ٨ – ص ٥٣ إلى ص ٥٥، و: باقر الشبيبي – تاريخ الشطرة – ص ١٨٠، و: النبهاني – ص ٤٤٠.

٤٢- سعدون بن منصور بن راشد الثامر[٤٢]

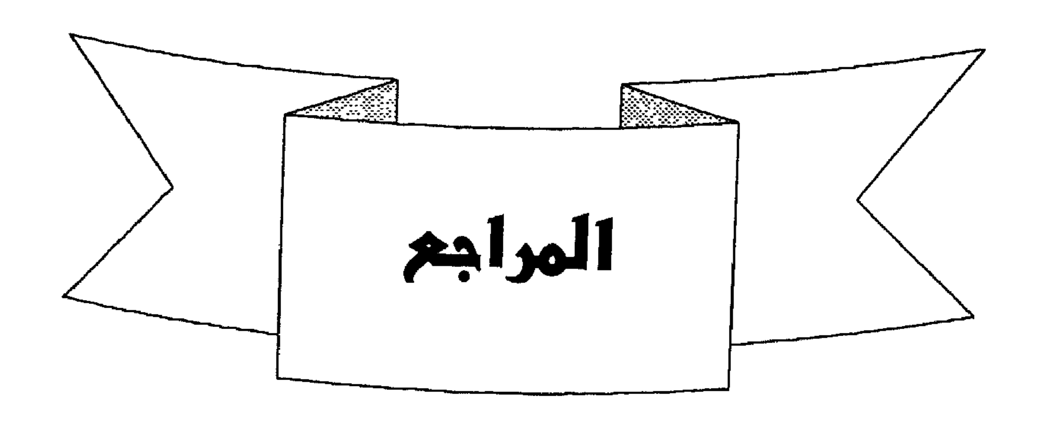
١٨٩٢ - ١٩١١

٤٣- عجمي بن سعدون بن منصور بن راشد [٤٣]

١٩١١ - ١٩١٨

---

(٤٢) و (٤٣) النبهاني - ص ٤٤١ إلى ص ٤٨٠، و: عبد الله الناصر - ص ٦٠ ص ٦١، و: لغة العرب - المجلد الأول والمجلد ا لثاني، و: حسين خلف - ج ٢ - ص ٢٢٥ إلى ص ٢٤٥، و: حمود الساعدي - دراسات عن عشائر العراق - ص ٣٢٤ وص ٣٢٥، و: المس بيل - فصول من تاريخ العراق الحديث - ص ٦ إلى ص ١٦ وص ٨٠ إلى ص ٨٦، و: جعفر الخياط - صور من تاريخ العراق - ص ٢٩ إلى ص ٣٢ ...... الخ من المصادر الكثيرة والمتعددة التي جاء ذكرها في متن هذا الكتاب.


المراجع

أولاً: في اللغة العربية "الكتب"

١- ابن الأثير – الكامل في التاريخ – المجلد التاسع – دار صادر – بيروت ١٩٦٦.

٢- أبي طالب خان – رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوروبا سنة ١٢١٣هـ – ترجمة مصطفى جواد – مطبعة الإيمان – بغداد ١٩٦٩.

٣- أحمد نور الأنصاري – النصرة في أخبار البصرة – تحقيق د. يوسف عز الدين – ص ٢ – مطبعة الشعب – بغداد ١٩٧٦.

٤- أحمد مصطفى أبو حاكمة – تاريخ الكويت الحديث – ط١ – الكويت ١٩٨٤.

٥- المؤلف مجهول – لمع الشهاب في سيرة محمد عبد الوهاب – تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة – بيروت ١٩٦٧.

٦- اوبنهايم، ليو – بلاد ما بين النهرين – ترجمة سعدي فياض – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨١.

٧- أورخان محمد علي – السلطان عبد الحميد الثاني – مكتبة دار الأنبار – ط ١ – العراق – الأنبار ١٩٨٧.

٨- براي، نور – مغامرات لجمن في العراق والجزيرة العربية – ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي – دار واسط للدراسات – بغداد ١٩٩٠.

٩- بروكلمان، كارل – تاريخ الشعوب الإسلامية – ج ٣ – ط ١ – ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي – بيروت ١٩٤٩.

١٠- برادون، رسل – حصار الكوت – ج ١ – ترجمة سليم طه التكريتي – دار إحياء التراث العربي – بغداد (بدون تاريخ)

١١- بلنت، ان - رحلة إلى بلاد نجد - ترجمة محمد أنعم غالب - منشورات دار اليمامة - ط ١ - الرياض ١٩٦٧.

١٢- بيل، المس - فصول من تاريخ العراق القريب - ترجمة جعفر خياط - بيروت ١٩٧١.

١٣- تافرينيه - العراق في القرن السابع عشر، رحلة الرحالة الفرنسي (تافرينيه) ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد - بغداد ١٩٤٤.

١٤- تكليف رحم الصكبان - آل بدير - مطبعة بغداد - بغداد ١٩٩٠.

١٥- توماس، برترام - مذكرات برترام توماس في العراق ١٩١٨ - ١٩٢٠ - ترجمة عبد الهادي فنجان - منشورات دار الثقافة - بغداد ١٩٨٦.

١٦- جاكسون - مشاهدات بريطاني في العراق - ترجمة سليم طه التكريتي - مطبعة الأسواق التجارية - بغداد (بدون تاريخ).

١٧- جاسم محمد حسن - العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ - ١٩٠٩ - جامعة بغداد - كلية الآداب (رسالة ماجستير).

١٨- جعفر خياط - صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة - ج١ - ط ١- مطبعة دار الكتب - بيروت ١٩٧١.

٢٠- جعفر حسن خصباك - العراق في عهد المغول الإيلخانيين - مطبعة العاني - بغداد ١٩٦٨.

٢١- حسين خلف الشيخ خزعل - تاريخ الكويت السياسي - ثلاثة أجزاء - بيروت ١٩٦٢.

٢٢- حسين بن غنام - روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعدد غزوات ذوي الإسلام - القاهرة - ١٩٦١.

٢٣- حمود الساعدي – دراسات عن الخزاعل – مطبعة الآداب – النجف ١٩٧٤
– دراسات عن عشائر العراق – مكتبة النهضة – بغداد ١٩٧٨.

٢٤- حنا بطاطو – العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية – الكتاب الأول – ط ١ – مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت ١٩٩٠.

٢٥- خالد حمود السعدون – الأوضاع القبلية في ولاية البصرة ١٩٠٨ – ١٩١٨ – شركة الربيعان – الكويت ١٩٨٧.

٢٦- رسول الكركوكلي – دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء – ترجمة موسى كاظم نورس – دار الكتاب العربي – بيروت (بدون تاريخ).

٢٧- رفعت رؤوف البازركان – أمثال شعبية لها حكايات – جمع وتنسيق وشرح – مطبعة الرشاد – بغداد ١٩٨٣

٢٨- ريج – رحلة ريج في العراق عام ١٨٢٠ – ترجمة بهاء الدين نوري – بغداد ١٩٥١.

٢٩- سعيد حمادة – النظام الاقتصادي في العراق – المطبعة الأمريكانية – بيروت ١٩٣٨.

٣٠- سليمان فيضي – في غمرة النضال – بغداد ١٩٥٢.

٣١- سليمان فائق – تاريخ المنتفق – ترجمة محمد خلوصي الناصري – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٦١.

– تاريخ المماليك "الكولومند" في بغداد – ترجمة محمد نجيب أرمنازي – مطبعة المعارف – بغداد ١٩٦١.

٣٢- شكري محمود نديم – حرب العراق ١٩١٤ – ١٩١٨ – ط ٦ – دار التضامن – بغداد ١٩٦٧.

٣٣- صالح محمد العابد – موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ – ١٨١٠ – بغداد ١٩٧٩.

٣٤ – صديق الدملوجي – مدحت باشا – بغداد ١٩٥٣.

٣٥ – صلال الفاضل – مذكرات الحاج صلال الفاضل "الموح" تقديم وتعليق كامل سلمان الجبوري – مطبعة العاني – بغداد ١٩٨٦.

٣٦- عبد الرزاق الحسني – العراق قديما وحديثا – ط ٧ – دار اليقظة العربية – بغداد ١٩٨٢.

٣٧- عبد العزيز الدوري – مقدمة لتاريخ العرب الاقتصادي – بيروت ١٩٦٩.

٣٨- عبد العزيز الرشيد – تاريخ الكويت – بيروت ١٩٧١.

٣٩- عبد العزيز القصاب – من ذكرياتي – منشورات عويدات – ط ١ – بيروت ١٩٦٢.

٤٠- عبد العزيز سليمان نوار – داود باشا – دار الكتاب العربي – القاهرة ١٩٦٨.

– تاريخ العراق الحديث – دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٨.

٤١- عبد الله بن فتح الله البغدادي – التاريخ الغياثي – دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني – بغداد ١٩٧٤.

٤٢- عبد الله الناصر – تاريخ السعدون – مطبعة الراعي النجف – ١٩٤١.

٤٣- عبد الله فياض – مشكلة الأراضي في لواء المنتفك –مطبعة سلمان الأعظمي– بغداد ١٩٥٦.

– الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ – ط ٢– مطبعة الرشيد – بغداد ١٩٧٥.

٤٤- عبد الله بن الغملاس - ولاة البصرة ومتسلموها - دار منشورات البصري - بغداد ١٩٦٢.

٤٥- عبد الله فهد النفيسي - دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٢.

٤٦- عبد الرزاق الظاهر - الاقطاع والديوان في العراق - مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٤٦.

٤٧- عبد الفتاح حسن أبو علية - دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر - دار المريخ للنشر - الرياض ١٩٨٦.

٤٨- عبد الجليل الطاهر - العشائر العراقية - ج ١ - مطابع دار لبنان - بيروت ١٩٧٢.

٤٩- عبد الكريم محمود غرايبة - مقدمة في تاريخ العرب الحديث - ١٥٠٠ - ١٩١٨ - ج ١ - دمشق ١٩٦٠.

٥٠- عبد الكريم محمد علي - تاريخ مدينة سوق الشيوخ - مطبعة عصام - بغداد ١٩٩٠.

٥١- عبد الجبار العمر - مصرع الكولونيل لجمن - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٧.

٥٢- عبد الرحيم عبد الرحمن - الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥ - ١٨١٨ - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة - ١٩٦٩.

٥٣- عبد الرحمن البزاز - العراق من الاحتلال حتى الاستقلال - ط ٣ - بغداد ١٩٦٧.

٥٤- عبد الرحمن السويدي – تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١٧٧٢ – ١٧٧٨م – تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٧ .

حديقة الزوراء في سيرة الوزراء – تحقيق د. صفاء خلوصي – ج ١ – مطبعة الزعيم – بغداد ١٩٦٢.

٥٥- عبد الرحمن التكريتي – جمهرة الأمثال البغدادية – ج ٥ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٨٦.

٥٦- عبد الأمير محمد أمين – القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر – بغداد ١٩٦٦.

٥٧- عباس العزاوي – تاريخ العراق بين احتلالين – ثمانية أجزاء – شركة التجارة والطباعة المحدودة – بغداد ١٩٥٤، ١٩٥٥ان ١٩٥٦.

– عشائر العراق – ج ١ – مطبعة بغداد – بغداد ١٩٣٧.

– عشائر العراق – ج ٤ – شركة التجارة والطباعة المحدودة – بغداد ١٩٥٦.

٥٨- عثمان بن سند الوائلي – مطالع السعود – تحقيق د. عماد عبد السلام وسهيلة عبد المجيد – دار الحكمة للطباعة – بغداد ١٩٩١.

٥٩- عثمان عبد الله بن بشر – عنوان المجد في تاريخ نجد – ج ١ و ج ٢ – ط ٤ – مطابع دار الهلال – الرياض ١٩٨٣.

٦٠- علاء كاظم نورس – العراق في العهد العثماني، دراسة في العلاقات السياسية ١٧٠٠ – ١٨٠٠ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٩ .

حكم المماليك في العراق ١٧٥٠ – ١٨٣١ – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٧٥.

٦١- علي الشرقي - ذكرى السعدون - مطبعة الشابندر - بغداد ١٩٢٩ - العرب والعراق - ط ١ - شركة الطبع والنشر الأهلية - بغداد ١٩٦٣ - الموسوعة، الألواح التاريخية - القسم الأول - جمع وتحقيق موسى الكرباسي - مطبعة العمال المركزية - بغداد ١٩٨٨.
٦٢- د. علي الوردي - لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث - الاجزاء ١ و٢ و٣ و٤ - بغداد ١٩٦٩ و ١٩٧١ و ١٩٧٣.
٦٣- علي شاكر علي - تاريخ ا لعراق في العهد العثماني - ط ١ - منشورات مكتبة ٣٠ تموز - نينوى ١٩٨٤.
٦٤- علي جودت - ذكريات - بيروت ١٩٦٢.
٦٥- عقيل عبد الحسين المالكي - ميسات وعشائرها قديماً وحديثاً - مطبعة الجاحظ - بغداد ١٩٩٢.
٦٦- عماد عبد السلام رؤوف - الأسر الحاكمة ورجال الإدارة والقضاء في القرون المتأخرة - مديرية دار الكتب للطباعة والنشر - بغداد ١٩٩٢.
٦٧- عماد أحمد الجواهري - تاريخ مشكلة الأراضي في العراق ١٩١٤ - ١٩٣٢ - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٨.
٦٨- فاسيلييق - تاريخ العربية السعودية - دار التقدم - موسكو ١٩٨٦.
٦٩- فتح الله الكعبي - زاد المسافر ولهنة المقيم والحاضر - ط ٢ - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٥٨.
٧٠- لوريمرج ج - دليل الخليج - القسم التاريخي - ج ٤ - ترجمة مكتب أمير دولة قطر - مؤسسة العلوم للطباعة والنشر - الدوحة، قطر (بدون تاريخ)
٧١- لوتسكي، فلاديمير - تاريخ الأقطار العربية الحديث - ترجمة د. عفيفة البستاني - دار التقدم - موسكو ١٩٧١.

٧٢- لونكريك، ستيفن همسلي – أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث – ترجمة جعفر الخياط – ط٦ – مطبعة أركان – بغداد ١٩٨٥.

– العراق الحديث ١٩٠٠ – ١٩٥٠ – ج ١ – ترجمة سليم طه التكريتي – الفجر للنشر والتوزيع – بغداد ١٩٨٨.

٧٣- محمد فريد – تاريخ الدولة العلية العثمانية – تحقيق د. إحسان حقي – دار النفائس – ط ٥ – بيروت ١٩٨٦.

٧٤- محمد خليفة البنهاتي – التحفة البنهانية في تاريخ الجزيرة العربية – ط ١ – دار إحياء العلوم – بيروت ١٩٨٦.

٧٥- محمد رشيد السعدي – قرة العين في تاريخ الجزيرة والعراق والنهرين – مطبعة الرشيد – بومبي ١٣٢٥ هـ.

٧٦- محمد هليل الجابري – إمارة المشعشعين – جامعة بغداد – كلية الآداب – رسالة ماجستير ١٩٧٣.

٧٧- مرتضى أفندي نظمي زاده – كلشن خلفا – ترجمة موسى كاظم نورس – النجف ١٩٧١.

٧٨- مكي شبيكة – العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى – ج ١ – بيروت ١٩٧٠.

٧٩- ميرزا حسن خان – تاريخ ولاية البصرة – ترجمة د. محمد وصفي أبو مغلي – جامعة البصرة – مركز دراسات الخليج العربي ١٩٨٠.

٨٠- نيبور، كارستن – مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة ١٧٦٥ – ترجمة سعاد هادي العمري – مطبعة دار المعرفة – بغداد ١٩٥٢.

٨١- وداي العطيه - تاريخ الديوانية قديما وحديثا - المطبعة الحيدرية - النجف ١٩٥٤.
٨٢- وزارة الثقافة والإعلام - أبحاث في التراث الشعبي - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨٦.
٨٣- وميض عمر نظمي وآخرون - التطور السياسي المعاصر في العراق - مطبعة جامعة صلاح الدين - ١٩٨٦.
٨٤- ويلسون، ارندتي - بلاد ما بين النهرين بين ولاءين - ج ١ - ترجمة وتعليق فؤاد جميل - دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٩٢.
٨٥- ياسين خير الله العمري - غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام - مطبعة دار البصري - بغداد ١٩٦٨ .
الآثار الجليلة في الحوادث الأرضية - مكتبة المجمع العلمي العراقي.
٨٦- يعقوب سركيس - مباحث عراقية - بأقسامه الثلاثة - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨١.

ثانيا: الصحف والدوريات

١- لغة العرب - منشورات وزارة الإعلام العراقية - المجلد الأول والثاني - دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧١.
٢- الزوراء (جريدة ولاية بغداد الرسمية) - الأعداد (١٦، ٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٩، ١٥١٦).
٣- جريدة صدى بابل - السنة الرابعة - العدد (١٩٦) في ٢٠ تموز ١٩١٣ - بغداد.
٤- دليل المملكة العراقية - بغداد ١٩٣٥.
٥- جريدة القبس الدولي - العدد (١٦٧٤) في ٢٣ حزيران ١٩٩٠ - الكويت.

ثالثاً: المصادر الخاصة بالنسب

١- جعفر الأعرجي - الأساس في أنساب الناس - (مخطوط)

- الدرة الأبدية في أنساب السادة الأعرجية (مخطوط)

٢- مهدي القزويني - العلويون في العراق

٣- ابن عنبة الحسيني الداودي - عمدة الطالبة في أنساب آل أبي طالب.

٤- جمال الدين عبد الله بن أبي البركات الحسيني الجرجاني - بحر الأنساب.

٥- ضامن بن شدقم الحسيني - تحفة الأزهار في نسب بني فاطمة الأطهار.

٦- أحمد محمد صالح البرادعي - الدرر السنية في أنساب الحسنية والحسينية.

٧- لغة العرب - الجزء (١١) - السنة الثانية - أيار ١٩١٣.

٨- مشجرات نسب عائلية قديمة.

رابعاً: المخطوطات

١- يعقوب سركيس - مركز صدام للمخطوطات - رقم الملف (٦٦٧٠).

٢- زفبودا - مركز صدام للمخطوطات - يوميات زفبودا - رقم الملف (٦٦٦٧).

٣- جودت - مركز صدام للمخطوطات - وقائع العراق من خلال تاريخ جودت - رقم الملف (٣٣٧٠٤).

٤- كاظم السعيدي - عشائر المنتفك والأسرة السعدونية - بغداد ١٩٤١ - (محفوظة لدى المؤلف).

٥- حميد السعدون - حكايات عن المنتفق (محفوظة لدى المؤلف).

خامساً: المقابلات الشخصية

١- مقابلة مع الأستاذ الدكتور كـــاظم الســعيدي، فـــي داره فـــي بغـــداد بتـــاريخ ١٩٩٤/١٢/١٥.

٢- مقابلة مع السيد رشيد الياسري، في ناحية الموفقية في ١٩٩٣/١٠/١٧.

سادساً: المصادر الأجنبية "الكتب"

1- Cohen S – British policy in Mesopotamia 1907 – 1914 – London 1976.

2- Dickson – The Arab of the Desert – London 1959.

3- Glubb J.B – War in the Desert – London 1960.

4- J.B. Philiby – Arabian Days – London 1948 .

Saudi Arabia (Nations of the Modern World) 1 st Edition – London 1955.

5- Jhon B. Kelly – Britain and the persian Gulf 1795 – 1880 – Oxford 1968.

6- Parsons A – Traveles in Asia and Africa – London 1808.

7- Young Gavin – IRAQ : Land of Two Rivers – London 1980.

سابعاً: وثائق أجنبية غير منشورة

1- National Archives and Records Service (N.A.R.S) Washington Record.

Group 84:

No: 47128

No: M – 467

No: 47 – 118

2- India Office Records (I.O.R) London.

No: P + S 10 / 463

No: R 15 / 5 / 25 .

يتناول هذا الكتاب

- التأسيس والنمو وتعاظم القوة، وشكل الاستقلال المتحقق وعلاقة المنتفق بما يحيط بها من امارات ومشايخ عراقية وعربية.
- ماذا تشكل البصرة في قصة صعود وسقوط هذه الامارة؟ ولماذا نجح أهل المنتفق في تحريرها من قبضة الاحتلال الفارسي عام ١٧٧٩م، في حين عجزت دولة الخلافة عن ذلك.
- دور المنتفق في الثورة العربية ضد المماليك، وقصة العلاقة القلقة والدموية التي تربط الجهتين.
- المنتفق وعشائرها.. الاجود، بني مالك، بني سعيد...
- الاسرة السعدونية ودورها الريادي في تكوين الاتحاد القبائلي وقيادتها لهم.
- الحياة الداخلية للامارة.. الطباع.. المضيف،، الاعراس.. الجيش.. القضاء.. الأرض.. وكل ما يحيط بحياة ومزاج أهل «الديرة».



دار وائل للنشر

شارع الجمعية العلمية الملكية - مقابل الباب الشمالي للجامعة الا...

تلفاكس ٥٣٣٥٨٣٧ - ص.ب: ١٧٤٦ الجبيهة - الاردن

(ردمك) ISBN 9957 - 11 - 022 - 5